



محکمہ صحت

سلسلة المزايقب والشعوب

تصدرها دار الثقافة العامة

م . ب . رقم ٩١٥ - القاهرة



- ١ — روسيا : صدرت الطبعة الأولى في أول يوليو سنة ١٩٤٥
- ٢ — النيبال : صدرت الطبعة الأولى في أول أغسطس سنة ١٩٤٥
- ٣ — الهند
- ٤ — قنال السويس
- ٥ — الولايات المتحدة
- ٦ — العراق
- ٧ — أفريقية الجنوبية
- ٨ — إنجلترا « المملكة المتحدة »
- ٩ — إيران
- ١٠ — شبه جزيرة العرب

مولاي

لهذا كتاب عن حياة مصر الحديثة ، على ضفاف النيل
يصور آمالا في ريدة شعب قديم ، يربط نهر عظيم
وتاج كريم ، كما يصور الآلام وراحا التي سكت
وما تزال ، لكن تعود هذه الرعدة كما كانت ، حقيقة واقعة
نحو لا جبهة (الزيم) ، ونزعم لا هوارث الدنيا ...
فهل نأزم له ، يا مولاي ، بأنم أرفع الى
مقام هذا الكتاب الذي أعده ، لهو ولطافة الكتب الأخرى
التي أصدرها ، ثمق منه ثمرات الحياة القوية (الجديدة) التي
بعضوها في صدور أبناء النيل ؟
أخي أجب أنه نال كتابي هذا ضاكم وجهه القبول .

غارس غرسكم
محمد صليحي

القاهرة في ٢٤ ، شعبان ١٣٦٤
١ أغسطس ١٩٤٥

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

- ١ -

النيل

هذا هو اسم الكتاب . وعند ما وضعته في قائمة هذه السلسلة ، قال لي صديق من المشتغلين بشؤون الطباعة والنشر : هلا غيرت اسم الكتاب ، فقد يحسبه القراء كتاب « جغرافيا » فيعرضون عنه ، فامسكت القلم وكتبت : النيل .. « ليس كتاب جغرافيا !! » وقرأها صاحبي وتبسم راضياً ، فقد أصبح كل شيء بخير ، مادام شبح « الجغرافيا » قد نأى عن أعين القراء ومادامت أجف ذكرياتهم المدرسية ستظل بعيدة عنهم ، لا تؤذى مزاجهم ولا تقلق بالهم .

ولقيت صديقاً آخر من المشتغلين بشؤون الرى في وزارة الأشغال ، وقلت له وهو يتصفح كتابى الماضى عن « روسيا » : سيكون كتابى القادم عن النيل . وتريثت حتى أرى كيف يهش ، ويقبل على ماسمع ، فالنيل هو مادة عمله ، وسيصره من غير شك — أو هكذا قدرت — أن أضيف عنه كتاباً إلى مكتبته . ولكن صاحبي هذا تردد ، ثم تجهم ، ثم قرر أن يخلص لى النصيحة ، وهى أن أغير اسم الكتاب ، فما بالناس حاجة إلى مزيد من « الجغرافيا » ، وما لديهم منها يكفيهم وزيادة . ولكنى قلبت صفحات ، وأشارت إلى اسم الكتاب ، وتحتة التأكيد ، وكدت أضيف ايماناً مغلظة ، ومواثيق مؤكدة ، أن بين « الجغرافيا » وبين كتابى عن النيل سداً منيعاً . وفرح صاحبي واطمأن إلى أنى إذن سأكتب لقراء ، وأتحدث إلى سامعين يحسنون الاصفاء .

ولما خلوت إلى نفسي، عجبت من كل هذا البغض الذي يدخره الناس « للجغرافيا »
وحدثت للدكتور عوض جلادته وصلابته، فهو يحمل على عاتقه منذ خمسة عشر عاماً ، كتاباً
طويلاً عريضاً عن جغرافية النيل، ولما يتقوس ظهره بعد تحت هذا العبء الفادح . ولكني
مع هذا عدت أسأل نفسي : هل تذكره كل الشعوب علم الجغرافيا ، كما تذكره في مصر ؟
وهل تستقبل المؤلفات عن معالم الأرض الشهيرة بمثل هذا الاحساس الذي شاع من حولي
وأنا أذيع أني سأكتب عن النيل ، وكأنني أخاطر بمكانتي بين حملة الأقلام أياً كانت ؟
لقد صبح لي منذ عشر سنين أن علمت أن الكاتب الألماني الشهير « اميل لدفيج »
أخذ يصدر كتابه عن « النيل » الذي سجل فيه مشاهداته وهو يجتاز النهر العظيم من
أقصى منابعه إلى نهاية مصبه ، ولشد مدهشت عندما علمت أن الاستاذ العقاد لم ينتظر
حتى يصدر الكتاب ، بل طلب من الناشر للطبعة الانجليزية — فكتب لدفيج تصدر
بثلاث لغات في وقت واحد — أن يرسل له « ملازم » الكتاب بالبريد الهوائي أولاً
بأول . وقد كلفته مطالعة « النيل » بهذه الطريقة عشرة أضعاف ثمنه ، ومع هذا كان
راضياً كل الرضى ، فقد استطاب متعة القراءة العاجلة لموضوع يمس مصر ، أو هو مصر
نفسها ، وهي متعة عقلية مجدية تستحق كل هذه اللهفة على اقتناصها . ولما صدر كتاب
« لدفيج » وجدته انقسم إلى جزئين ضخمين إذا ترجما إلى العربية زاداً على ألف صفحة
ولكن أحداً لم يفكر في الترجمة ، حتى لا تلحق مجهوده لعنة « الجغرافيا » وليغفر لي
أساتذة هذا العلم اجترائي ، فأنا أعبر عن رأي الكافة . ولكني مع هذا استطيع أن أؤكد
أن كتاب « لدفيج » لم يرد إليه أكداً ، يعلوها تراب الخازن . فقد نفذت نسخته ،
وقراها كثيرون باللغة الألمانية ، وباللغة الفرنسية ، وباللغة الانجليزية .. وربما بلغات
أخرى . وأرجو ألا يتعجل أحد فيتهم قراء هذه اللغات بفساد الذوق ، لأنهم يطالعون
جغرافيا ، ويطالعون عن نهر لا يجري في بلادهم ، ولا تقوم عليه حياتهم .. يطالعون
عن نهر النيل الذي تقوم عليه حياة مصر والسودان وأجزاء أخرى من أفريقية .

ومعاذ الله أن يكون قصدى أن أحجب الجغرافيا إلى الناس ، أو أن أستدرجهم والقي عليهم دروساً في هذا العلم ، فما إلى هذا قصدت ، وهذا أخلق بالأستاذة المتخصصين وفي مصر منهم فحول افذاذ . وإني صادق صادق عند ما أقول لكم إن كتابي عن النيل سيثير — من بعيد — إلى مسائل يحجب على كل « مصري » أن يعرفها كما يعرف اسمه ، وإلى برامج ينبغي أن تكون عقائدنا الوطنية الجديدة ، وأن نبني عليها سياسة المستقبل كله . قصصت في كتابي عن « روسيا » قصة خزان الدينير الذي انشأه ستالين ليمد روسيا بليون حضان كهربائي ، وينظم رى مساحات هائلة من أرض أوكرانيا ، ويسر الملاحة في هذا النهر الجوارح . وقلت إن ستالين قبل أن يشرع في العمل ، أخذ يفهم مواظنيه قصة خزائهم الجديد وأخذ يلح عليهم في الشرح والبيان ، حتى أصبح حديث كل رجل وكل امرأة وكل طفل في روسيا ، وحتى أصبح الخزان بطلا شعبياً يمجده الروسيون كما يمجّد الأنياء وعظماء التاريخ . وقد بدأت ميزانية المشروع تتضخم بتلايم التلاميذ وقروش العمال . وهكذا « كهرب » حديث الخزان شعب روسيا قبل أن يوضع في أساسه حجر واحد .

وما أحوجنا نحن إلى أن نستعيد هذا الأسلوب ، وأن نحول نيلنا العظيم الجميل الوديع إلى بطل شعبي ، نحنو عليه كما يحنو علينا ، وتحقق قلوبنا بحبه بقدر ما يدفع دماء الحياة حارة في قلوبنا بمائه الحلو ، وميقاته المنظم .. ما أحوجنا إلى أن « نغار » على نيلنا كما نغار على أعراضنا ، وأن تقدم له من « الخدمات » ما يحتاج إليه جزاء خدماته لهذا الشعب ..

النيل جريح يئن ويشكو .. ففي جسده ثقب كثيرة جداً تنفجر منها مياهه ، وهي عزيزة عليه كعزة الدماء في عروق الأحياء . فعند منبعه ، عند بحر الجبل ، تتدفق سيول من هذه المياه تغمر ٢٥ مليون فدان من الأرض ، ولو أن هذا الجرح التأم بمخاط أو بخليج جديد ، إذن لما ضاع هذا الماء العظيم الذي تدخره لنا بحيراتنا الهائلة على خط

الاستواء وتظل شهوراً تجمع الماء من أفواه السماء لكي يتبدد قبل أن يشهد الناس ويشهدونه .
وعند مصب النيل جرحان عظيمان يتدفق منهما ماء الحبشة الشرقى ، فى أيام الفيضان ،
وما أحوج صحارىنا الظمأى إلى نصيب من هذه الثروة المبددة ، من هذا النهر الأسمر ،
الذى نفرقه كل عام فى البحر المتوسط ، كأنا جيل من السفهاء يضع نعم الله وميراث
الأجيال ، شر ضياع .

لو أننا أحببنا نيلنا ، لنفخنا فى حفلة « وفاته » كل عام روحاً شعبية قومية جياشة
بالحياة ، تنذاكر فيها هذا الوفاء كيف كان . وتتواصى فيها بواجبنا حيال النيل وكيف يكون .
لقد تحدثت مع بعض رجال « الأشغال » ومع غيرهم من المشرفين على شؤوننا العامة
فعجبوا لاجترأى على التحديق فى « قدس » الهندسة ، وكل جارحة فيهم تكاد تقول
« دعونا نعمل فى هدوء » . وليس أحب إلينا من أن نترك الفنانين فى عزائهم الفاخرة التى
ينشدونها ، لو أننا كننا نعيش قبل قرن أو نصف قرن من الزمان عند ما كانت أجهزة
الحكم تشبه كتب العلم فى أيام الكهنوت الأول ، لا يقاربها ولا يمسها إلا خاصة الخاصة !!
أما اليوم فقد تبدل الأمر ، وأصبح « الفضول » من خلق الشعوب الأصلية ، بل كلما
ازداد نصيب الشعوب من الفضول كلما ارتقت فى سلم الرقى درجات .

وحرام على رجال « الأشغال » أن يحبسوا النيل وآلامه وآماله فى ملفاتهم الضخمة ..
حرام ألا يعرف « رجل الشارع » من أمر نيله شيئاً غير جرعة الماء التى يرتوى بها ،
وجرعات الماء التى يروى بها حقله . فربما كانت اطاعه أوسع ، وربما كانت رغباته
أقوى لو أنه عرف من أمر هذا الماء ، هبة السماء ، كل ما يجب أن يعرف .

لقد أصبحت كلمات اسوان وسنار وجبال الأولياء وطانا والبرت ، الغاراً
مغلقة ، يمر عليها القارىء العادى فى الصحف على عجل ، كما يمر على أمور لا تهتم ولا تعنيه ..
ونشأ عن هذه العزلة بين رجال الأشغال وبين الشعب الذى لا تبسط له علوم النيل ،
ولا تحبب إلى قلبه . الكثير من الأضاحيك والفكاهات والقصص التى تصور عجزه حيال

« ضفوس » الهندسة ، وكلما مرت أمام نظريه ملايين الجنهات التي تنفقها الحكومة سنويا هز كتفيه وانصرف عنها... وقص على واحد قصة تصور فيهم الناس لوزارة الأشغال قبل أن يوجد البرلمان وتحقق رقابته على الميزانية قال : وفد إلى مصر قبل الحرب العظمى الماضية موظف أجنبي سمع أن هذه البلاد بلاد الرشوة ، وقرر أن يلج هذا الباب المفتوح للثراء يغرف منه حنانا ، ثم يعود إلى بلاده . وكما كان يصنع بالأجانب قديماً ، عين في منصب كبير ، وعين له سكرتيرون وكتاب . ولما اطمأن على كرسيه دق الجرس ، فخف إليه سكرتيه.. سألته عن قصة ارشاوى في مصر ، وأفهمه أنه يريد نصيباً عاجلاً منها ، فقال السكرتير هذا يسير ، ودون أن يفكر اقترح بناء استراحة رى في بنى سويف ، فوافقه الاجنبى ، وعملت الرسوم والمناقصة ، ورست على مقاليد معين وقبض صاحبنا مبلغاً طيباً ، ثم تالت الطلبات لاستراحة بنى سويف من أسرة وكراسى وغيرها . ومضى عام وعام ، قنع فيه الأجنبي بما وصل اليه ورحل وحل آخر محله ، فخطر له أن يسافر إلى الوجه القبلى لى يعاين « الاستراحات » وكان مشوقاً بصفة خاصة لأن يرى استراحة بنى سويف التي انفتت على زخرفتها وتجميلها مبلغ طائلة حتى اسكانها احد القصور ، فلما وصل إلى المدينة سأل عن استراحاتها ، فلم يجد فيها استراحة . وظهر أن المناقصة والتصميمات والاعتمادات التي صرفت كانت كلها على الورق !!

وقد تكون هذه القصة غير صحيحة ، بل هى من خيال بعض المتدريين ، وأصحاب الفكاهة ، ولكنى أخشى إذا طال الأمر بوزارة الأشغال على سلوكها الحالى خيال الشعب أن يأتى وقت يصبح فيه خزان أسوان نفسه ، أسطورة مثل استراحة « بنى سويف » . ولقد حاولت وسأحاول أن أيسر أهازى « الأشغال » للفهم ، وأن أقرب شؤون النيل للناس ، وأن أجعل منه بطلا شعبياً يحس به الشعب ، كما كان القدماء يحسون به فى أيام وثبتهم حتى عبده .

قلت اننى لم أكتب كتابى هذا عن النيل لأدرس المناخ والجيوولوجيا ، فلم يكن شىء من هذا مطلقا الذى أوحى لى بفكرته . ولكن حدث فى خلال الأعوام الخمسة الماضية أن وجدت وقت فراغ طويل ، مكنتى من قراءة الكثير من الكتب التى حالت ضخامتها دون أن أتمكن من قراءتها قبل الحرب . وكان من بينها كتاب « مديرية خط الاستواء » لسمو الأمير عمر طوسون . وقد أدهشنى أن هذا الكتاب كان عندى ، وأنى تصفحته على عجل ، ولكنى لم أتبين تماماً فائدته العظيمة ، وما حواه من ذخائر العلم التى لا تقدر بثمن . وحسب هذا الكتاب ، أنه عرفنى إلى شخصية « حواش افندى !! » .. أجل شخصية الضابط المصرى حواش افندى منتصر ، الذى عاش مع مئات من المصريين عند البحيرات الاستوائية سنوات طويلة من آخر القرن الماضى ، ومثلوا شعب مصر وتاج مصر ، حتى أذنت ظروف البلاد السيئة بأن تستدعيهم حكومتهم وتمحو سيادة مصر من معظم هذه الأصقاع ..

لقد حملنى « حواش افندى » ، ولتقبل هذا الاسم على علاته ، وأرجو أن تألفه وأن تحبه كما أحببته .. حملنى على أن أتقصى سير بعض هؤلاء الجنود المجاهدين الذين أحبوا النيل فأحبهم ، والذين أراقوا دماءهم ، وقضوا زهرة شبابهم وبيع عمرهم بجوسون حول ضفتيه ، ويشقون بنكران جهودهم ، ويسعدون بأداء واجبهم ، ويتألمون وتبكي دموعهم وقلوبهم لفرط اعيائهم ولفرط اهلهم ، حتى اختلطت مياه النهر بدمهم وبدمعهم وحتى لم أعد أستطيع وأنا أصدق فى مياه النهر أن أفر من صورة « حواش افندى » ، وأصحابه وهى تتراعى على الصفحة الوضاعة اللينة .. صفحة النيل وهى تنساب أمام النظر . ومنذ قدمنى كتاب الأمير إلى حواش افندى ، أخذت أتابع القراءة فى هذا الباب ،

وأتتبع سلسلة الجهود المصرية العريقة التي بذلت لبناء وحدة النيل ، ومالبت أن عثرت على شخصية أخرى سبقت وعاصرت شخصية الاستوائى المصرى حواش افندى ، وهى شخصية القائد المصرى ابراهيم باشا فوزى الذى كان آخر ممثل لشعب مصر وتاج مصر فى الخرطوم حتى سقطت فى يد المهدي ، وكان أول من فكت جيوش مصر أسره بعد أهوال مخيفة عاش فى وسطها أيام الحكم المهدي فى السودان ..

ولم اردت لهذا القائد الأسير حريته ، وعاد إلى وطنه ، نشرت له جريدة المؤيد مذكراته عن حياته فى السودان فى كتاب ضخيم ، حوى نصف سيرة فوزى باشا ، أما النصف الآخر فلم يطبع ، وقد انهكت نفسى بحثاً وراء المذكرات المخطوطة فلم أعثر عليها ، فاضطرت إلى التماس باقى القصة عند مؤلفين أجانب عاشوا فى نفس الأسر مثل سلاطين ونيوفلد ، وسجلوا إلى جانب خواطرم لمحات عن أسرار ابراهيم فوزى وسيرته .

ومن خلال هاتين القصتين : وقد مضى على انتهاء حوادثها ٥٠ سنة .. ومن بين سطور هاتين السيرتين : سيرة حواش افندى و ابراهيم باشا فوزى ، تكامل يقينى واقتناعى ، بأن هذا النهر العظيم .. نهر النيل الذى غذى أمثال هذه الشخصيات الطيبة الخيرة واحتضنها ، لا يمكن أن يخضع لعوامل الفرقة السياسية التى ضربت عليه ، وأن الدماء والآلام التى احتملها آباؤنا الاقربون على ضفتى النيل لن تضيع سدى ويكنى أن نتذكرها لكي تكون وثيقة الميراث ، وحبوة الأبناء والأحفاد التى تذكرهم بحق «نهرهم» عليهم ، وبواجبهم الأبدى الخالد ، وهو أن يجمعوا شمل مالم يأذن الله ، ومالم تأذن الطبيعة ومالم يأذن التاريخ ، بأن تتفرق أعضاؤه ، وتتمزق أشلاؤه ، وتتبعثر مقوماته وأجزاؤه .

وقد حببنى « حواش افندى » إلى هذه الأسماء الممتنة المظلمة التى مرت علينا صفاراً فى دروس الجغرافيا من أمثال نيمولى ، وغابة شمبى ، ومكراكا ، وغندكرو وغيرها . فقد عاش فيها ، وتنقل بينها ، وصحبه مئات من أبناء النيل وأفراد قلائل من بيض أوربا ، وظلوا

يضيئون مشاعل الحضارة ويوطدون قواعد النظام ، فلما انتهت مهمتهم لأمر خارج عن ارادتهم ، تركوا بلاداً عرفت نفسها ، وعرفها العالم من بعدهم .

من يستطيع أن يقول عن أفريقية إنها القارة الظلماء ، وقد حمل حواش افندى المشعل ، وبدد الظلمات ، واحترق من ناره كثيرون من أحبائه وأعرائه ..

من يستطيع أن يقول إن عشرات الألوف من المصريين الذين ماتوا في السودان أيام حكم المهدي والتعايشي ذهبت دماؤهم سدى ، وطمر التراب ذكراهم .. لا .. لا ، فصر التي رفعها محمد على إلى أعالي النيل ، واحترق ابنه العزيز في فيافيه ، هي مصر التي أقامت في أرض هذا النهر لا تعرفه أجزاء ، ولا تعرفه حدوداً ، ولكن تعرفه جميعاً .. فلما عصفت بأبنائها عاصفة الثورة المهدية ، عرفت كيف تصبر ، وكيف تنتظر ..

ومن خلال الجهود المصرية ، مع قيادة بريطانية ، عادت مصر إلى السودان ، أو عاد السودان إلى مصر ، وكانت عودة كاملة شاملة لا تعرف قيوداً . حقيقة فرض كرومر على مصر معاهدة سنة ١٨٩٩ ، التي قسمت أرض النيل إلى قسمين : قسم تحكمه إنجلترا مباشرة ، وقسم تترك في حكمه مع مصر . وهذه المعاهدة تكون في التاريخ صفحة — ما في هذا شك — ولكن الاحتلال نفسه الذي سبقها بسبعة عشر عاماً ، والحماية التي لحقتها بعد مثل هذا الزمن ، تكون أيضاً صفحات من تاريخ مصر الحديث . ومصر التي لم ترض عن الحماية ، ولم ترض عن الاحتلال ، وسعت وما تزال تسعى لتحقيق استقلالها ، هي نفس مصر التي لم ترض عن معاهدة سنة ١٨٩٩ وسعت وما تزال تسعى لتعديلها . والسودان ، لا بقية حوض النيل كما يجب أن يكون ، كان موضوع محادثات مستمرة بين الجانب المصرى والجانب البريطانى . وقد اعترف في جميع المفاوضات بأن أمره متروك لمفاوضات مقبلة ، ومعنى هذا التصريح أن كلا الجانبين المصرى والبريطانى يسلان بأن معاهدة سنة ١٨٩٩ ليست أساساً صالحاً لاقامة نظام حكم سليم في أى مكان من الأرض ، بل هي توجد في عرف القانون الدولى وضعاً شاذاً لا نظير له في ديانا المعاصرة .

ولقد أدت ثنائية الحكم خلال ستة وأربعين سنة إلى نتائج حسنة في اقرار النظام ، وكانت أعباء هذا الحكم واقعة كلها تقريباً على الجانب البريطاني . ولكن استقرار الأمن ، وإيجاد حكومة مركزية في السودان ليس كل شيء في حياة الأمم . فصر نفسها قبل ستين سنة كانت تشكو مما كان يشكوه السودانيون . ونقدم أنظمة الحكم في مصر ، واستقرار مآلتها وأمنها ، لم يستدع بحال من الأحوال أن يصر الانجليز على البقاء في بلادنا لمتابعة التنظيم البوليسى او المالى ، فقررُوا أن يخففوا يدهم . والعلاقات بين البلدين في طريقها إلى أن تستقر على أساس حلف حر شريف . وهذا ما يقال عن السودان تماماً ، فننظم أداته الحكومية لا يمكن مطلقاً أن يكون ذريعة لاستمرار التدخل في شؤونه . فيجب أن يترك أمر السودان لأهله ، وأهله هم أبناء النيل جميعاً ، بعد أن رشد جنوبهم مثلاً رشد شمالهم .

وما يقال عن رغبة فريق من السودانيين في الاستقلال عن مصر ، وعن بريطانيا معاً ، لا يجب أن يقام له وزن كبير . فنحن لا نبحث عن مغنم في السودان إلا بقدر ما يبحث السودان عن مغنم له في مصر . ومع ذلك فالمصريون والسودانيون أحرىء أن يسووا أمورهم فيما بينهم ، كما يسوى الأهل شؤون دارهم .. ومع ذلك — مرة أخرى — فلا ضير في أن يكون حكم القضية عمرو بن العاص أو ابرموسى الأشعري ، فسواء في نظر الواقع أن تحكم الكوفة أو تحكم دمشق ، ولكن الكارثة كانت في أن تحكم يزنطة الاثنين !!

ونحن — بعد هذه الحرب — نريد أن نستأنف بحث مسائلنا القومية في حدود الروية والاتزان ، وسنرى من غير شك أن مصر القوية المقتدرة بثروتها وبكامل أرضها وبكامل نيلها ، ستكون عوناً أكبر عون في استقرار السلام ، وسيادة المبادئ الحرة الأصيلة . وقد هزت الحرب ، مع تقدم الزمن وتطور الفكر ، مبادئ الاستعمار القديمة من أساسها ، ولا يجب أن ننتظر حرباً جديدة لكي تقتلع هذه الشجرة الخبيثة من

الكون ، وإنما يحسن كثيراً أن تسود الثقة والتعاون الصادق بين شعب النيل كله ، وبين الشعب البريطاني ، فهذه الثقة كفيلة بأن تحقق من النتائج أضعاف ما تحققة أساليب القهر والارغام في ظل الأسلحة والأساطيل .

وما جرت علينا انجلترا ولا غيرها خيانة ، ولا نكوصاً على العقبين . فقد وفينا الأمانة في محنة الحبشة عام ١٩٣٥ ، وفيناها في محنة الحرب الحاضرة . وعلى الأخص عام ١٩٤٢ ، وسنكون أكثر حرصاً على الوفاء في أزمات أخرى قد تقع .



ولقد شاقنتني القراءة عن النيل نهراً وأهلاً ، فأخذت أتتبع الجهود التي بذلت لكشف مجاهل النهر الجنوبية ، وأهمها كما ذكرت جهود منشىء مصر الحديثة محمد على الكبير الذي دفع رجاله وبعوثه حتى وصلت إلى غندكرو عام ١٨٤١ ، ثم حالت صخور النهر وشلالاته دون متابعة الملاحاة في مجراه . ولكن ما وصل اليه رجال محمد على كان عظيم القيمة ، مغرباً أشد الاغراء للمغامرين والعلماء الأوربيين بمتابعة عمله فبعد أربع سنين أخذ رائد انجليزى « جون بتريك » يدب في أعالي النيل ، ولكنه غرب وقصر رحلته على مناطق بحر الغزال وبلاد بحر الغزال .

وتتابع الرواد بعد ذلك ، وكان أهمهم « سبيك » الذى سار من زنجبار مع صاحب له حتى وصل إلى بحيرة فكتوريا . وقد كان أعظم عون لهذا الرحالة تجار العرب الذين عرفوا البحيرات الاستوائية وارتادوها طولا وعرضاً ، ولكن جهودهم كانت قاصرة على تبادل التجارة ، أما علومهم فظلت فى صدورهم لم يعنهم أن يقدموها لأحد . . إلا إذا تفضل وطلبها . ومن المحقق أن العرب عرفوا منابع النيل من العصور الوسطى ، وأنه كان بالنسبة لهم شيئاً عادياً . ولم يظهر أثره فى مؤلفاتهم لهذا السبب ، لأن التجارة كانت شغلهم قبل أى شىء آخر .

وانضم الرحالة جرانت إلى سبيك ، ثم التقى بهما السر صمويل بيكر ، وظل الثلاثة يدورون حول المنابع ، حتى عام ١٨٦٩ ، عند ما تولى الخديوى اسماعيل باشا بعث نهضته القوية فألحق بيكر بخدمته ، وتولت خزينة مصر تسيير البعث والانفاق عليها ، مما سيرد تفصيله ونحن نقص التاريخ الانسانى للجهود المصرية فى تلك المناطق .

وإذا كانت أوروبا قد اهتمت فى منتصف القرن الماضى بالكشف عن مجاهل النيل ، فقد كانت تحركها عوامل هامة ، أولها عامل اقتصادى . إذ أدى ظهور النهضة الصناعية ومخترعاتها الحديثة إلى طلب الكثير من المواد الخام . وكان المطاط على رأس قائمة المواد المطلوبة للصناعة . وبذا دخلت المناطق الاستوائية فى الحساب .

وإلى جانب العامل الاقتصادى ظهر عامل آخر لا يقل أهمية عنه ، فقد قويت الحركة المسيحية فى أوروبا ، واشتدت الرغبة فى نشر الدين والتبشير به فى كل مكان . وكانت أرض الوثنيين الذين لا دين لهم من بين الجهات التى أوثرت ببذل الجهود . وقد التقى العاملان : الاقتصادى والدينى ، فكونا معاً حركة الاستعمار الكبرى التى شهدتها منتصف القرن التاسع عشر .

وهكذا كان رجال الدين طليعة الموكب الأوروبى فى القارة الأفريقية ، وتبعهم رجال التجارة ، ثم أعقبهم على الفور الجيوش المتحاربة .

فلما ظهرت مصر فى الميدان ، يجذبها عامل التوحيد الأكبر — وهو نهر النيل — تولت العمل فيه جهتان : السياسة ومن ورائها بعثات اسماعيل باشا العسكرية ، والدراسات المائية ووراءها مصلحة ثم وزارة الأشغال المصرية .

قد نظم هذه الدراسات فى أول الأمر مهندسون من الانجليز : أهمهم الكولونيل مونكرىف ، والسروليم جارستون ، والسر ويلسكوكس ، والسر مردوخ مكدونالد . وتبعهم بعد هذا ، الرعيل الحاضر من كبار المهندسين المصريين وأهمهم اسماعيل باشا سرى وابنه الشهير حسين باشا سرى . وإن كان من الخير ومن حسن الوفاء أن نشير إلى جهود العلامتين

على باشا مبارك وأمين باشا سامى ، فقد كتب أولهما « نخبة الفكر في تدبير نيل مصر »
وثانيهما « تقويم النيل » وهما سفران قيمان جداً .

وقارىء تقارير مصلحة الأشغال ، يدهش للمحاورات والمباحث التى كانت تدور
بين رجال الهندسة منذ نصف قرن ، وهم يضعون خططهم لإنشاء خزان أسوان . فقد
كتب السرجارستون يرد على الاعتراضات التى أثبتت حول إنشاء الخزان وهى :
١ — وجود صعوبات فى الإنشاء تفوق نجاح الشغل وإتمامه .

٢ — تعرض القطر المصرى للهجمات العسكرية الأجنبية التى ربما تقبض على زمام
السد ، فيضر ذلك بالقطر المصرى ضرراً عظيماً وتعدم الزراعة الصيفية .
٣ — حدوث زلازل ، أو أن بناء السد ربما يكون رديئاً فإن ذلك مما يتسبب
عنه كسر السد دفعة واحدة فيحدث عنه طوفان عظيم يتلف كل أراضى القطر المصرى
من أسوان الى القاهرة

٤ — نظراً لأن مياه الخزان ستكون راكدة فربما تسبب عن ذلك تعفن فيها ،
فيحصل من ذلك تسمم مياه القطر المصرى ، وتصير غير صالحة للاستعمال .
ومنذ أنشئ الخزان وعمره الآن ٤٣ سنة لم يحدث شئ مما قيل عنه قبل إنشائه .
ولكن من الطريف أن نذكر رد جارسون على النقطة الثانية ، وهى الهجمات
العسكرية قال :

« هذه الطوارىء لا يصح أن المهندسين يشتغلون بها ويفتكرون فيها لأنها ليست
من متعلقاتهم ، بل هى من اختصاصات الحكام وأولياء الأمر المشتغلين بسياسة الأمة
وقيادة القطر ، فهم الذين يبدون آراءهم وأفكارهم للحضرة الخديوية الحاكمة على الأمة
المصرية جميعها . ومع ذلك ، فأنى أقول من نفسى انه اذا امتلك العدو يوماً ما من الأيام
المنطقة التى بين أسوان وحلفا ، فإن الحكومة المصرية تصبح والعياذ بالله معدومة ،
وتصير كلاً شئ بالكلية ، وما دام بالله عليك قد استولى العدو على مديرية الحدود ،

فانه بلا شك بعد قليل يستولى على بقية القطر المصرى ، فهل لا يبكينا شيء من كل هذه الخسارة سوى ضياع زراعة صيفية واحدة « !!

وتتابعت جهود وزارة الأشغال ، فقام السرجارستون المذكور برحلة هامة جدا في بحر الجبل وكتب تقريره المطول عنه ، واقترح مشروع قنال السدود وغيره ، ثم أصدرت وزارة الأشغال تقرير ضبط النيل ، للسردوخ مكدونالد ، وفيه المقترحات الهامة التى سنشير إليها فيما بعد .

ولا يفوتنى أن أشير إلى تقارير وزارة الأشغال السنوية ، وهى على أهميتها تمتاز بعيين أولهما - خروجها عن المسائل الفنية إلى ذكر أجازة الموظفين ، واستدباباتهم .. الخ ثانيهما - أن صدور التقارير يتأخر أربع سنين أو أكثر عن مواعده . فنحن نقرأ في سنة ١٩٣٢ ما حدث في وزارة الأشغال عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ . وكأنما هذه التقارير أعدت للاهمال والحفظ في دور المحفوظات مع أنها المراجعة الصحيحة لجهود الأمة وخزيتها لضبط النيل والحصول على خير النتائج من ترويضه .



ويحسن أن نستطرد قليلا ، فنذكر المراحل التى مرت بها أحداث السودان في المفاوضات الرسمية بين مصر وإنجلترا منذ ربع قرن إلى الآن ، وذلك لكي تكون تحت يد القراء فكرة صحيحة عن آراء الجانبين حتى إذا فتحت المفاوضات قريبا كانت حلقة في سلسلة متصلة .

وقبل أن أنتقل إلى حديث المفاوضات ، ، يجب أن نقف فترة ننحنى فيها اجلالا واكباراً لذكرى هذا المصرى العظيم الأمير عمر طوسون ، الذى وفر كل جهده ، وكل وقته لكي يعلم مصر والسودان ، لكي يعلم أبناء النيل جميعاً ما هو حقهم ، وما هو واجبهم . فلما تولى إلى رحمة الله ، وجب على القادرين من بعده أن يتابعوا العمل لتحقيق غايته الكبرى . وسيظل اسم الأمير لامعاً في تاريخ الفكر المصرى ، وتاريخ السياسة المصرية وحسبه فخراً هذا الهرم العظيم من المؤلفات التى خلفها من بعده وصية تتوارثها الأجيال وتهتدى بهديها . أحسن الله مثوبته ، وأفاض عليه من رحمته .

عند ما بدأت مصر حملتها الكبرى لتحديد علاقاتها مع إنجلترا ، سافر إلى لندن أول وفد مصري رسمي برئاسة المرحوم عدلى يكن باشا ، وكان من أعضائه رشدى باشا وصدق باشا ، وشفيق باشا وغيرهم ، وتولى مفاوضتهم من الجانب البريطانى اللورد كيرزون وزير الخارجية ، وفى جلسة ١٤ يوليو سنة ١٩٢١ ، كان البحث يدور حول المصالح المهمة التى يحسن أن يشترك الاجانب فى الاشراف عليها مع المصريين .. قال اللورد كيرزون : — سألنى بعضهم وأنا أناقشه ، وما شأن الرى ؟ انكم لا تجهلون أهميته لمصر ، كما لا تجهلون أن أعمال الرى الكبرى قام بها الانجليز بخبرتهم المكتسبة فى الهند ، وهى من مفاخرهم ، ويجب لبقائها أن تستمر تحت اشراف حقيقى ... فقال : ولذلك أسألكم أياكون للمندوب المالى رقابة عليه ؟ وكيف يجرى من غير رقابة واشراف ؟

عدلى باشا — نحن نتولى أمور رينا بأنفسنا .

اللورد كيرزون — هذا جميل ولكن أياكون كافياً ؟

عدلى باشا — الواقع اننا سنلجأ إلى أهل الفن والخبرة فى هذا الباب .

اللورد كيرزون — من يضمن عدم وقوع الخطأ ؟ إن الرجال السياسيين لا يفقهون هذه المسائل كثيراً ، وأنا لا أطلب منكم الآن جواباً ، وإنما أنبهكم إلى أن هذا أمر يهم مصالح الأجانب . وللأجانب مصالح غير الدين ، ولا يتوقع أن تستقيم أعمال مصلحة الرى إلا إذا كانت فى أيدى أكفاء .

رشدى باشا — مصلحة المصريين أنفسهم أن يكون الرى قبل كل شئ ، على أحسن

حال . ثم إن أملاك الاجانب قليلة بالنسبة لأملاك المصريين .

اللورد كيرزون — ليس هذا كافياً .. وتقد رأيت فى الهند أغلاطاً فاضحة

وأذكر أن إحدى الإمارات الهندية طلبت منى أن أعين لها مندوباً مالياً وآخر للرى .
عدلى باشا — ذكر تاريخ أعمال الرى وبين أن الأعمال المهمة من عهد محمد على
تمت بواسطة الاستعانة بالأجانب ، وليس فى المصالح المصرية المهمة ما يعنى له المصريون
مثل هذا ، فهم خير رقيب على طريقة ادارته .

صدقى باش — المسألة مسألة حياة وموت بالنسبة لمصر فلا يخشى من أن نفرط فيها .

...

وفى جلسة ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢١ ، دارت المفاوضات حول مركز السودان
والنيل . سأل المستر لندسى :

— وما ذا ترون فى السودان ؟ فأجاب عدلى باشا :

— إننا لم نتعرض له ، لأننا فضلنا أن ننتظر الفراغ من المناقشة فى المسائل الأخرى
قبل أن نعالج هذه المسألة .

المستر لندسى — لم يعهد إلى الكلام فى هذا الموضوع ، ولكنه غير محرم على .
واعلمكم تذكرون ما كتبه اللورد ملتر فى تقريره عنه^(١) ، ولا أظن الحكومة الانجليزية
إلا آخذة برأيه فيه .

(١) ورد فى تقرير اللورد ملتر عن السودان :

■ « ان المشروع الذى تضمنته المذكرة يتناول مصر فقط ، ولا ينطبق على السودان ، البلاد التى
تختلف كل الاختلاف عن مصر فى أوصافها وتركيبها ، وكون حالتها السياسية محددة تحديداً جلياً فى
الاتفاق الانجليزى المصرى المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، وليست كحالة مصر التى لا تزال غير معينة .
فلهذه الاسباب أخرجنا السودان عمداً من مناقشاتنا كلها مع الوفد ، وكان لذلك مفهوماً دائماً عند
أعضائه ، ولكن منعاً للخطأ وسوء الفهم بمصر فى غاية مناقشاتنا ومداهما رفع اللورد ملتر الكتاب
التالى إلى عدلى باشا يكن لا أرسل إليه المذكرة وهو

■ ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠

عزيزى الباشا

بخصوص الحديث الذى جرى بيننا أمس أعود فأقول مرة أخرى أنه ليس بين أجزاء المذكرة التى

عدلى باشا - ولكن اللورد كيرزون لم يضع لمسألة السودان حلا معينا ، ولا ضمن تقريره شيئا عن تفصيلات نظام الحكم فيه . ولا يخرج الأمر في ذلك التقرير عن

أنا مرسلها اليك الآن جزء يقصد تطبيقه على السودان ، كما هو ظاهر من المذكرة نفسها ، ولكنى أرى اجتنابا لكل خطأ وسوء فهم في المستقبل أنه يحسن بنا أن ندون رأى اللجنة وهو أن موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه قط نحن وزغلول باشا وأصحابه خارج بالكلية عن دائرة الاتفاق المقصود لمصر ، فان البلدين يختلفان اختلافا عظيما في أحوالهما ، ونحن نرى أن البحث في كل منهما يجب أن يكون على وجه مختلف عن وجه البحث في الآخر .

إن السودان تقدم تقدما عظيما تحت ادارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاق ١٨٩٩ ، فيجب والحالة هذه ألا يسمح لأى تغيير يحصل في حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب في توسيع نطاق تقدم السودان وترقيته على نظام أنتج مثل هذه النتائج الحسنة .

على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية في إيراد الماء الذى يصل إليها مارا في السودان ، ونحن عازمون على أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك لإيراد لحاجاتها الحالية والمستقبلية .

■ ويجعل بنا في هذا المقام أن نورد بالإيجاز الأسباب التى نرى أنها تقضى باستحالة تسوية مسألة السودان على المبادئ التى يراد تسوية المسألة المصرية عليها ، ونشير في الوقت عينه إلى الخطوة العامة التى يلوح لنا أنها أصلح من سواها لسد حاجات السودان الحالية فنقول :

إن الأكثرية الكبرى من أهل مصر متجانسة بالنسبة إلى سواها ، وأما السودان فمقسوم بين العرب والسود ، وفى كل من هذين الجنسين الكبيرين أجناس وقبائل يختلف بعضها عن بعض اختلافا عظيما ويضاد بعضها بعضا كثيرا . أما عرب السودان فيتكلمون باللغة التى يتكلم بها أهل مصر ، وتجمع بينهم جامعة الدين . والاسلام آخذ في الانتشار في السودان حتى بين الأجناس غير العربية من أهله ، وهذه المؤثرات تلطف ما بين أهالى البلدين من التضاد والتنازع ، ولكنها لا تقوى عليه بعد ما زادت تذكار سوء الحكم المصرى الماضى قوة وشدة .

■ أما الروابط السياسية التى ربطت السودان بمصر في فترات مختلفة من الزمان الماضى ، فكانت دائما روابط واهية ، فان الفاتحين المصريين اجتاحتوا أقساما من السودان ، بل السودان كله ، ولكن مصر لم تخضع السودان قط اخضاعا حقيقيا ، ولا أدغمته فيها وجعلته بعضا منها بمعنى من المعانى ، وكان فتحها له في القرن الماضى نكبة كبيرة على البلدين معا ، وانتهى أمره بفتنة المهدي التى قلبت السلطة المصرية رأسا على عقب في أوائل العقد الثانى من ذلك القرن . ولم يبق للسلطة المصرية من أثر في السودان مدة أكثر من عشر سنوات إلا في مقاطعة صغيرة حول سواكن ، فاضطرت بريطانيا العظمى من جراء ذلك النشل أن تجرد عدة حملات أنفقت عليها أموالا طائلة لنجدة الحاميات المصرية ، والدفاع عن مصر التى كانت عرضة لسيل عصابات المهدي الجارفة ، واستلمت الأيدى البريطانية زمام حكومة السودان فعلا منذ فتحته القوات المصرية والمصريين بقيادة قواد بريطانيين في سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٨ ، وبات السودان تحت الحماية البريطانية المصرية في سنة ١٨٩٩ ، لات الحاكم العام ، وإن كان يعينه السلطان

بعض آراء عامة ترمى إلى استيفاء طابع الحكم الذى جرى فى السودان من فتحه إلى الآن . وإذا كان لنا أن نتكلم فى السودان الآن فانى أحب أن أعرف أولا رأيك فى مركز السودان .

(وسابقا خديو مصر) إلا أن الحكومة البريطانية التى ترشحه ، وكل مديرى المديريات وكبار الموظفين هم من البريطانيين ، فقدم السودان تقدما عجيبا ماديا وأديا تحت رعاية الحكومة المنظمة هذا النظام ، لأننا إذا حسبنا حساب كل ما تقتضيه بساطة هذه القضية ، وهى ادخال المبادئ الأولية للحكومة منظمة متمدنة إلى بلاد أهلها لا يزالون فى أول عهد السفاجة ، حكمنا أن النجاح العظيم الذى نجحته بلاد السودان فى المدة الطويلة التى كان فيها السير ريجنلد ونجت حاكما عاما عليها يعد أجدد صفحة فى تاريخ الحكم البريطانى على الشعوب المتأخرة . أما الحكومة الحالية فقبولة ومحبوبة عند أهل السودان ، والسلام والتقدم يحميان فى تلك البلاد إلا فيما ندر .

■ غير أنه ، وإن تكن مصر والسودان بلدين ممتازين أحدهما عن الآخر ، وارتقاؤهما يكون على مناهجين مختلفين ، فلمصر مع ذلك مصلحة عظيمة جداً فى السودان ، وهى أن النيل الذى يتوقف عليه وجود مصر وكيانها يجرى مسافة مئات من الأميال فى بلاد السودان ، فمن أهم الأمور لمصر منع أى تحويل لماء النيل يمكن أن يقلل مساحة أراضيها الزراعية الحالية ، ومنعها من اصلاح أراضيها التى تبلغ مساحتها حوالى مليون فدان وتصبح قابلة للزراعة إذا خزن ماء النيل ، وزاد ما يرد منه للرعى عما هو عليه الآن .

وقد كانت كمية الماء التى يأخذها السودان رأساً من النيل قليلة حتى الآن ، ولكن كلما زاد عدد سكان السودان احتاجت بلادهم إلى ماء أكثر لأجل تقدمها ، وقد يقضى ذلك إلى التضارب بين مصالحهم ومصالح أهل مصر ، ولكن الأمل وطيد أنه إذا حفظت مياه النيل جيداً ، ووزعت كذلك ، كفت لرى كل الأطنان التى يمكن أن تحتاج إلى الرى سواء كانت فى مصر أو فى السودان . ولكن التحكم فى مياه النيل وضبطها للرى مسألة على أعظم مكان من الأهمية . والقضايا التى تتطوى تحت ذلك فنية كانت أو غير فنية صعبة ومعقدة جداً بحيث يقتضى فى رأينا تعيين لجنة دائمة من خيرين من الطبقة الأولى ، وأيضاً من رجال ينوبون عن البلد التى لها علاقة بهذا الأمر ، وهما مصر والسودان وأوجدنا لتحل كل المسائل التى لها مساس بالتحكم فى ماء النيل وضبطه ، ولنضمن توزيع الماء بالقسط .

■ والضرورة تقضى الآن بأن يكون السودان كله تحت سيطرة واحدة عليا ، ولكن لا يستحسن أن ينحصر الحكم كله فى حكومة مركزية ، بل الواجب إنشاء مقابلد لإدارته بقدر الامكان إلى حكماء من الوطنيين حيثما وجدوا تحت المراقبة البريطانية نظراً لاتساع أرجائه ، واختلاف طباع أهله واختلافهم . فالحكومة البيروقراطية المركزية لانتلائم السودان على الإطلاق ، وإنما تلائم اللامركزية ، واستخدام العناصر الوطنية ، حيث يستطيع إنجاز الاعمال الادارية البسيطة التى تحتاج البلاد اليها فى الحالة التى هى عليها من التقدم لأن ذلك يقلل نفقاتها ويزيد فى كفاءة رجالها وحسن ادارتها . والموظفون الآن من أهل البلاد قليلو العدد إلى جانب الذين يؤتى بهم من مصر ، وهؤلاء لا يحبون الخدمة فى السودان ،

المسترلندسى - انه حكم ثنائى Condominium (ملك مشترك)

عدلى باشا - إنما الاشتراك فى الإدارة ، أما حق السيادة فهو لمصر وحدها . كان السودان لمصر فتر كته زمنا ، ولكنها لم تفارقها لحظة ففكرة استرجاعه حتى تهيأت الظروف لاعادة فتحه فاشتركت انجلترا مع مصر فى جزء من التجريدة التى أرسلت اليه والأموال التى أنفقت عليه . ولكنها لم تدع يوما حقا على السودان بسبب ذلك الاشتراك فأنما فتح السودان باسم مصر ، ولمصلحة مصر ، وما زالت مصر تسد عجز ميزانيته حتى عهد قريب ، وقد أعلن ذلك أكثر من مرة رجال السياسة ، والجيش ، والورد كرومر واضع اتفاقية السودان .

المسترلندسى - ولكن المرفوع على دور الحكومة فى السودان هو العلمان الانجليزى والمصرى .

ولكن هذه الصعوبة ستذلل كلما تقدم التعليم فى السودان ، وزاد عدد الذين يصبرون كفتا من أهله التفلد الوظائف الرسمية .

■ والواجب فى الوقت عينه الانتباه الكلى إلى أمر التعليم حتى لا يرتكب فيه الخطأ الذى ارتكب فى مصر بادخال نظام اليها لا يؤهل التلاميذ لعمل يذكر سوى الأعمال الكتابية والوظائف الادارية الصغيرة ، وتخرج جمهور كبير يفوق الحاجة من الذين تطمح أبصارهم إلى الاستخدام فى الحكومة ، فليس فى السودان مجال لجيش من صغار الموظفين ، ولذلك يجب أن يوجه التعليم بحيث يربى فى السوڤانيين القابلية والميل إلى الأعمال الأخرى كالزراعة والصناعة والتجارة والهندسة . إن حاجة البلاد الآن هى إلى الترقى المادى ، وفى وسعها الاستغناء عن نظام ادارى على غاية من الاتقان . ثم قال التقرير :

■ ويقال بالاجمال ان الغرض الذى ترمى اليه السياسة البريطانية يجب أن يكون اخلاء جانب مصر من مسؤولية مالية للسودان ، وتقزير العلاقات بين البلدين فى المستقبل على قاعدة تضمن ارتفاع السودان ارتفاعا مستقلا ، ومصالح مصر الحبوية فى ماء النيل . فلمصر حق لا ينازع فيه فى الحصول على ايراد كاف مضمون من الماء لرى أراضيها الزراعية الحالية ، وعلى نصيب عادل من كل زيادة فى ايراد الماء يتيسر للبراعة الهندسية أن تأتى بها . فاذا صرحت بريطانيا العظمى رسميا باعترافها بهذا الحق ، وأنها عادة النية للمعاظلة عليه فى كل حال من الأحوال ، سكنت بذلك روح المصريين ، وخفت عنهم القلق المستحوز عليهم من هذا القليل . ورأينا أن هذا التصريح يفي بالغرض المقصود إذا تم فى الوقت الحاضر .

عدلى باشا - نعم ولكن السبب فى ذلك لم يكن الرغبة فى تقرير حق سيادة لانجلترا على السودان ، وإنما كان ذلك لأسباب خاصة أهمها اتقاء سريان الامتيازات على تلك البلاد ، وما كان يخشى أن ينتج عنها من تعطيل وتنظيم السودان وترقية موارده وغل يد الحكومة عن أن تنطلق فيه بجميع صنوف الإصلاح ، فالسودان أرض مصرية ، ولا نزاع فى أن لمصر حق السيادة عليه ، وإنما وضعت اتفاقية سنة ١٨٩٩ لتقرير الاشتراك بين مصر وانجلترا فى ادارته ، على أنك لا تجهل أن نصيب مصر من تلك الشركة فى حكم العدم (هذا كان تقدير عدلى باشا عام ١٩٢١ ، أى قبل اخلاء السودان من القوات المصرية بثلاث سنين) ، فان الادارة أصبحت انجليزية محضة ، وكل ما لمصر الآن هو أن القرارات التى يصدرها حاكم السودان تبلغ الى رئيس مجلس الوزراء بمجرد تبليغ ، وليس لهذا أن ينقض أمراً أو يبره حكماً . والذى يعنينا الآن من أمر السودان ، هو أن نقرر من جديد حقوقنا فيه ، وأن يصبح لهذه الحقوق مظهر خارجى . وآية ذلك أن يكون لمصر يد فى ادارة السودان . اما الصورة الفعلية لتلك اليد فهمى كل البحث . وأرجو ألا يسبق الى ذهنك أننا نطالب بذلك لمجرد التمتع بلذة الحكم أو لقضاء شهوة السلطة ، وإنما يدفعنا الى ذلك النظر فى مصالحنا فى السودان والحرص على توفيرها ، وأول هذه المصالح .. النيل ، ولكن ليس هذا هو كل ما يعنينا فى السودان ، فهناك الجيش السودانى ووجوب تبعيته للجيش المصرى واخلاصه لولى أمر مصر ، وهناك هجرة المصريين الى السودان ووجوب أن يجدوا كل التسهيلات الممكنة وأن يتمتعوا بكل الحقوق ، وهناك تموين السودان لمصر ، ولست أبغى حصر المسائل التى تهتمنا فى السودان ، وإنما أردت أن أسوق لك مثالا على المصالح المختلفة التى يمكن أن تقوم لنا فيه .

المسترلندسى - أظن انى فهمت وجهة نظركم .

عدلى باشا - وماذا ترى فى مسألة النيل بصفة خاصة .

المسترلندسى — ان اللورد كيرزون مستعد لأن يعترف لمصر بصوت جدى
فى قسمة مياه النيل وهو يرى أن ينشأ لهذا الغرض لجنة من نوع المجان التى توجد فى
أمريكا ، وان كانت قسمة المياه هناك لا يبتغى بها تنظيم الزى وإنما تنظيم القوى الهيدروليكية .
عدلى باشا — يجب أن يسبق التفكير فى قسمة المياه تقرير مصر من الحق فى أن
تأخذ من النيل كل ما تحتاجه من المياه لزراعة أرضها التى تزرع حلاً أو القابلة
للاستصلاح والزراعة فى المستقبل .

المسترلندسى — يعنى أنكم تريدون مراقبة على مياه النيل ؟
عدلى باشا — إنما تريد أن يكون لنا وحدنا حق المراقبة عليها .
المسترلندسى — أظن أن الطلب فيه مبالغة ، فإن لكم أن تطلبوا ألا يعمل شئ
دونكم . أما أن يكون لكم حق الاعتراض على عمل لا يفيدكم وتكون فيه فائدة
للسودان ، فهذا ما لا يمكن أن يقر لكم به ، ويجب فى مثل هذه الأحوال التى يقوم فيها
الخلاف على صلاحية الأعمال أن تفصل فى الأمر لجنة مشتركة .
عدلى باشا — إن اللورد ملتر أشار إلى ذلك فى تقريره وإنما بطريق الاجمال ، ولم
يفصل كيف يكون تشكيل تلك اللجنة ، والذى يعنيننا قبل كل شئ أنه لا يجوز أن
يعمل شئ على النيل ضد رغبة الحكومة المصرية .

المسترلندسى — أتريدون أن تقدموا مذكرة أو مشروعاً عن مسألة السودان ؟
عدلى باشا — سأنظر فى ذلك . وأذكر أن سعد باشا فى المفاوضات السابقة لم يتعرض
لمسألة السودان ، لأنه أراد أن يكون الاتفاق قاصراً على مصر ، وأن تتولى مصر فى
نظام حكمها الجديد بحث مسألة السودان مع إنجلترا ، ولكن المندوبين لما سافروا لمصر
ليتلقوا رأى الأمة فى مشروع لجنة ملتر الذى لم يتعرض أيضاً لمسألة السودان تبينوا أن
الأمة شديدة الحرص والرغبة فى أن تحل مسألة السودان منذ الآن ، وهذا أصل التحفظ
الأخير الذى لم أقدمه وهو يرمى إلى ضمانه الاشراف على النيل وإلى جعل سيادة مصر

على السودان فعلى لا اسمية . أما تفصيل ذلك وترتيب أحكامه فهو محل البحث ويصح أن نتفاهم عليه .

وها نحن قلنا ما نريد أن نقول فى كل المسائل التى تعرضنا للبحث فيها ، ونحن فى انتظار مشروع اللورد كيرزون لنضع عليه ملاحظاتنا ، ونقدم بعد ذلك مشروعنا . وسنرى باى قدر يمكن الوصول إلى اتفاق .

المستر لندسى — إنى أخشى أن يكون مشروعنا دون الحد الأدنى لمطالب المصريين ، وانهم لا يكونون راضين .

عدلى باشا — إذا كنتم تحرصون على رضى المصريين فليس لكم الآن إلا أن تسلموا بالحد الأدنى لمطالبهم ، وعلى أى حال فاننا فى انتظار مشروعكم لنرى ماذا أتم فاعلون



وفى يوم الأربعاء ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ قابل عدلى باشا المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، فى ١٠ شارع دوننج ستريت ، وسأل الرئيس الانجليزى عن مراحل المفاوضات ثم مالبث البحث أن دار حول مسألة السودان :

المستر لويد جورج — ما ذا تقولون فى مواصلاتنا مع السودان ؟

عدلى باشا — ان هذه المواصلات حاصلة بطريق بور سودان .

المستر لويد جورج — ولكنها قد لا تكفى .

عدلى باشا — لست أرى دخلا للسودان فى أمر المواصلات فان ما يفهمه المصريون من المواصلات الأمبراطورية هى المواصلات مع المستعمرات الانجليزية فيما وراء البحار . أما السودان فهو مسألة أخرى ، وهى كبيرة الأهمية عند المصريين ، ولنا بشأنه مطالب لم نبدها بعد لأننا أردنا أن نتبين أولا ما إذا كان الاتفاق ممكنا بشأن مصر . وكنا قد اعترطنا أنه إذا تم الاتفاق بشأنها انتقلنا إلى بحث مسألة السودان ، فهى مسألة لم يأت دورها بعد .

المسترلويد جورج — لمصر شأن غير شأن السودان، فأننا فيما عدا تأمين مواصلاتنا بطريقها لا نريد التدخل في شؤونها، ونريد أن تربطنا وإياها مخالفة حقيقية. ولكننا لا يسعنا ترك السودان، أو أن ننزل عن مركزنا فيه على الصورة التي ننزل بها عن مركزنا في مصر.

عدلى باشا — ولكن ماهى علاقة السودان بمسألة المواصلات أو مسألة القوة العسكرية. فان في السودان جيشاً مصرياً وهو الذى يتولى حفظ الأمن فيه والدفاع عنه. المسترلويد جورج — قد تقوم فتن واضطرابات خطيرة في السودان نحتاج معها إلى إرسال جنود لقمعها، ونقل هذه الجنود يكون بطريق مصر.

عدلى باشا — إن هذه حالة نقل جنود في ظروف خاصة، ولا حاجة معها إلى قوة عسكرية دائمة. وهى حالة لا يمكن النظر فيها على حدة، أو بمناسبة البحث في حماية المواصلات والقوة العسكرية، وإنما هى مرتبطة بمسألة السودان في جملتها، ويمكن عند البحث في النقط المتفرعة عن مسألة السودان وضع اتفاق خاص يرتب فيه لهذه الحالة مايناسبها من الأحكام. وعلى أى حال فإنى لا أرى أن يكون مجرد احتمال الحاجة إلى نقل الجنود بطريق مصر لقمع فتن في السودان سبباً يستدعى حفظ قوة عسكرية في مصر. المسترلويد جورج — هذا حق. وخير أن نترك هذه المسألة الآن.

وقد أعد اللورد كيرزون مشروع معاهدة، رفضها عدلى باشا وزملاؤه من فورهم وقد ورد في الباب السابع منها — مادة ١٧ عن السودان :

« حيث أن رقى السودان في هدوء وسكينة ضرورة لأمن مصر ولحفظ مؤونتها من المياه، تتعهد مصر بأن تستمر في أن تقدم بدلا من ذلك لتلك الحكومة إعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين. وتكون كل القوات المصرية في السودان تحت أمر الحاكم العام »

« وعدا ذلك تتعهد بريطانيا العظمى بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل

وقد تقرر من أجل ذلك ألا تقام أعمال رى جديدة على النيل أو روافده في جنوب وادى حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء يمثل أحدهم مصر وآخر السودان وثالث أوغندا »

وعلق الوفد المسمى المصرى على هذا النص فى رده على المشروع بقوله :
« أما مسألة السودان التى لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من أن نوجه النظر إلى أن النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا . فإن هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذى لا نزاع فيه وحق السيطرة على ماء النيل » .

•••

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ منح ثروت باشا فى حمل الحكومة البريطانية على أن تصدر تصريحاً من جانب واحد تلغى فيه الحماية وتعترف باستقلال مصر . وكان هذا التصريح مقابل توليه الحكم بعد أن يصدر فعلاً . وقد احتفظ الانجليز فيه بأربع نقاط أحيلت إلى مفاوضات مقبلة كان رابعها « السودان » .. وحتى تبرم هذه الاتفاقات تظل الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما كانت عليه إذ ذاك .

•••

وحدث فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، أن أطلق بعض المهيجين المصريين الرصاص على حاكم السودان وسردار الجيش السر «لى ستاك » . وكانت الاصابات قاتلة ، فلم تمهل السردار ساعات مات على أثرها .

وابرق اللورد اللبى إلى وزارة الخارجية البريطانية يعرض عليها صيغة انذار لحكومة المغفور له سعد زغلول باشا ، وحتى يوم ٢٢ لم يصل رلندن ، مما أقد المندوب السامى صبره ، فقرر الا ينتظر أكثر مما فعل ، وبعد ظهر ذلك اليوم ، كان قد فرغ من تشيع جنازة القتيل ، ثم أنف هوكباً عسكرياً ضخماً ، سار به إلى ميدان لاظوغلى ، وفى الطريق ،

وكانت الساعة الرابعة والنصف ، أقبل من أخبر اللورد أن رد لندن وصل . وهو رد طويل يستدعى حل شفرته نصف ساعة ، فلم يجد اللورد النبي مناصاً من أن يتابع سيره ويسلم انذاره ، وليكن بعد هذا ما يكون .

وفي قاعة رئيس الوزارة المصرية ، تلا اللورد نص الانذار بالانجليزية ، وترك ترجمته الفرنسية ، ثم غادر دار الرئاسة إلى قصر الدوبارة .

وقد ألقت ديباجة الانذار مسؤولية الحادث على عاتق الحكومة السعدية ، ثم تضمن المطالب الآتية :

- ١ — الاعتذار الكامل عن الجريمة .
- ٢ — تحقيق صارم عاجل مع المسؤولين عن الجريمة مهما تكن مراكزهم ، وتوقيع عقوبة رادعة عليهم مهما يكن سنهم .
- ٣ — منع جميع المظاهرات الشعبية منعاً باتاً حاسماً .
- ٤ — دفع غرامة قدرها نصف مليون جنيه للحكومة الانجليزية .
- ٥ — إصدار الأمر خلال أربع وعشرين ساعة بسحب جميع الضباط والجنود المصريين من السودان .
- ٦ — زيادة ما يزرع من أرض الجزيرة إلى أى حد تراه حكومة السودان — وكان الحد الأدنى ٣٠٠.٠٠٠ فدان .
- ٧ — عدم المعارضة في أى اجراءات تقترحها الحكومة البريطانية لحماية مصالح الأجانب في مصر .

وعند ما عاد اللورد النبي من رحلته المسلحة ، وجد برقية حكومته لا تقره تماماً على مطالبه ، وتحاول أن تخفف كثيراً من وقعها ، ولا سيما في مسألة السودان . ولكن كان الانذار قد سلم ، ولم تكن هناك وسيلة لاجراء أى تعديل فيه . وقد أدت عجلة

التلورد إلى أن وزارة الخارجية البريطانية قررت تعيين وزير مفوض في دار المندوب السامى يكون أول مستشارى المندوب السامى (هو المستر نيفل هندرسون سفير إنجلترا في برلين إلى ما قبل الحرب الحاضرة) . وعد اللبى هذا التعيين دون أخذ رأيه عدم ثقة به ، وحاول أن يتفاداه بدون جدوى فقرر الاستقالة ، وقبلت استقالته وسافر عقب صدور الحكم في قضية اغتيال السردار مباشرة .

ويحسن أن نشير إلى تأثير هذا الانذار في الجاليات البريطانية والأجنبية ، فقد رد صده الماجور جارفيس في كتابه « الصحراء والدلتا » . قال : « إن الانذار كان قوياً ، ولكن قوته كانت دون ما ينبغي أن تكون ، وقد تضمن — من سوء الحظ — خطأ دبلوماسياً من الطراز الأول ، إذ نص على مطالب مائة من النيل للرى في السودان ، لم تكن تفيد أحدا غير شركة الجزيرة الزراعية .. وقد انتهزت الصحف الأجنبية فرصة هذا الخطأ ، وراحت تدق على النقطة الضعيفة ، ومالبت الصحف المصرية أن تبعها على الأثر . وهكذا تحول زئير الأسد البريطانى إلى نشيج خافت .. ومنذ ذلك الوقت أخذت مهابة بريطانيا في وادى النيل تضعحل وتتضاءل .

ومهما يكن وقع الشروط المائىة ، فقد سحب الجيش بخسائر حلت بأحدى الأورط السودانية ، وسحب الموظفون المصريون في السودان ، وفرضت رقابة مانعة على تنقل المصريين والسودانيين شمالا وجنوبا في نيلهم .



وفي صيف سنة ١٩٢٧ أثناء زيارة المغفور له الملك فؤاد لإنجلترا ، دارت محادثات هامة بين السر أوسستن تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا وبين دولة عبد الخالق ثروت باشا .

وقد أعدت الحكومة البريطانية مشروع معاهدة ، ورد فيه عن السودان والنيل :

مادة ١٣ — يعترف الطرفان المتعاقدان بأن أوفى ضمان لصيانة مصالحهما ولا سيما مصالح مصر في مجارى النيل العليا هو استمرار سيادتهما المشتركة في السودان .

وكلاهما متفقان على أن يتخذا كقاعدة لتحديد نصيب مصر في مياه النيل الأبيض والنيل الأزرق النتائج التى وردت فى تقرير لجنة النيل المؤرخ فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٦ وفى الاتفاق الذى عقد فى أول مايو سنة ١٩٢٦ بين ممثلى مصلحتى ارى فى مصر والسودان . ويمنح ممثلو مصلحة ارى المصرية التسهيلات اللازمة لمراقبة المشاهدات المتعلقة بأعمال قناطر سنار ، كما انه تكون لهم حرية الوصول إلى البيانات الخاصة بذلك للتحقق من أن توزيع المياه جار طبقا للقواعد التى وضعت فى التقرير المذكور . وتمنح حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية الحكومة المصرية كل مساعدة ممكنة لتمكينها من القيام ، لمصلحتها الخاصة وعلى نفقتها وبوجه يتفق مع مصالح السلطات المحلية ذات الشأن ، عمال الحفظ المنصوص عليها فى ذاك التقرير . وتتحمل الحكومة المصرية نفقات كل عمل تكميلى ، ودفع كل مبلغ نقدى تدعو الحاجة اليها باعتراف الطرفين تعويضا للمصالح المحلية من كل تلف أو تفكك ينجم عن الأعمال المشار اليها .

ويستمر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر - نظرا لاهتمامه بحفظ السلام فى ربوع السودان وعلى حدود مصر الجنوبية - فى دفع حصته الحالية فى نفقات الادارة فى السودان إلى أن يقرر الطرفان المتعاقدان أن الحالة تدعو إلى إعادة النظر فى هذا الترتيب وأعد ثروت باشا من جانبه مشروع معاهدة ، تناولت المادة ١١ منه موضوع السودان والنيل . ولم يخرج نص ثروت باشا فى مسألة النيل عما ورد فى النص البريطانى ، إلا أنه عاد بالصلوات المصرية السودانية إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٢٤ ، ولم يعترف بالمساعدات المالية التى كانت تدفعها مصر للسودان .

ثم أعد ثروت باشا مذكرة طويلة يناقش فيها المشروع البريطاني ، وذكر ما يلي
عن رأى الإنجليز فى موضوع النيل والسودان .. وهذه أول مرة ترد فيها آراء إنجلترا
عن السودان بطريقة رسمية بعد مشروع ملنر — :

« لقد حرصت فى المشروع الذى قدمته على تجنب القطع برأى فى مسألة السودان
العامة التى تختلف فيها الحكومتان ، وذلك اختصاراً للمناقشات بقدر الامكان . وقد
اجتزأت من تلك المسألة بالإشارة إلى بعض شؤون معينة تتطلب حلاً عاجلاً ، غير
أن المشروع البريطانى ، على العكس من ذلك ، أراد أن يعالج كل المسألة ، وأن يلقاها
وجهاً لوجه ، ليحلها على النحو الذى ترسمه خطة السياسة الإنجليزية فى هذا الموضوع
ومن ثم كان يتعذر على مسيرته فى هذا الطريق . ولهذا أؤثر إرجاء المسألة إلى
مفاوضات لاحقة .

أما المسائل المستعجلة التى يتطلب حسن الوفاق بين البلدين مباشرة حلها فوراً ،
فهى التى أوضحتها فى المادة الثانية من مشروعى ، أى : الحالة قبل سنة ١٩٢٤ وتوزيع
مياه النيل ومشاريع الري .

ثم ناقش ثروت باشا فى هدوئه واتزانه وتعمقه النص البريطانى ، طالباً إعادة الحال
إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤ ولا سيما « أن الخواطر هدأت وأن النفوس تستطيع
أن تواجه فى هدوء وسكينة حل تلك المسألة على خير وجه يعيد الثقة المتبادلة ويوثق
العلاقات الودية بين البلدين » .

أما مسألة النيل فكان أكثر تشدداً فيها ، إذ لاحظ على المشروع البريطانى « أنه
أفرغها فى صيغة قد يبرر ظاهرها قول الذين يزعمون — خطأ فى نظرى — أن السياسة
الإنجليزية ترمى إلى إلغاء رقابة وزارة الأشغال المصرية على مياه النيل » .

وقد استمر تبادل المذكرات بين ثروت باشا والسير أوستن تشمبرلن فترة طويلة حتى انتهى الأمر في ٤ و٥ مارس سنة ١٩٢٨ إلى عدم موافقة الجانب المصرى على المشروع البريطانى وتعديلاته ، وذلك بعد عرض الموضوع كله على مصطفى النحاس باشا الذى حل أثناء هذه المفاوضات فى زعامة الوفد مكان سعد زغلول باشا الذى توفى فى عام ١٩٢٧

...

وفى سنة ١٩٢٩ قصد دولة محمد محمود باشا إلى لندن لحضور حفلة اكسفورد لمنحه لقب الدكتوراه الفخرى فى القانون المدنى . وانتهز الفرصة وفتح مع السلطات البريطانية المسؤولة مسألة السودان وذلك على أثر إبرام اتفاقية النيل التى سنورها فيها بعد . قال محمد محمود باشا فى مذكرته عن هذه الحادثات :

« أما السودان فقد طلبت أن تحترم وتنفذ اتفاقات سنة ١٨٩٩ بشأنه مؤقتاً . وعلى ذلك يعود اليه قسم من الجيش المصرى كما كان الحال قبل سنة ١٩٢٤ ، ويجب أن تنقطع التدابير والاجراءات التى ترمى إلى التضييق على المصريين فىكون شأنهم فى حرياتهم ومصالحهم فى السودان شأن الرعايا البريطانيين . وقرنت هذه التسوية الوقتية بالاحتفاظ بحرية الحكومة فى المفاوضات فى مسأله فى الوقت الذى تراه ملائماً » .

وقد تمخضت هذه الحادثات عن مشروع معاهدة ورد فى مادته الأولى :

١ — « إن المسائل المعلقة بين الطرفين المتعاقدين ولا سيما ما كان منها ناشئاً عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وإنذار ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ قد حلت بموجب نصوص هذه المعاهدة »

وورد فى المادة الثانية عشرة :

١٢ — « تستمر السيادة المصرية الانجليزية على السودان طبقاً لشروط الاتفاقات الحالية أو طبقاً لأي تعديلات لتلك الشروط توضع فى المستقبل بالاتفاق بين الطرفين المتعاقدين .

« وتظل حقوق وسلطات الطرفين المتعاقدين بحسب الاتفاقات المذكورة يتولاها بالنيابة عنهما حاكم السودان العام المعين بموجب تلك الاتفاقات .

« ويسمح لأورطة مصرية أن تكون في السودان لحماية الحاكم العام ويضم ضابط مصري إلى الموظفين التابعين له . »

وقد رد محمد محمود باشا على هذا المشروع مطالباً بحذف المادة الأولى . واعترض على أى تضيق لحق مصر الذى تقرر فى سنة ١٨٩٩ ، مع الاحتفاظ بالمفاوضة المستقبلية بشأن السودان .

ثم أعد مشروع جديد ورد فى المادة ١٣ منه :

« مع الاحتفاظ بحرية إبرام اتفاقات جديدة فى المستقبل معدلة لاتفاقات سنة ١٨٩٩ يتفق الطرفان المتعاقدان على أن يكون مركز السودان هو المركز الذى ينشأ من الاتفاقات المذكورة . وبناء على ذلك يظل الحاكم العام مباشر ، بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين ، السلطات التى خولتها إياه الاتفاقات المشار إليها . وعند ما تصبح هذه المعاهدة نافذة ترابط أورطة مصرية فى السودان »

ثم ماثبت أن أعد مشروع ثالث حذف من مادة السودان فيه الفقرة الأخيرة الخاصة بمراقبة أورطة مصرية فى السودان .

وقد انتهت هذه المذكرات فى ٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ ثم سقطت حكومة محمد محمود باشا وأعقبتها حكومة مصطفى النحاس باشا لكى تتولى المفاوضة باسم الأغلبية مع الحكومة البريطانية .

...

وتولى رفعة مصطفى النحاس باشا المفاوضة فى الفترة من ٣١ مارس سنة ١٩٣٠ ،

إلى ٨ مايو سنة ١٩٣٠ ، وكانت الوزارة البريطانية إذ ذاك وزارة عمالية ، مثل الوزارة التي فاضها المغفور له سعد زغلول باشا ولم يصل معها إلى أية نتائج .

وبدأ النحاس باشا بتقديم تعديلاته على آخر مشروع بريطاني ، وورد فيه عن مادة السودان :

١٣ — إلى أن تحل مسألة السودان بمفاوضات مقبلة ومع الاحتفاظ بجميع الحقوق يباشر الطرفان التعاقدان إدارة السودان بالاشتراك بينهما اشتراكاً فعلياً .

وقد لاحظ المستر هندرسن وزير الخارجية البريطانية في جلسة ٣ أبريل سنة ١٩٣٠ : « بعض هذا التغيير مهم جداً في نحو خمس مسائل حيوية ، أخص بالذكر منها مسألة السودان التي ستكون على ما يظهر عقبة كأداء ، في طريقنا ، وسنجد صعوبة كبيرة في التغلب عليها . ولا بد لي أن أصرح لكم بأن الحكومة الانجليزية — حتى لو سلمنا نحن بمطالبكم في هذه اللجنة — يستحيل عليها استحالة مطلقة أن تصل إلى حمل البرلمان على الموافقة عليها ، لذلك ينبغي لي أن أنبهكم على مسؤوليتي الخاصة بصفة كوني وزيراً للخارجية ومن غير استشارة زملائي الذين لم يتمكنوا كما قلت من درس المقترحات الجديدة التي وضعتها إلى أن الصيغة الخاصة بالسودان ستثير صعوبات جمة .. أقول هذا عن نفسي إلى أن يتمكن زملائي من دراسة مقترحاتكم وإبداء رأيهم فيها »

النحاس باشا — ... وأما فيما يختص بالسودان الذي خصه المستر هندرسن بالذكر فانه سيرى أن الصيغة التي وضعناها بشأنه لا تختلف في روحها عن الصيغة التي وضعها جنابه في مقترحاته ، لأننا لم نطلب في الوقت الحاضر إلا الاشتراك الفعلي في الإدارة ، وهو ما تعترف به المقترحات الانجليزية نفسها . فقد أشير فيها إلى أن القواعد التي تتبع في السودان مؤقتاً هي القواعد المستمدة من اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ ، وهما صريحتان في أن الإدارة التي كانت تنفرد بها مصر في السودان قد أعطى شطر منها إلى إنجلترا بمقتضى هاتين الاتفاقيتين ومن أجل ذلك آمل كل الأمل أنكم عند ما تدرسون هذه المسألة في

ضوء هذه الحقائق ترون أننا في هذا المطلب المهم الحيوى بالنسبة لمصر كنا في غاية الاعتدال .
وفي حفلة عشاء بدار المفوضية المصرية في لندن دار الحديث التالى بين النحاس باشا
والمستر هندرسون :

مستر هندرسن — لاحظت أن خمس مسائل تناولها تغيير كبير جداً منها مسألة السودان
النحاس باشا — وماذا فى الصيغتين الخاصتين بالسودان أكثر من الاشتراك فى
الادارة وترك الباب مفتوحاً لاتفاقات مقبلة ، بشأن السودان ؟
مستر هندرسن — الفرق كبير جداً لأن مادتنا تشير إلى اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ،
والحالة التى نجمت عنهما ، وأن حاكم السودان يظل يمثل الطرفين — مصر وإنجلترا —
فى إدارة السودان . وأنتم تطلبون أن يشترك المتعاقدان — مصر وإنجلترا — فى إدارة
السودان اشتراكاً فعلياً ، فإذا تقصدون ؟

النحاس باشا — نقصد بذلك أن تكون الادارة مؤقتاً فى أيدي المصريين والإنجليز
معاً ، وهو ما لم نكن نعتزف به من قبل . فهذا فى الواقع تساهل منا ، ولا نفهم لماذا
تعارضون فيه ؟ !

مستر هندرسن — إن ما وقع فى السودان فى السنوات الأخيرة لا يزال ماثلاً فى
الأذهان ، وكذلك التصريحات التى صدرت عقب ذلك . كل ذلك يقيدنا تمام التقييد
لا سيما تصريحات رئيس الوزراء المستر مكدونالد عند ما كان وزيراً للخارجية ورئيساً
للوزارة فى سنة ١٩٢٤ فقد وضع أساس سياستنا فى السودان . وقد سئلت فى البرلمان
عما إذا كنت مرتبطاً بها فاعلنت ارتباطى بها وقبولى لها .

النحاس باشا — لقد صدرت تلك التصريحات فى وقت لم تكن فيه مفاوضات .
فالروح التى أوحى بها غير الروح التى تحرك المتفاوضين فى وضع أساس الاتفاق .
كما أنه لا يجوز مطلقاً أن تحرم مصر من حقوقها الثابتة الحيوية بسبب حوادث فردية
ارتكبت وأثبت القضاء براءة مصر وزعمائها منها .

مستر هندرسن — وماذا عساي أن أقول للبرلمان ، وهذه التصريحات لا يزال يتجاوب صداها في أئمانه .

النحاس باشا — نحن الآن بصدد تسوية المسائل كلها، فلا يجوز أن يقوم أمامنا عائق من التصريحات التي صدرت في ظروف وتحت مؤثرات خاصة . وإذا كنتم متمسكون بتصريحاتكم الأخيرة ، فهل لمصر أن تتمسك بتصريحات ساسة الانجليز وكبرائهم فيما يختص بالجللاء ، إذ قد صدر لمصر منها ما يزيد على الستين عهداً . وهذه جيوشكم لا تزال في بلادنا ، فهل لنا أن تتمسك بهذه التصريحات كما تتمسكون بتصريحاتكم ؟
مستر هندرسن — أنا في الواقع إنما أشير إلى تصريحاتي في البرلمان . فقد أعلنت

أكثر من مرة أن مسألة السودان ستظل خاضعة لاتفاقيتي سنة ١٨٩٩ . ثم إنى مرتبط بالمادة الواردة عن ذلك في مقترحاتي وكيف أفسر تعديلها على الوجه الذي ذهبت إليه ؟
النحاس باشا — إن كل ما نريده هو عدم الإشارة مطلقاً إلى اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ لأنهما ممقوتتان كل المقت في مصر . ومع ذلك فهاتان الاتفاقيتان تنصان على إعطاء إنجلترا نصيباً في إدارة السودان ، ومادتنا تشير إلى وجوب اشتراك الطرفين في إدارة السودان . فأى فارق هنالك في الأمرين ! إن مصر لم تعترف قط باتفاقيتي سنة ١٨٩٩ ، ولم تقبل في يوم من الأيام النتائج التي ترتبت عليهما . وكل ما نرجوه الآن أن يشترك التعاقدان في الادارة اشتراكاً فعلياً إلى أن توضع اتفاقات جديدة . فأى غضاضة في ذلك ، وأى ابتعاد فيه عن روح المقترحات فيما يختص بمسألة السودان ؟

مستر هندرسن — وماذا تقصد تماماً بعبارة الاشتراك الفعلي ؟

النحاس باشا — نقصد بذلك رفع القيود الموضوعة على حرية المصريين بالنسبة للسودان . أى حرية الهجرة اليه ، وحرية الإقامة فيه ، وحرية التملك كذلك ، ثم جعل الادارة السودانية في أيدي المصريين والانجليز على السواء .

مستر هندرسن — ومن الذي يعين المصريين في السودان ؟

النحاس باشا — الحكومة المصرية .

مستر هندرسن — هذا مستحيل . لأن حاكم السودان هو المسؤول وحده بحكم اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ عن النظام الادارى والعسكرى فى السودان . وهاتان الاتفاقيتان نافذتان ما لم تعدلا باتفاقات جديدة . والمادة التى وردت فى مقترحاتنا تترك الباب مفتوحاً لذلك .

النحاس باشا — إن طريقة الاشتراك الفعلى فى الادارة يمكن أن تنظم وتحدد فيما بعد . وإنما نريد التسليم بمبدئها ، لأن هذا لا يبتعد عن روح المقترحات ولا عن حكم اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ نفسها .

مستر هندرسن — أؤكد لدولتكم أنه لولا الحوادث التى وقعت حديثاً فى السودان والتصريحات التى صدرت بشأنه لكان موقفنا اليوم غير ما ترى . ولكن المسألة ليست مسألة ما نحب أن يكون ، وإنما هى مسألة ما يمكن حمل البرلمان الانجليزى على قبوله . وإذا نحن قدمنا إلى برلماننا معاهدة فيها نص كالذى تقترحون فإن البرلمان يرفضها ارفضاً باتاً ، وتصبح المعاهدة لا تساوى الورقة المكتوبة عليها .

النحاس باشا — لا أستطيع أن أتصور أننا نعجز عن إيجاد صيغة مرضية تقبلها لأمتان . فليفكر كل منا ، ولنتعاون معاً . ولعلك تذكر يا مستر هندرسن أنى فى بلادى محل الثقة العامة فى الدفاع عن حقوقها كاملة فانظر كيف أصبحت طلباتنا معتدلة جداً ، ولا شك أنك بذلك تدرك صعوبة مركزنا .

مستر هندرسن — أعرف ذلك تماماً . كما أرجو أن تعرفوا أنتم أيضاً صعوبة مركزى لقد خطر ببالى هذه اللحظة أن أضيف عبارة على المادة الخاصة بالسودان الواردة فى مقترحاتى فنقول : إنه بعد كذا من السنين يعاد النظر فيها لعمل ترتيب جديد ولكن لا بد لى من استشارة زملائى أولاً .

النحاس باشا — يجب علينا أن نفكر ونجتهد فى إيجاد صيغة مرضية من الجانبين .

ونحن نعرف أنه ليس من المصلحة أن نقترح اقتراحات مصيرها الرفض المحتم في برلمانكم .
ولكن المسألة على أقصى جانب من الأهمية بالنسبة لنا . ولى كبير الثقة والأمل فى الوصول
إلى حل مقبول .

مستر هندرسن — سوف نعمل كل ما فى وسعنا ، لأننا لا بد أن نصل الى الاتفاق
المنشود ولنترك الآن هذه المسألة .

...

وفى أثناء دعوة الى العشاء بفندق هايد بارك ، عاد رئيس الوفد المصرى ، ووزير خارجية
انجلترا إلى بحث أعقد نقط المفاوضات ، وهى السودان ، وذلك لأنها كانت المرة الأولى
التي فتح فيها البحث على نطاق واسع لتصفية هذا الموضوع .
تولى الترجمة مكرم عبيد باشا ، وكرر المستر هندرسن الإشارة إلى صعوبة هذه
المسألة ، وطلب أن يوافق الفريق المصرى على اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ فأكد له النحاس
باشا عدم الحاجة إلى ذلك اكفاء بقبول الادارة المشتركة فى السودان مؤقتا ، وهى
جوهر الاتفاق المذكور . فقال المستر هندرسن :

— ماذا تعنون بالادارة المشتركة ؟ فقال النحاس باشا :

— نعى بها أن يكون لنا وكيل مصرى لحاكم السودان العام وأن تكون
الوظائف الأخرى موزعة بين المصريين والانجليز على السواء .
فسأل المستر هندرسن :

— ولكن سترتب على ذلك مضاعفة عدد الموظفين لأداء العمل الواحد .
وذلك يستدعى زيادة كبيرة فى المصروفات لا قبل لحكومة السودان بها . فقال
النحاس باشا :

— إنى آخذ على نفسى من باب التسهيل أن أدافع ، بعد الاتفاق مع زملائى ،
عن إبقاء مبلغ الاعانة السنوية التى تدفع للسودان وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه والتى يفكر

البرلمان دائماً في حذفها ، على أن يصرف هذا المبلغ على الموظفين المصريين والجيش المصري الذي يعود إلى السودان . فقال المستر هندرسن :

— وهل لديكم بيان بعدد هؤلاء الموظفين ؟ فقال النحاس باشا :

— كلا ، ولكن في الاستطاعة إعداد هذا البيان في أقرب فرصة .
وتواعد المتفاوضان على إعداده :

وفي صباح ٩ أبريل سنة ١٩٣٠ قابل وفد من وزارة الخارجية البريطانية برئاسة وكلائها النحاس باشا ، وقالوا له إن وزير الخارجية سيصرح في البرلمان رداً على أحد الأسئلة بأن الحكومة البريطانية ستتمسك في المفاوضات بنص اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ .
وعلم النحاس باشا منهم أنه لا سبيل إلى تعديل هذه الاجابة ، لأن مجلس الوزراء البريطاني هو الذي أقر صيغتها . فسألهم النحاس باشا :

ولماذا عرضتموه على إذن ما دام لا يقبل التغيير ؟ . قالوا :

— إن المستر هندرسن قصد بذلك ألا تفاجأ !!

وقد جرت عدة محاولات لتغيير صيغة مادة السودان في المعاهدة ، وبعد جلسات كثيرة انتهى رأى المستر هندرسن إلى أن الانجائز لا يستطيعون قبول ما جاء بهته المذكورة بخصوص البدء باعادة الحالة إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤ ، كما لا يستطيعون فيما يختص بعودة الجيش أن يعرضوا شيئاً أكثر مما ورد في المقترحات .

أما عن مسألة الهجرة والملكية والتجارة ، فقال المستر هندرسن : إنه إذا لم يمانع حاكم السودان فإنهم يقبلون أن ينص في المذكرة الملاحقة بالمعاهدة على أنه :

« لا يكون هناك أى تفريق بين الرعايا البريطانيين والأهالى المصريين في السودان في مسألة التجارة والهجرة أو حيازة الملك »

وقد أبلغ المستر هندرسن النحاس باشا بعد ذلك أنه أرسل تلغرافاً إلى حاكم السودان لأخذ رأيه في ذلك فجاء الرد بالقبول .

ولما بدا أن المفاوضات توشك أن تنقطع بسبب مادة السودان ، اقترح الوفد
المصرى نصاً جديداً هو :

« إذا نشأت أية صعوبة بين الطرفين المتعاقدين بالنسبة لتطبيق وتنفيذ اتفاقيتي
سنة ١٨٩٩ يوافق الطرفان على الدخول في محادثات في غضون سنة من تاريخ التصديق
على المعاهدة بقصد الاتفاق على هذا التطبيق ، وفي نفس الوقت لا يكون هناك أى
قيد على رعايا أى فريق من الفريقين المتعاقدين في الملكية أو المتاجرة أو الهجرة »
وقد رفض المفاوضون البريطانيون هذا النص .

وفي ١٦ أبريل عقدت جلسة خاصة بموضوع السودان ظهر فيها بوضوح اتساع
مسافة الخلف بين الفريقين وكان مما قال المستر هندرسن :

« أحب أن أذكركم بأن ثروت باشا حينما وجد أنه لا يستطيع إيجاد حل لمسألة
السودان ، بينما هو يستطيع حل المسألة الكبرى الخاصة بمصر ، قرر بالاتفاق مع المستر
أوستن تشمبرلن ألا يشير إلى السودان في مشروع المعاهدة ، وأراد بذلك إثبات
حسن نية الحكومة المصرية ، وأن يترك للزمن إظهار روح الصداقة من جانب مصر
فتعمل التجارب الطيبة عملها في اقناع الحكومة البريطانية بأنه لا خطر على مصالح
البلدين المشتركة في السودان إذا أُجيب المطالب المصرية الخاصة بها . وقد أظهر بذلك
ثروت باشا حكمة سياسية »

ثم أردف :

« إنكم إذا كنتم ترون أنه يصح أن تقطع المفاوضات من أجل هذه المسألة ،
فإنى أقبل هذا الموقف أسفا »

ثم أبلغ الوفد المصرى أن إنجلترا ترفض إعادة أورطة مصرية إلى السودان .

وكتب النحاس باشا إلى زملائه الوزراء في مصر ، رسالة لخص فيها موضوع السودان واخلاف عليه .

ثم استمرت المفاوضات في تناقل . وفي ٥ مايو سنة ١٩٣٠ قدم الوفد المصري النص التالي :

« من غير مساس بحقوق مصر ومصالحها في السودان اتفق الطرفان المتعاقدان على تأجيل مسألة السودان لمفاوضات مقبلة تجرى بينهما في بحر سنة من التصديق على هذه المعاهدة » .

وقدم نصا احتياطيا كالمسابق ، إلا أنه لم يحدد مدة السنة للمفاوضات المقبلة « وفي انتظار ذلك تعاد من الآن الحانة الفعلية التي كان عليها السودان قبل سنة ١٩٢٤ » .

ثم دارت المفاوضات . وأخيرا وفق الطرفان إلى نص أرضى الجميع وهو :
« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ ، قد اتفق الطرفان المتعاقدان ، على أنه بغير إخلال بحقوق مصر ومصالحها المادية ، يكون مركز السودان هو المركز الناشئ من هاتين الاتفاقيتين ، وكأحدى نتائج اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ ، يواصل الحاكم العام بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات الخولة له بمقتضى الاتفاقيتين المشار إليهما »
وتبادل الفريقان التهانى .

ولكن مجلس الوزراء البريطاني رفض هذا النص عند ما عرض عليه ، وظهر أن الاعتراض منصب على الهجرة غير المقيدة إلى السودان فقد نص آخر تعديل بريطاني على ما يأتى :
« يجب ألا يكون هناك تفريق بين الرعايا البريطانيين والأهالى المصريين فيما يتعلق بمسائل الهجرة والملكية والتجارة في السودان . وعلى ذلك يكون الرعايا البريطانيون والأهالى المصريون أحراراً في حيازة الملك والاشتغال بالتجارة والصناعة في السودان ، مع مراعاة القوانين والمواثيق المحلية التي لا تتعارض مع التشريع الحديث في مثل هذه المسائل .

« ويجب ألا تستعمل الرقابة التي تفرضها حكومة السودان لصالح السودان على دخوله والهجرة اليه ، استعمالا غير معقول لحرمان الرعايا البريطانيين أو الأهالي المصريين من حق دخول السودان أو الهجرة اليه » .

واعترض الفريق المصرى :

وأصر الفريق الانجليزى :

ثم وضع مشروع كامل للمعاهدة تركت فيه مادة السودان على يابض .
وفي ٨ مايو سنة ١٩٣٠ ، قطعت المفاوضات لهذا السبب ، وتبادل الجميع الأسف ، بعد أن تبادلوا التهاني .

وفي البيان الذى القاه النحاس باشا فى البرلمان المصرى بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٠ ذكر :
« ولكننا — مع الأسف — لم نصل إلى اتفاق على مسألة السودان يصون حقوق البلاد المقدسة ومصالحها الحيوية »

« ولقد كان قطع المفاوضات وديا للغاية ، بحيث اتفق الطرفان على عقيدة ثابتة ، وهى أن المستقبل القريب كفى لتحقيق مآلاتهما من تفاهم على هذه المسألة الحيوية .. »

...

وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٢ التقى دولة اسماعيل صدق باشا رئيس الوزارة المصرية إذ ذاك بالسرجون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، وتحدثا فى عقد المعاهدة مع مصر ، فقال الوزير البريطانى ان الأساس الذى وضع فى عامى ٢٩ — ١٩٣٠ هو الذى يجب أن تدور عليه كل مفاوضات مقبلة . وذكر السرجون سيمون « أما بخصوص السودان ، فيجب فى الاتفاق أن يدور حول مبدأ الاحتفاظ بالادارة الحالية القائمة فى السودان — فاذا ما سلم بهذا المبدأ فيمكن البحث عن الوسائل التى يستطيع بها المحافظة على مصالح مصر المعنوية والمادية فى السودان » .

...

وفي أواخر سنة ١٩٣٥ وأوائل ١٩٣٦ م، مفاوضات مصرية بريطانية جديدة، واتفق ابتداء على عدم التقييد بمشروع ١٩٣٠ ، أو أى مشروع سابق حتى تكون المفاوضات حرة وفي ١٣ فبراير سنة ١٩٣٦ صدر مرسوم فى عيد وزارة على ماهر باشا بتأليف وفد المفاوضات الرسمى برئاسة مصطفى النحاس باشا ، ومثلت فيه جميع الأحزاب المصرية . وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ انتهت المفاوضات بعقد معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى .

وورد فى المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة .

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقى ١٩ يناير ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ، ويواصل الحاكم العام ، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين ، مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين . والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لادارتها فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ — و بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ — تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ - لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين في شئون التجارة والهجرة أو في الملكية .

٦ - اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة في ملاحق هذه المذمة فيما يتعلق بالطريقة التي تتبع بها الاتفاقات الدولية سارية في السودان .

ثم أورد الملحق قواعد سريين للاتفاقات الدولية في السودان وورد في مختصر ملاحق بالمعاهدة فقرة ١٤ :

« من التفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الأولى من المادة الحادية عشرة أن يقدم الحاكم العام إلى حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية تقريراً سنوياً عن إدارة السودان . وأن يبلغ التشريع السوداني إلى رئيس مجلس الوزراء المصري مباشرة »

وورد في الفقرة ١٥ :

« من التفق عليه بالإشارة إلى الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة أنه يجب أن يكون تعيين الرعايا المصريين في وظائف السودان الرسمية خاضعة بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الحالية ووقت خلوها ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها ، فإن أحكام تلك الفقرة تسرى فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة .

وتكون ترقية الموظفين في حكومة السودان إلى أية درجة كانت بدون مراعاة للجنسية ، وذلك بالاختبار تبعاً للجدارة الشخصية .

ومن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً في بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخرى ، إذا لم يتيسر وجود ذوى المؤهلات من الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين أو من السودانيين . »

« من المتفق عليه فيما يتعلق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشرة أنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في إرسال جنود إلى السودان ، فإن الحاكم العام سيبادر بالنظر في أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان والأماكن التي يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم . وسترسل الحكومة المصرية فوراً بمجرد انفاذ المعاهدة ضابطاً مصرياً عالياً يستطيع الحاكم العام استشارته في هذه الأمور »

وورد في رسالة أُلحقت بالمعاهدة من المندوب السامي (السفير الآن) :

في خلال مناقشاتنا في المسائل التفصيلية المتصلة بالفقرة الثانية من المادة (١١) اقترح ندب خبير اقتصادي مصري للخدمة في الخرطوم . وأبدى الحاكم العام رغبته في تعيين ضابط مصري سكرتيراً حريياً له . وقد علم بهذا الاقتراح والرغبة المشار إليها ، واعتبرا مقبولين من جهة المبدأ . كما أنه قد اعتبر من المرغوب فيه ، ومن المقبول أن يدعى مفتش عام اى مصرى بالسودان إلى الاشتراك في مجلس الحاكم العام ، كلما نظر المجلس في مسائل متصلة بأعمال مصلحته »

وذكر رفعة النحاس باشا ، وهو يقدم للمعاهدة إلى البرلمان المصرى عن مسألة السودان تفسيرات هامة منها :

« يرقى الموظفون المصريون إلى أعلى الدرجات ، ومنها وظائف السكرتيرين الذين لهم حق الجلوس في مجلس الحاكم العام وهم بمثابة الوزراء عندنا ، وبذلك أصبح نصيب المصريين في وظائف حكومة السودان على قدم المساواة التامة مع الانجليز .^(١) »

وورد في تقرير لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب :

« أصبح لمصر بمقتضى المعاهدة نصيب عملى في الاشتراك في إدارة السودان ، وحق في إعادة جيش مصرى اليه ، وتساو في الوظائف بين المصريين والبريطانيين ، وحق في

(١) في خلال احد عشر عاما من عقد المعاهدة لم يصل أحد من المصريين إلى منصب السكرتارية لسبب بسيط وهو أنه لم يعين أحد من المصريين في الوظائف السودانية .

الهجرة والتملك في السودان^(١) ، كما أصبح لها أن توثق العلاقات الاقتصادية بين
البلدين بلا قيد ولا شرط .



هذه هي المراحل المختلفة التي تقلبت فيها مسألة السودان ، أو وحدة حوض النيل ،
بين المفاوضين المصريين والمفاوضين البريطانيين .

ويلاحظ من تتبع هذه الآراء الرسمية ، أن الجانب البريطاني رسم لنفسه خطة ،
من أيام ملنر ، أى منذ خمسة وعشرين عاماً ، لم يتجاوزها إلا قليلاً ، وهذا القليل
لا فائدة منه بسبب إهمال مصر ، أو إهمال بريطانيا .

وسيفتح موضوع السودان في القريب ، وستبسط فيه نظرية مصر مرة أخرى .
والنظرية المصرية أصول قديمة ، وأصول حديثة . وبعض هذه الأصول هو ما سنعرض
له بالتفصيل في هذا الكتاب ، وعلى الأخص القسم الانساني منها .

وإذا أفلحت بهذا الكتاب في أن أقدم « مجاهل » النيل ، لأبناء النيل ، وأن
أحبب اليهم التصعيد في أعاليه ، والرحلة في أدانيه وأقاصيه ، فاني أكون قد وفقت إلى
شئ عظيم .. وأتأجيعاً نكون قد حللنا أعظم مشاكلنا على النيل ، حللنا العقد النفسية
التي حالت دون أن نفهم ماذا يعنيه النص الواضح القاطع في معاهدة ١٩٣٦ ، عن
إباحة هجرة المصريين ، وإباحة التجارة والتملك ، بغير قيد أو شرط .

محمد صبيح

دار الثقافة العامة

(٢٣ شعبان سنة ١٣٦٤
في ١ أغسطس سنة ١٩٤٥)

(١) لم تستند مصر من هذه الميزة ، لأن المصريين مازالوا يعتقدون أن الهجرة والتملك محظوران .
ولم يفد في تبديد هذا الوهم أن المعاهدة نصرت ونوقشت وأقرت رسمياً . ونرجو أن نلفت النظر إلى
أن من حق كل مصري أن يهاجر وأن يملك في السودان اذا شاء .. فتي يشاء !!

« شىء » من الخوف والجوع

« ولبنونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من
« الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ... »

- ١ -

عتاب بين عاصمتين

تجمع الشعب فى حشد عظيم عند ضفة النهر ، فقد ترامت إليه الأنباء ، بأن القاهرة
تحركت ، وأدركتها الرحمة بهؤلاء الذين أنهكهم الخوف ، وطارد الذعر أمنهم ونومهم
فلا يقر لهم قرار ، ولا تنأ لهم ساعة من ليل أو نهار . .

وتراءت فى الأفق البعيد أدخنة البواخر ، وتسامعت الأذان المرهفة دوى المراحل
والمراوح ، فضج ضجيجهم وشاعت بين هذه الجموع الواجعة ابتسامات مشرقة أضأت
لها وجوه مغبرة . وهناك عند « المقرن » حيث يلتقى النيلان الأزرق والأبيض ، رست
باخرة واحدة ، أدى لها الجند التحيات المباركات ، ثم هبطت منها « النجدة » المنتظرة ،
وما أن رأى الناس هذه النجدة حتى تهامسوا فى دهشة بالغة : ثلاثة فقط تريد القاهرة أن
تخيف بهم المهدي ، وتقضى على ثورته !! وتفرقت الجموع فى صمت ، وهى تطأطئ
الرؤوس ، وتستنشق أنفاساً قصاراً خالطها أتربة الخرطوم .

وركب الثلاثة إلى سراى « الحكمدارية » ، وكانوا : غردون باشا ، والسكرولونيل
ستيوارت ، والضابط ابراهيم بك فوزى ، وعاد الناس فجمعوا عند السراى ، حيث
تلى عليهم فرمان التولية ، ثم أملى غردون خطبته التى ضمنها برنامج .. قال :

« يا أهالى السودان عموماً : إن الجنب العالى الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً ، أحراراً وعبيداً ، أناثاً وذكوراً ، وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وأميرة الهند . وإنكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم . وقد ساءنى ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم ، وتعطلت تجارتكم ، وسفكت دماؤكم ، ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام ، وزيارة قبرالنبي عليه السلام . وقد أساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديو المعظم ، فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ، ومفوضاً فوق العادة . وقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تاماً ، وفوض إلى الحكم المطلق . وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتى ، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته على شرط أن لا يمد يده لغيره .

« هذا وقد ألغيت جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب اغاية سنة ١٨٨٣ ، وقد تجاوزت أيضاً عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ ، وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات ، وأمرت باطلاق سراح جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياهم ، وعزمت منذ الآن على أن لا يكون أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين ، حيث أننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه .

« وقد عينت عوض الكريم أباسن مديراً للخرطوم ، وأحسننت عليه برتبة الباشوية . ولى الأمل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب وثيقة العرى . وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون ، واتلافها ، وسحب الجنود منها لتلتفتوا إلى عمران بلادكم ، وحرث أراضيكم وإنماء تجارتكم ، ومنى عليكم السلام »

ولم يجب أهل الخرطوم على هذه الخطبة بكلام ، لأن دموعهم تولت الجواب ،

قد أخذت تنهر ، لأنهم أيقنوا أن هلاكهم المحقق ، في هذه الخطوة التي سمعوا الحاكم الجديد يرددها على مسامعهم .

وإذن فقد ضاع الأمل في أن تنجد القاهرة أختها الخرطوم وهي في محنة الخوف واليأس . . لا بل لقد تأيد ما قيل من أن استقالة شريف باشا رئيس النظار كانت من أجل إصراره على رفض إخلاء السودان ، قائلا كلمته المشهورة : « إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا » . فلما تولى نوبار باشا الحكم مكانه ، كان برنامجهم هو أن يقبل ما رفضه سلفه العظيم . .

...

وآوت « الخرطوم » إلى ظل ظليل ، وأخذت تستعيد في ذاكرتها رحلتها في الحياة ، وما ارتبطت به مع أختها القاهرة من روابط القربى ، وآصرة الدم المشترك .. أليس النيل أبوها معا ، أنشأهما انشاء ، وحننا عليهما أطفالا ، ثم سائرهما بالبر والوفاء حتى تما عودهما ، وأصبحتا بين المدائن عروسين ترمقهما العيون ، وتهفو إليهما النفوس . وأدركت الخرطوم سنة من النوم ، ورأت فيما يرى الوسنان شيخا جليل القدر ، فارع الطول والعرض ، يملأ النظر ، ويقيد الخاطر .. قال الشيخ : رفقا بنفسك يا بني ، فاني أراك اليوم مكدودة مهمومة ، وعهدى بك طروبا لعوبا ؟

وتطامت « الخرطوم » إلى محدثها ، فاذا هو صاحبها القديم « التاريخ » الذي عرفته منذ عرفت الحياة ، ولم تتردد ، فقد أخذت تقضى إليه ، تشكو بها وحزنها . وألقى التاريخ عصاه ، وجلس في تؤدة ، ثم سحب من تحت أثوابه أوراقا أخذ يقلبها ويسمع من الخرطوم ثم يقول لها .. ونحن نلخص هنا ما علمناه من حوار المتحادثين فلعلمهمنا ، ولعل لنا فيه ذكرى وعبرة :

قالت الخرطوم على مسمع من صاحبها الشيخ الخليل ، وهى تناجى على البعد
أختها الكبيرة القاهرة :

— لا أزال أذكر ذلك اليوم الذى وفدت فيه جنود محمد على الكبير إلى هذه
الأرض ، تحمل راية الحضارة والعمران ، وتضم أفراد الأسرة الواحدة إلى بيت
واحد . وقد اختار قائد الحملة الأمير اسماعيل هذه الأرض بالذات — ولم تكن تضم
غير أكواخ من الغاب — لكى تكون مقر معسكره ، والنقطة التى يشرف منها
على النيل كله . وكان قدوم الأمير فى صيف سنة ١٨٢١ ، بعد أن قطع مع جنده نحو
١٢٠٠ كيلو مترا على شاطئ النيل منذ تحرك من أسوان .

وبعد شهر قليلة — فى اكتوبر من ذلك العام — وفد إلى الخرطوم الوليدة ، البطل
المصرى العظيم الأمير ابراهيم فاتح الحجاز ، وجاء معه الخير الذى كان الناس يرجونه ..
جاء بالطعام وبالثياب وبالنال الوفير . وأخذ يدرس مع أخيه خطة فتح السودان ،
واتمام سيطرة حكومة النيل المنظمة على بقية أجزاء النيل .

وحاول ابراهيم باشا أن يصعد فى النيل مخترقا جزيرة سنار ، إلى بلاد الدنكا
على النيل الأبيض ثم يتابع السير إلى منابع النيل الاستوائية . وتحدث الفاتح المصرى مع
المسيوكايو أحد العلماء المراقبين ثلثة عندما قابله فى اكتوبر سنة ١٩٢١ قال ^(١) :
« اننا سنكشف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب
الخفيفة التى تستطيع أن تخفى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات ، وستكون
وجهة هذه العارة النيلية أن تنحدر فى النهر وروافده حتى تصل إلى منابعه »

وتحدث الأمير اسماعيل إلى المسيوكايو أيضا ، وكان عائدا إلى فرنسا ، قال له :
« اذا ذهبت إلى فرنسا فانشر ما وصلت إليه من المعلومات ، ثم عد إلى مصر ، فانك

(١) عصر محمد على لعبد الرحمن بك الرافعى

ستجد أبى لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التى وصلنا إليها ، بل سنبذل جهودا أخرى ،
وسأصحبك بنفسى إلى منابع النيل الأبيض »

وقد مرض ابراهيم باشا بالدوسنطاريا فعاد ، وصادف اسماعيل حفظ سى ، فوقع فى
كمين احترق فيه هو وأركان حربيه ، ومع هذا استمرت حركة الفتح ، ونظم
السودان اداريا ، وولى عليه محمد على خيرة رجاله لادارته ونشر العمران فيه ، كما
زاره هو بنفسه فى اكتوبر عام ١٩٣٨ وأقام فى رحلته نحو خمسة أشهر ، وقد أعجبه
مارأى فى الخرطوم من مظاهر العمران ، وامتداد الدور المبنية على أحدث طراز ، ولم
يكن السودان حتى ذلك الوقت يعرف مادة للبناء غير القش وأعواد النبات . وأنشأ
حكام السودان المصانع ، وترسانات السفن النيلية ، وامتدت الحداثق الجميلة والمزارع
الثمرة فى كل مكان .

ولم تكن الخرطوم هى المدينة الوحيدة التى أنشئت فى ذلك العهد ، بل أنشئت
كسلا وفامكه فى اقليم سنار . وعنى الحكام المصريون بتسيير بعوث الكشف على
بحر الجبل وكان آخرها وأهمها بعثات سليم بك قبطان ، وسليمان كاشف التى وصلت
إلى جزيرة جونكر على الخط الخامس من خطوط العرض ، وهذا المكان يواجه
مدينة غونودوكرو . وقد ارتادت بعثات محمد على هذه الأماكن مراراً حتى أصبحت
مطروقة معروفة .

•••

وتابع المتحدثان أحاديثهما عن صلات القاهرة بالخرطوم ، ووصلا إلى عهد سعيد
باشا .. هذا الحاكم الطيب الصريح . وأخرج التاريخ من جعبته أوراقا هى صور فريدة
لرسائل كانت تصدر من ديوانه ، وكانت قراءتها تحرك النفس بالقبطة والابتسام .

كتب سعيد باشا إلى حاكم دار السودان فى ١٣ ربيع أول سنة ١٢٧٣ :

« اعلموا أن ارادتنا اقتضت تحريك ركابنا من جهة مصر المحروسة بقصد الحضور

لى جبهة السودان و بعد خمسة عشر يوماً تمخى من تاريخ أمرنا هذا يكون القيام من هذا الطرف ، فيلزم أن بوصول أمرنا اليكم حالاً سريعاً تجمعوا كافة المعسكر الجهادية الموجودين فى جبهة السودان ليكونوا حاضرين جميعاً بالآتيهم فى الخرطوم . كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة المهيئة المطقمة وتبذلوا غاية الجهد فى تجهيز واستحضار سائر ما يلزم من المأكولات وخلافه بحيث أنه عند حضورنا لذلك الطرف بمعتنا نرى كل شىء فى غاية الاستحضار والتجهيز ولا تبدوا مشقة بسبب قلة وجود اللوازم والخزير^(١) كل الخزر من العمل بخلاف ذلك أو التقصير فيه لئلا يكون هذا سبباً لهلاككم بلا محالة . . عجلوا بنهاية ذلك حسب المطلوب كما اقتضه ارادتنا »

وفى ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ أرسل سعيد باشا أمراً عالياً إلى سلطان دارفور نصه : من محمد سعيد كافل الديار المصرية وما تابعها من الأقاليم السودانية إلى حضرة عريق الحسب والنسب ، والمتمسك من الدين بأقوى سبب ، حضرة السلطان محمد فضل سلطان دارفور ، لازال حظه من الهداية موفور !

أما بعد حمد الله العلى الأعلى ، والشكران شكراً يدوم ولا يبلى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم المنزل فى حقه « وانك لعلى خلق عظيم » ، وعلى أصحابه المهتدين وخلفائه الراشدين . وأهدى ما يليق بذلك المقام العالى من السلام والتكريم ، واسداء ما يجب من التحسن والتبجيل والتعظيم ، فانه بحسب ما جبلنا عليه بعناية الملك الخلاق من مكارم الاخلاق ، ووقفنا له تعالى من الاخذ من حظ المزاج لرعايانا بأوفر خلاق ، تحركت ركائبنا حتى حل الآن موكبنا بالأقاليم السودانية التابعة لجهاتنا المصرية بقصد تفقد أحوال الرعية ، وملاحظة اداء حقوقها المرعية واجراء ما فيه المصلحة العمومية والمنفعة

(١) انقصود « الخزر » ، وقد أثبتنا هذه الرسائل بنصها لما فيها من طرفة .

لاهلية اللازمة لرفاهية العباد، الموكولة لحسن أنظارنا وراحة البلاد المحيطة بهادائرة أفكارنا، كما جرت به عادتنا وتعلقت به همتنا هذا هو قصدنا لا قصد لنا سواه ولا مطمح لنا فيما عداه .

وحيث كنا من بعض بمكان المجاورين ، وكانت الاهالى فى كل من الجهتين لمصلحة التجارة ومنفعة العمارة على الدوام واردين ومترددين ، فقد رأينا من الواجب أن نحرر لحضرتكم هذا الكتاب ونسطر لسيادتكم هذا الخطاب لنحيط علمكم الكريم بحقيقة الغرض المقصود من تنقلنا إلى هذه الجهة التى هى إحدى جهاتنا ، وتحصيل التيقن بما نحن مصممون عليه من استمرار المحبة واستقرار المودة ، التى هى بين المتجاورين أعظم عدة . كما أن ذلك حق المتجاورين والله يحب المتقين ولتكون حضرتكم من أسرار سرائرنا على بصيرة والاعين تبقى ترينا من هذه الجهة مسرورة قريرة ، لاسيما وتجمعنا مع حضرتكم جماعة الاسلام . ولا أريد إلا الاصلاح ما استطعت والسلام .

وكان اسماعيل باشا (ابن أخى سعيد باشا) رئيس المجلس العالى أو مجلس الوزراء أثناء هذه الرحلة كما كان نائباً عنه فى القاهرة . وقد كتب سعيد باشا من الخرطوم يقول له :

« حيث أنى سأجرى بنفسى ترتيبات جميع المديرىات فى الخرطوم ماعدا مديريات دنقلة والبربر والجاعلين ، فلا أجل ذلك كتبت لكبار المشايخ والعمد جميعهم أن يذهبوا إلى الخرطوم قبل وصولى إليها ، وقد نظمت ، وأتممت الترتيبات الموجبة لاستراحة الأهالى ورفاهيتهم فى مديريات البربر وجاعلين اعتباراً من أبو حمد لغاية شندى ، ووصلت أمس إلى الخرطوم ، وحيث أنى بالذات قائم باجراء الترتيبات فى مديريات تاكا وكردفان وفى فازوغلى وسنار على الوجه المطلوب . وبعون الله تعالى قد صممت

وعزمت على التوجه لدقلة في غرة شهر جمادى الآخرة ، فبعد أن أتم ترتيب وتنظيم مديرية دقلة كما هو مقرر ، ساعد إلى مصر . فبناء عليه يجب ألا تقيموا لى زينة عند وصولى إليها . وإذا أرادت الذوات الذين تشرفوا بتوديعى عند السفر ، أن يحضروا لاستقبالى ، فلا بأس . وما عدا ذلك فالاجتماع لاستقبالى بحجة اتباع الأصول غير مرغوب فيه ، فذلك يجب التنبيه على الجميع على الوجه المحرر ، لذلك حررت هذا لدولتكم »

حاشية : يجب التنبيه على الذين يرغبون فى الحضور لاستقبالنا ، كما ينافى أمرنا العالى أنه ليس من الضرورى أن يكونوا بملابس التشريفة . لذلك حررت هذه الحاشية .

ويظهر أن شيخ مديرية التناكه لم يحضر لمقابلة سعيد باشا فكتب له هذا الخطاب العنيف بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣

« قد عرض لدينا ما حررتموه إلى حكمدار السودان فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ بالاعتذار عن الحضور بأقوال مطولة لا فائدة فيها ، والحال يا خنزير أنت تعلم أن أوامرنا من وجوب الإطاعة لها والانقياد ، وعدم مقابلتها باحتجاجات باطلة . فبوصول مرنا هذا يلزم حضورك حالا وسريعا من دون تأخير كما سبق التحرير لك بناء على إرادتى . وإن لم تحضر نرسل لك من يعدمك الحياة ، ويكون معلومك »

وفى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ ، أصدر سعيد باشا الأمر التالى إلى الشيخ فضل الله ولد سالم شيخ عربان الكبايش :

« إنه لما حل ركابنا بالأقاليم السودانية ، ووجدنا ما عليه أهلها من التعب والمشقة فبحسب ما تعودت به مراحمنا وشفقتنا ، أمرنا بما به انجبرت قلوبهم ، وزالت حسراتهم والجميع صاروا فى أعلى درجات الراحة ، وما يؤيده إلى اكتساب الرفاهية والعمار .

وحيث انكم من جملة من حقيهم عنايتنا ، وأفيضت عليهم احساناتنا . وبسبب هذه النعم الكثيرة صرتم بالطبيعة في كمال طبقات حب الوطن . ويجب عليكم السعى والاهتمام في المساعدة ، وردع من يقصد السوء والفساد ، فبناء على ذلك مأمولنا فيكم أن تجدوا بأنفسكم إلى دفع ما فيه الضرر والسقامة ... الخ »

وفي نفس اليوم صدر فرمان من سعيد باشا بتنصيب أراكيل بك مديراً على مديرية الخرطوم خاطب أهل السودان فيه بقوله :

« إعلموا رعاكم الله أنه بناء على ما جبلت عليه طبيعتنا ، وانصرفنا إليه مكارمنا من التحبب إلى عمارية البلاد ، ورعاية العباد ، والنظر فيما يؤدي إلى راحة البلاد ، والنظر فيما يوجب تحسين الأحوال ، وقد تحرك موكبنا للتقدم إلى الأقاليم السودانية لنطلع على أحوال أهاليها ، ونعاملهم بما يتبين عليه العمار في قاصيها ودانيها ، ونرفع عنهم ما كلفوا به من ثقل الأحمال »

ثم خاطب الحكمدار الجديد بقوله :

« وأنت يا من رأيناك أهلاً بهذا المنصب الكبير والمقام الجليل الخطير ، عليك بتقوى الله ، وعامل الناس واجتهد فيما فيه الحفظ والإصلاح ، وتوريد المطالب الأميرية على واقع ما صار ربطه بدون زيادة ولا نقصان »

ونجد في مجموعة أوامر سعيد باشا أمراً بتاريخ ١٩ ذو الحجة سنة ١٢٧٥ (أي من نحو تسعين سنة هجرية) أمراً هاماً أو « ارادة » موجهة إلى اسماعيل عاصم باشا ناظر الداخلية يقول فيه :

« حيث أن المستر فرانس الانكليزي الذي سيذهب لكشف منبع النيل سيسافر

على سفينة بخارية صغيرة ، التمس منى إصدار إرادتى بأن يصرف له نصف (طونولاته)
فحم كلما يصل إلى محطة في الوجه القبلى ، يكون بها فحم ، وحيث أن بعض الآلات
الطبيعية الموجودة فى سفينته الصغيرة المذكورة تكسرت أثناء مروره من ممر (بوغاز)
رشيد ، وهو مقتنع بوجود مثل هذه الآلات فى مخازن الهندسة الذى فى بولاق ، فبناء
عليه يطلب إغارة الآلات المذكورة اليه بصفة أمانة لاستعمالها فى مهمته بشرط أن يردها
عند عودته على هيئتها الأصلية بدون أن يمسه أذى ضرر وأقل خسارة ، وحيث إن
التماسه واستدعاه اقترن بمساعدتى فبناء عليه عندما يحيطون سلما بذلك ، يجب أن تبادروا
بارسال التعليمات المذكورة لمديرى الوجه القبلى بخصوص إعطاء الفحم المطاوب للمسئور
الموما اليه ، من المحطات على الوجه المشروح وبإعطاء الأوامر للجهات اللازمة لتسليم
الآلات الآنف ذكرها بصفة أمانة وقد حررنا لكم هذا لأجراء موجهه « (١)



ومن يقف على هذه الأنباء ، على رحلة الخرطوم فى الحياة منذ ميلادها أيام محمد على ،
حتى عصر سعيد ، يعلم أن وطن النيل قد وجد خلال عشرين أو ثلاثين سنة من مسير
العساكر المصرية قاصدة أعالي النهر . وقد جرى على لسان سعيد باشا ، وهو يملأ أوامره ،
ذكر كلمة الوطن ، وهو يتحدث مع أحد مشايخ السودان الكبار ..

(١) هذه الرحلة كانت مرحلة جديدة فى التسابق الجدى بين مصر وانجلترا للظفر بمناجم النيل .
فقد ذكر ابراهيم باشا فوزى - وأيد الأمير عمر طوسون رأيه - انه علم من شيخ ذى منصب
معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوربية (انجلترا) كانت تسعى لمارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا
الحبر أكبر اهتمام ، واستشار كثيرا من المهندسين الاوربيين الذين جئ بهم من بلادهم إلى هذا القطر ،
فأمروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت برائن هذه الدولة مما لا تحمد مغبته حيث تصير حياة مصر
فى يدها ، فصمم على انفاذ حملة السودان ..

وأورد الرافعى بك نقلا عن « سدى بيل » أحد نبلاء الانجليز فى كتابه ضبط النيل والسودان :
« كانت العوامل التى حلت محمد على على أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه كان من المعتدين فى فوائد الرى
ومناجمه ، فبرجح كثيرا أن يكون الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى أحد أغراضه »
وسنرى فيما بعد ما انتهى اليه أمر هذا السباق التاريخى الخطير .

وإذن فلم يكن صواباً ما ذكره ملنر في تقريره من أن فتح السودان كان نكبة على مصر، وعلى السودان معا .. لم يكن صواباً لأنه أنشأ « الوطن » في حدوده الطبيعية، ولأن حكام مصر كانوا ينظرون إلى السودان وأهله، لا على أنه مستعمرة، أو أرض غريبة ضمت بحق الفتح، ولكن كما ينظرون إلى أهل الغربية أوقنا، أو بقية مديريات الديار المصرية.

وإذا كانت الإدارة الإنجليزية قد نجحت في إقرار الأمن بالسودان منذ أوائل هذا القرن فقد كان نجاح الإدارة المصرية في هذا الباب مدعاة للكثير من الدهشة .. وهي الإدارة التي وجدت ابتداءً من الربع الثاني للقرن التاسع عشر.

نقل أرافى بك في تاريخه للحركة القومية عن السكوت بنديتي « Benedetti » قنصل فرنسا في مصر: « إن الأهالي والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا إلى شأوا في البلاد التي يحكمها محمد على سواء. أكان ذلك في حوض النيل إلى أقصى حدود السودان، أم في سوريه وجزيرة العرب. فإن صرامة العدل الذي أقام ميزانه في كل ناحية لا تقبل هواذة ولا ضعفاً، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره من البلاد التي حكمها. ففي كردفان مثلاً، لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفرداً، استطاع الرحالة « بالم » أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم واحد، ولم يقع عليه أى اعتداء أو أذى. وكذلك ساج فيه الرحالة « كوتشى » مطمئناً سنة ١٨٣٩، وساح الأمير الألماني « بكنر مسكو » في السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء. وجاءت أسرة المسيو « مولى » إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للترهة كما لو ساحت في ربوع إيطاليا^(١) » وقال المسيو « جومار » : من ذا الذي كان يظن قبل أربعين عاماً فقط، أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين (باريس) في اثنين وثلاثين يوماً، وتصلنا من « قرنفور » عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء في خمسين يوماً!! »

(١) كتاب ديهران ص ٢١٥

نجحت الادارة المصرية الأولى في السودان نجاحاً منقطع النظير ، على الرغم من عدم توفر المواصلات ولا وسائل النقل السريع — كان ذلك منذ أكثر من قرن — وأخذ أهل السودان وأهل مصر منذ اليوم الأول يندمجون ويتزاوجون ، ويكونون جماعة واحدة أينما حلوا ...

وعلى الرغم من نفشى نزعات التعصب الدينى فى ذلك العهد ، لم نسمع أن أوربياً أضير فى السودان أو فى مصر بسبب دينه . لا بل نسمع أن ولاية مصر الأولى سمحوا لإرسالية دينية بأن تقيم فى « خرطومنا » ، وأن تؤسس أول كنيسة فى السودان .



وننتقل الآن إلى مرحلة جديدة من تأملات الخرطوم وذكرياتها ، وهى تقلب صحائف الماضى ، لنقف عند عصر اسماعيل ، ونستنطق وثائق التاريخ ماسجلته عن أيامه كان من الأوامر الأولى التى وجهها الخديوى اسماعيل باشا إلى حكامدار السودان (موسى باشا) وذلك فى عام ١٢٧٩ هجرى :

« أن تبذلوا غاية جهدكم ومساعدكم لتأمين الطرق والمسالك ولحفظ الحدود بالدقة والعناية . ولتأسيس أمنية (أمن) واستراحة السكان الأجانب وأهل البلاد ، ولاستكمال كافة أسباب زراعاتهم وتسهيل وتوسيع تجارتهم كما هو مأمول ومنتظر منكم ليعيشوا آمنين ومطمئنين مرفهين .

وفى رجب سنة ١٢٨٠ كتب الخديوى اسماعيل أمراً عالياً « إلى فخر الأوائى والأواخر الملك المعظم السلطان المفخم محمد الحسين المهدي سلطان مملكة دارفور ... » يوافق فيه على طلب السلطان باستمرار مندوب حكومة مصر السيد موسى العقاد وكيله فى الاشراف على شؤون سلطنة دارفور ، كما عينه سمو سعيد باشا . وكان اثنان من أهل دارفور يحملان هذا الالتماس إلى اسماعيل باشا ... « وقد شملنا المذكورين باعانتنا ،

وأجريتاهما على عوايد رعايتنا ، وسيحصل إن شاء الله لكل من يأتى من ذلك الطرف
الجليل ما لا مزيد عليه من الترحيب والتأهيل والمساعدة والتسهيل » ثم أرسل معهما
لسلطان دارفور هدية من سكر أبيض (١٢ قنطاراً) ، وطاسة مكتوب عليها آية قرآن ،
وملابس ، وسجاجيد ، و ٢٠٠ أقة من الجمع ...

ووصل اسماعيل باشا إلى أعظم ما وصل إليه منظم إدارى ، وحاكم نافذ البصيرة ،
وهو يعمل لأئحة جديدة لحكم أعالي النيل ، أو مديرية النيل الأبيض كما كانت تسمى
فقد كتب إليه جعفر باشا حكمدار السودان يستأذنه فى إدخال بعض إصلاحات على
جنوب السودان ، فكتب له اسماعيل باشا ، كتاباً مفصلاً يقع فى ١٨ بنداً غير المقدمة
والخاتمة نوجزه فيما يلى :

● ذكر فى البند الأول أن تنظيم الحكم فى هذه المناطق جديد ، يتم للمرة الأولى .
وأنه يحتاج إلى ميزانية لا ينظر فى تقديرها إلى حصيلة الضرائب الواردة منها ، وذلك
لأنه « يتعذر حصر كامل ارتباطاته دفعة واحدة ، ما لم يكن بالأخذ والمراعية لأحوال
المكان والزمان شيئاً فشيئاً . وبهذا فكما نظر ضرورة صرفه ، بما يرى فيه لزوم
لادارة وعمارية هذه الجهة ، وضبط وسريان واتساع دائرة التجارة بها ،
فيجرى صرفه من الحكومة بافادات من الحكمدارية ، بدون أن يتكلفوا أهالى
تلك المديرية بما لا طاقة لهم به ، لأجل تأليف طباعهم إلى العمارية ، وحسن التوطن ،
كما أن ذلك أمر موجب لراحة الأهالى »

● لا يجند أحد من أهل تلك المناطق تجنيداً اجبارياً . ومن يتطوع يعطى لأهله
٢٥٠ قرشاً لأجل أن ينتفعوا بهذا المبلغ فى اصلاح شؤونهم . ويكون الصرف على
يد كبراء الجهة الذين هم بها .

● لا تفرض ضرائب زائدة على أهل هذه المناطق ، لاستمالة قلوبهم إلى الاستقرار ،

وحب الوطن ، والانتقال من الحالة الوحشية إلى حالة التمدن ، مع الأمن الكافي لهم . كما نبه اسماعيل باشا على الضباط والمستخدمين جميعا بأن يعامل أهالى هذه المناطق « بحسن الخلق ، وخفض الجناح ورعاية لين الجانب فى الأخذ والعطا ، مع رفع حركات التحقير لهم ، والاعتراض عليهم » .. وهكذا صدق الخديوى وهو يقول ان الشفقة الخديوية شملتهم ، لأنهم غير داخلين تحت دائرة التمدن ، والمأمول قرب تمدنهم ويكون ذلك عنوانا لشرفهم .

● كل تموين الحكومة ، يجب أن يدفع ثمنه ، كما يجب أن يلغى العمل الاجبارى تماما ، وتدفع أجرة كل شخص يكلف بعمل من زنوج الجنوب . على أن يكون الدفع بحسب أمان الوقت ، والأجر الحالية ، والعملة الجارى تداولها هناك .

● لم يتعود أهالى الجنوب على الزراعة ، ولم يذوقوا حلالة التكسب منها . وقد قضت هذه اللائحة ، بأخذ الناس بالرفق ، وتكليف جنود الحامية بارشاد الأهالى لأنهم فى الغالب من فلاحي مصر ، وأن تبنى السواقي ، وتقدم البذور على نفقة الحكومة ، وذلك لأن « الغاية القصوى انما هو تأسيس وتمكين عمارة تلك الجهة ، وتكسب أهاليها ودخولهم تحت تناول المنافع والثروة والتمدن شيئا فشيئا »

وزاد اسماعيل باشا ، فأعفى كل أرض يزرعها الأهالى من الضرائب ، على أن تكون ملكا للزارع « لأجل كمال حسن الترغيب والتشويق فى ذلك للأهالى .. وحتى يلجئهم ذلك إلى زيادة الميل وحب الوطن وحسن استقراره .. هذا مع مراعية رفع التعرض للأهالى فى ذلك ، وبهذا فانه مأمول فى جانب الله تعالى بأنه فى أقرب زمن يصير انتشار منافع الزراعة فى الأراضى الصالحة فى تلك الجهات متى تعلموها الأهالى ، واستطعموا مزاياها ، ويترتب على ذلك كثرة العمارة والاستئناس بالغيطان والسكان شيئا فشيئا »

● ولم يقتصر برنامج الخديوى على نشر الزراعة ، ولكنه فكر أيضا فى نشر الصناعة ومظاهر العمران فحب إلى أرباب المهن السفر إلى أعلى النيل بمضاعفة أجورهم . ولم يقتصر الأمر على إرسال حملة الفنانين « من بنائين ونجارين ومهندسين » على تشييد مباني الحكومة وورشها ، بل رأى ضرورة تعليم زنوج هذه المناطق الحرف والصناعات « مع ائتلاف الأهالى فى دخول من يرغبوا دخولهم من أولادهم للتعليم وتعاطى مشغولات تلك الصناعات ، وإرشادهم إليها بالرفق والترغيب لأجل سعة استعمالها ، واشتغالهم فيما يوجب أمور تكسبهم »

وقرر اسماعيل باشا مكافأة لنشر التعليم الصناعى ، لاللمعلم الذى يدرّب الأهالى ، فقط ولكن أيضا لكل فرد من الأهالى يتقن حرفة . وليس هذا فحسب ، ولكن يعان كل ناشئ فى مهنة من طرف الحكومة « بما يثبت اقدامه لرسوخ الاشتغال فى تلك الصناعة حتى يتمكن انهماكه فيها ، ورواج حال معيشته منها » .

● وأمر الخديوى بإنشاء محطات كثيرة للحكومة ، تفد إليها وتقوم منها المتاجر بطريق البر وطريق النهر . ولاحظ الخديوى منطقة السدود ، فقال إن تصميم سفن الحكومة سيكون بحيث يكفى لسيورها وجود شبرين من الماء ، ونبه إلى ضرورة إنشاء استبائية للمرضى فى كل محطة ترتب لها أصناف الأدوية والحكام والنومرجية ، ولأجل تعميم المرحمة والرأفة بأحوال الأهالى وغيرهم ، قد سمحت الادارة أيضا بوضع حكيم واحد فى كل محطة ، ويعطى له الأدوية المقتضية لمعالجة من يقتضى الحال الى معالجته من يتواجدوا فيها من العساكر وسائر الخدمة والأهالى والتجار ، وكامل مصاريف ذلك تحسب من الخيرات والاحسانات الخديوية »

● وانتقل برنامج اسماعيل باشا إلى نشر اللغة العربية بين زنوج هذه المناطق ، لأن وحدة اللسان « من أحسن الأسباب الموصلة .. وهذا التعليم يكون لاطفالهم أقرب وأنجح وأقربه ما كان بواسطة تعليم القراءة والكتابة » وأمر بإرسال المدرسين زيادة على أئمة

الأورط العسكرية ، ورصد مكافآت للمدرسين والتلاميذ الذين ينجحون » بقدر ما يبعث فيهم زيادة الرغبة في التعليم والتعلم »

● ونبه على اختيار أفراد من ذوى المكانة بين الأهالى للإشراف على المحلات ورياسة القبائل . وأمر بمنحهم الكساوى الأميرية ، وضرب مثلاً باثنين اختارتهما الحكومة فأديا عملهما بأمانة ونجاح . كما أمر بتعيين مترجمين فى كل محلة حكومية ليكونوا واسطة التفاهم بين الاهالى وهىئات الحكم ، إذ أن لغة الزوج غير اللغة العربية .

● وانتقل الخديوى إلى ضرورة معاملة الأهالى بالعدل الذى هو أساس العمران ، وأشار إلى أخذ المذنبين من الزوج بالرفق لقرب عهدهم بحياة العاقبة « فلجأهم لا يخلو الحال من حصول بعض أمور مغايرة منهم فى حق بعضهم أو فى حق غيرهم نظراً لعدم إدراكهم بعواقب الأمور ، وهذا يمكن إزالتها تارة بالتعليم ، وتارة بالترهيب والتخويف وتارة بالعقاب الملائم إلى مقتضيات الوقائع .. مع عدم التمسك بالعقاب فى كل حادثة من أول وهلة ، الا فيما إذا كانت الجريمة من أنواع القتل » وأمر فى هذه الحالة بأن يقبض على الجانى، وأن يحقق معه المدير بنفسه زيادة فى الاحتياط ، ويحجز حتى ترفع الأوراق إلى الحكمدار فى الخرطوم ليبت فيها .

ولكن الخديوى عاد فنص على أن تكون معاملة المذنبين كمعاملة الوالدين فى تربية أولادهم « من غير حدة أو قساوة » كما نبه إلى ضرورة تدريب الأهالى على أصول المعاملات ، وتنفيرهم من الأذى والاعتصاب . ويجب أن تكون العقوبات تدريجية فى أول مرة خفيفة ثم يشدد الجزاء تدريجياً .. وهكذا .

أما الموظفون الذين يجترئون على حق الاهالى أو يرتكبون ذنوباً تقع تحت طائلة القانون ، فقد أمر الخديوى بتشديد العقوبة عليهم ، بعد التحقق من الذنب ، وأن تعلن العقوبة على الجميع عبرة لمن يعتبر .

● وكأت ميزانية موظفى هذه المنطقة ١١٥ جنيتها وخمسة وثمانين قرشاً ، فأمر بزيادة

الاعتمادات المخصصة لها ، بحيث تواجه هذا البرنامج الضخم الذى أعده الخديوى .
● ونبه الخديوى الموظفين إلى ضرورة رعاية الأمن فى هذه المناطق أو على حد تعبيره :
تنوير جميع مساكنها بنور الأمن ، بحيث يسهل على التجار والرواد أن يقدوا اليها
سواء كانوا من رعايا الحكومة أو « رعايا وحمايات الدول المتحابة » وليس معنى حماية
الوافدين أن يهضم حق أحد من الأهالى .. لا بل منع الخديوى منها باتا اغتصاب شئ
من الأهالى أو حدوث تعد عليهم من أى أحد مما يكن مركزه .

كما أمر الخديوى بإلغاء الأوامر السابقة التى كانت تقضى بمنع التجول فى هذه المناطق
وتفتيش جميع السفن ، ولو أنه أشار بضرورة إعطاء التعليمات اللازمة للذين يقدون
لأول مرة لراحتهم وأمنهم .

هذا مجمل التنظيمات التى وضعها الخديوى « المفترى عليه » اسماعيل باشا لنشر الحضارة
والمدينة فى قسم من حوض النيل الذى تولى أمره ، وهو أعلى حوض النيل .

•••

وقصة التوسع فى نشر الحضارة المصرية حتى تشمل البحيرات الاستوائية كلها ،
وجانبها من المحيط الهندى ، من أهم قصص التاريخ المصرى ، وأكثرها إشادة بمجهود
الخديوى اسماعيل ، وتنزيهاً لسمعته من كثير من الشوائب المغرضة التى ألحقت به . فقد
فهم اسماعيل ، وأدرك عن دراية ويقين ، أن الحدود الطبيعية لمصر ، لا تقف عند شلال
من الشلالات ولا تحاصر بخطوط صناعية ، ولكن « كل أرض مصرية فى بلادها ماء النيل
فمصر أرض مصرية » . هذا هو إيمان اسماعيل ، وعلى أساسه عمل ، وقد نجح فى
تحقيق أهدافه نجاحاً كبيراً .

ومن الخير أن نسوق الوثائق ، لكى نتحدث بنفسها عن سير الحوادث ، وارتباطها

بغير تنميق ، ولا تزويق ^(١) ، وإن كانت لغة المكاتبات الرسمية — منذ خمس وسبعين سنة لا ترضينا كل الرضا ، ولا تلائم أذواقنا ، إلا أنها تشبه التحف الفنية القديمة ، التي تنقلنا إلى جو العصر الذي أنشئت فيه ..

في صفر سنة ١٢٨٦ هجرية (سنة ١٨٦٩ م) أصدر الخديوى اسماعيل الأمر التالى ، ترجمته :

« نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل ، ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ، ولا أمن ، ولأن الشرائع الانسانية تفرض منع النخاسة ، والقضاء على القاطنين بها ، المنتشرين بكثرة فى تلك النواحي ، ولأن تأسيس تجارة شرعية فى النواحي المشار اليها يعتبر خطوة واسعة فى سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على اقامة حكومة ثابتة .
أمرنا بما هوآت :

نؤلف حملة لاختضاع النواحي الواقعة فى جنوب غوندوكورو اساطنتنا ، ولا بطل النخاسة وإيجاد تجارة منظمة .

ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء ، ولإقامة خط من النقاط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض مسافة ثلاثة أيام للماشى فى أنحاء أفريقيا الوسطى ابتداء من غوندوكورو .

وقد فوضنا رئاسة هذه الحملة إلى سير صمويل بيكر لمدة اربع سنوات ابتداء من أول

(١) وثائق هذا الفصل مستمدة من كتب الأمير عمر طوسون ونقويم النيل لامين باشا سامى والنهضة القومية للرافعى واسماعيل المفترى عليه للفاضل كرايتس ترجمة الاستاذ فؤاد صروف والاسماعيلية لصمويل بيكر .

أبريل سنة ١٨٦٩ ، وقلدناه حقوق السلطة التامة المطلقة ، حتى السلطة المتعلقة بحياة
واعدام كل من له علاقة بالحلة .

وقلدناه كذلك نفس هذه السلطة على كل النواحي التابعة لحوض النيل جنوب
غوندوكورو . »

وأصدر اسماعيل باشا ارادته لناظر الداخلية ورد فيها ما ترجمته :
نظراً لضرورة لزوم إلحاق أعالي النيل الابيض الذى هو أكبر أقسام النيل المبارك ،
بالأقطار السودانية ، وحيث ان التقدم للجهات المذكورة بصورة مطردة من القواعد
الأساسية القديمة المتخذة لدى الحكومة المصرية ، فقد قررنا تعيين صامويل باكر بك
من مستخدمي الحكومة والذي سبق استخدامه فى استكشاف منابع النيل ، مأموراً
لإلحاق أعالي النيل الابيض بممالك الحكومة المصرية ، وقيامه للجهات المذكورة ، يكون على
رأس قوة مؤلفة من ثمانمائة من الجنود المصريين النظاميين ، خمسمائة جندي نظامي سوداني ،
ومائة من الجنود الشائكة ، فالجموع فرقة مؤلفة من الف واربعمائة جندي مع مدفعتها
وسائر لوازمها ، واربعة عشر مدفعاً جلياً »

وبعد أن استطرد الامر فى ذكر رتب الضباط ومراتبهم وعلاواتهم قال :
« ... ويلزم أن يعين فى معية ابن أخيه ياور حربى بمرتب سنوى قدره ٥٠٠ جنيه
وطبيب انجليزى بمرتب سنوى قدره ٤٠٠ جنيه ، وثلاثة ضباط مصريين بصفة
ياوران حرب .

« وحيث إن الموما إليه من مأمورى الحكومة المصرية كما هو مذكور أعلاه ،
فكل الاراضى التى يضع يده عليها ويحتلها الجيش الذى تحت قيادته ستكون بالطبع من
ممتلكات الحكومة المصرية ، وتدخل تحت تصرفها المطلق ، وبناء عليه يجب تجهيز
وتدارك القوة السفرية المذكورة ... الخ »

وفي إرادة أخرى لناظر الداخلية :

« قد أصدرنا أمرا هذا إليكم لتعلنوا حكمدارية السودان بخصوص إصلاح البواخر الموجودة بالخرطوم ووضعها تحت أمر صامويل باكر بك ، وعدا ذلك يجب أن تجمعوا البواخر الأميرية الموجودة في هذا الطرف ، وفي حالة عدم كفايتها يجب أن تتباعدوا من الشركة العريضة بواخرها الموجودة في النيل الزائدة على اللزوم . وخلاصة القول، عليكم أن تهتموا ببلاغ عدد البواخر التي ستوضع تحت أمر الموما إليه إلى عشر ، فذلك أصدرنا أمرا هذا وأرسلناه إليكم . »

وفي آخر شعبان من هذه السنة ، كتب الخديوى أمرا « إلى سائر الحكام ونظار الأقسام ومشايخ وعمد الأهالي بالجهات الداخلية بالبحر الأبيض بالقاليم السودان » يحيطهم علما بمهمة « السر صامويل باكر بك » ، ويطلب مؤازرته .
وكذلك أرسل هذا الأمر إلى حكمدارية السودان

وقد أعدت للحملة البواخر اللازمة لها ، كما أنشئت بواخر جديدة ، وزودت الحملة بآلات تجارية تقطع الأخشاب . ولم يكن من المستطاع إبحار هذه السفن من القاهرة إلى « غوندو كورو » لاعتراض الشلالات الكثيرة طريق الملاحة ، ففكت وحملت على ظهور الابل ، وظهور الرجال مسافات شاسعة ، حتى وصلت إلى غايتها (المسافة بين الاسكندرية وغوندو كورو ٤٨٠٠ ك . !!) . وقد استنفد هذا النقل مجيودا بشريا هائلا ، لا يقل عن مجهود مصر الدامي الذي بذلته في شق قناة السويس . ولقد كان أشق مراحل الحملة قطع صحراء العطور في النوبة ، أي مسافة لا تقل عن ٦٥٠ ك مترا يتصاعد من رمالها دخان مثل الذهب ^(١) .

(١) تحمس أحد الثبان السودانيين في احتفال مصري سوداني بالخرطوم ، وقال إن صحراء العطور فاصل طبيعي بين مصر والسودان ، فرد عليه شاب مصري قائلا : إن العطور لم تصبح صحراء فاصلة بيننا بمد أن روتها دماء المصريين ، في أكثر من عهد .

ولما وصل هذا الأسطول النهرى الصغير إلى منطقة السدود فى بحر الجبل ، بدأ
المجهود البشرى الهائل مرة أخرى ، فى شق طريق ، وسحب السفن بين غابات متشابكة
من النباتات المائية التى يبلغ ارتفاعها بين ٦ إلى ١٠ متر . وبعد شهر من المجهودات
المريرة المضنية ، تبين للسربىكر أن من المستحيل شق هذه الغابات الكثيفة من الأعشاب
فعاد القهقرى إلى موقع « التوفيقية » ، وأنشأ فيها محطة كبيرة وظل ينتظر الفيضان .
وعند ما علت مياه النيل ، أمكن للحملة أن تشق طريقها بعد أن بذلت جهوداً
فوق طاقة البشر ، وأنفقت فى الأعداد والمسير والتعويق نحو عامين .
ووصلت الحملة إلى « غوندوكورو » ، واختارها بىكر عاصمة للمديرية الجديدة
« خط الاستواء » . وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ احتفل برفع العلم المصرى على عاصمة
المديرية الجديدة .

قال بىكر فى كتاب الاسماعيلية :

« فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ ، كان كل شىء قد تم . وكان اللفتنانت بىكر قد نصب
صاريا لترفع عليه الراية فى أعلى نقطة تشرف على النهر ، وكانت كل شجيرة قد أزيلت
من هنالك ، فبدأ الميدان نظيفاً مكشوفاً ، وكان الجنود قد استراحوا يومين قبل ذلك فى
غوندوكورو وغسلوا ثيابهم ، ونظفوا أسلحتهم ، ثم ساروا فى الساعة السادسة من صباح
٢٦ مايو حتى وصلوا إلى ذلك الميدان ، وكان عددهم ١٢٠٠ جندي ، معهم عشرة مدافع
جبلية يبلغ وزن قذيفة كل منها ثمانية أرتال وربع رطل .

« وتقدمت راكباً حتى وقفت تحت الراية . ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع
من أضلاع مربع مستطيل ، أما الضلع الرابعة ، وهى الجهة المفتوحة من المربع ، فكانت
مواجهة للنهر ، وقد وقف فيها جنود المدفعية بمدافعهم العشرة ، ثم قرىء المنشور الرسمى
عند سفح الصارى المعد للراية ، وجاء فى ذلك المنشور وصف ضم تلك البلاد إلى مصر
باسم سمو الخديوى ، وعند تلاوة آخر عبارة ، رفعت الراية إلى قمة الصارى ، فاخذت

تحقق في مهبط النسيم ، واستل الضباط سيوفهم فحيوها ، وحياتها الجنود أيضا برفع سيوفهم
ورجال المدفعية باطلاق مدافعهم »

وقد اسمى السر صمويل بيكر « غونذو كورو » باسم آخر هو الاسماعيلية ، تيمناً
باسم الخديوى ، كما اسمى أول محطاته بالتوفيقية على اسم ولى العهد .

وأخذت الحملة تزحف جنوباً ، وقد كان الذعر الذى نشرته معداتها الغربية بين
زنوج هذه المناطق سبباً فى إذعانها بالطاعة تسليماً ، أو بعد اصطدامات صغيرة . ومعدات
الحملة كانت الخيل التى لم يرها أهل هذه المناطق ولا عهد لهم ببحيران اليف له سرعتها ،
والبنادق التى تقتل خصمها على مسافة كبيرة ، وهذه السفن التجارية الضخمة التى تسير
فى النيل وكأنها القرى المتحركة يتصاعد منها الدخان والأصوات الغربية المنكرة التى
لا تشبه أصوات أى حيوان مائى أو أرضى عرفوه طول حياتهم ، أو سمعوا عنه من كهاتهم
والمسنين من أشياخهم .

ومن أمثلة المعارك الصغيرة التى دونها بيكر فى تقاريره ماحدث للمصاغ عبدالله افندى
المنساوى عند « لابوريه » .. قال :

« فى ليل ١٧ فبراير سنة ١٨٧٢ م ، بينما كان الضباط والمساكر غارقين فى نومهم
انقض على العسكر عشرة آلاف من الأهالى ، ولولا يقظة جندى أو جنديين ، وعدم
استسلامها للنوم كرفقائهما لذبح الجيش برمته وقد أدرك الجند الذعر لأول وهلة ، فولوا
الأدبار تاركين المدفع بين أيدي قبائل الباريين ، غير أن عبدالله افندى المنساوى ،
والضباط جمعوا شتاتهم فبادروا للقتال ، وحصروا العدو بين نارين ، واستردوا المدفع ،
ورموا ذلك العدو ببعض مقذوفات منه ، فلم يسمعه إلا أن يرتد على أعقابيه »

ودخلت الحملة أرض « أوينورو » التى يحكمها ملك من الزنوج اسمه « كباريجا » ،
وتقع عاصمة هذا الملك ، واسمها « مازندى » على مسيرة ٥٣٥ كيلومترا من الاسماعيلية

— أو غندو كورو كما كانت تسمى — وأهل هذه المناطق كانوا يعرفون السر صمويل بيكر من رحلة سابقة كشف بها هذه المناطق .

وأرسل الملك « كباريجا » إلى الحملة المصرية هدية من حبوب وموز وست عنزات ، وقد زاره السر صمويل بيكر زيارة رسمية ، في موكب عظيم تقدمه الموسيقي . واستقبلهم الملك في زيه الرسمي ، وكان مؤثقا من حلة جميلة من قشور الشجر مخططة بخطوط سود . وعند مارد الملك الزيارة نصب له مندوب الخديوى سرادقا ضخما ، وأمر بعزف الموسيقى وسمعت على البعد أصوات أبواق وقرعت الطبول ايذانا بوصول الملك . وكانت يسير بخطى « ملكية » غريبة ، إذ كان يمشى محاولا تقليد الزرافة في خطواتها الواسعة . وجلس في قلق على المقعد الذى أرشد اليه ، وهو ينظر في ذهول إلى المظاهر العجيبة من حوله . ولما قدمت له القهوة والشربات ، أمر اثنين من أتباعه بشربها ، لانه حسب أن السر صمويل بيكر دس له السم فيها . ولكنه تقبل ساعة على سبيل الهدية .

وقد أقيمت حفلة فخمة ضمت فيها مقاطعة اينورو إلى التاج المصرى ، وذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ ، ولما انتهت الحفلة أرسل الملك « كباريجا » هدية مكونة من ١٢ عنزة على سبيل الرضاء والشكر .

وأحس الملك « متيسا » ، ملك مقاطعة أوغندا بتقدم الحملة المصرية ، فزار رساله السر بيكر أكثر من مرة ، وحملوا معهم رسالة باللغة العربية ، وكان الرسل يعودون إلى سيدهم محملين بالهدايا لهم والملك .

وقد انتفض الملك « كباريجا » وناصب الحملة العداء ، على الرغم من حصوله على صندوق موسيقي كبير يدار باليد ، وألب الأهلى على الحملة ، إلا أن قائد الحملة كان يصلح الأمور بقدر الامكان .

وكان الخديوى اسماعيل يوالى هذا العمل باهتمام زائد .. كتب مرة إلى بيكر يقول :
« لقد وصلت الآن إلى بلاد خصبة جميلة ، وحوالك شعوب قد أثار عدوانها

وشكوكها جماعة النخاسين الذين قضيت عليهم. على أن وسائل اتصالك بالخرطوم عسيرة على طول الشقة بينك وبينها. لذلك أرى من الخرق أن توالى الزحف، وتترك وراءك قبائل لم يتم اخضاعها بعد، ولا هي تثق بنا. فتف في « غوندو كورو » وحسن موقفك، واشرع في عملك، وابذل جهدك لتبسط أغراضك لرؤساء القبائل »

وفي تعليمات الخديوى ليكر:

« أود أن أعرف ما هي مواد المقايضة التي تسر الوطنيين أكثر من غيرها. ثم إن معك المهندس « هجنبوهام »، ولكنى لا أظن أنك تستطيع الا كفء به وحده، وعليه فسأبعث إليك بمهندس آخر يعمل تحت إمرته. ابحت في كيفية تسهيل وسائل اتصالك بالخرطوم.. لقد أخضعت قبائل البارى، فعاملهم بالحسنى حتى يثقوا بك، ويتعلموا ما تريد أن تلقهم إياه.

« اننى أعلم أن هذا العمل المادى الأدبى لا بد أن يستغرق زمناً طويلاً، ولكنه متى أثمر، فستكون قد شققت لنفسك طريقاً سهلاً من « غوندو كورو » إلى البحيرات وان كانت بعيدة عنك بعداً شاسعاً

« لقد رسمت لك خلاصة الخطة التي أرغب منك أن تسير عليها. إلا أننى أدع لك رسم الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق غايتنا. وبعبارة أخرى — لا تواصل الزحف إلى الامام، بل استعمر البلاد، وعلم السكان، واجعل القبائل موالية لك، ومتى أنجزت ذلك، فواصل الزحف إلى الامام »

وبعد عام من هذه الرسائل انتهت مدة خدمة السر صمويل بيكر، وكان عقده لاربعة سنين، ومرتبته ٤٠ ألف جنيه في المدة كلها. وقد كتب للخديوى تقريره عن مهمته، ورد فيه:

« مولاي:

« أنشرف بأن أبدى لسموكم أنه مع صغر الحملة العسكرية المسيرة تحت أمرى، قد

ضمت إلى مصر جانباً كبيراً من اواسط أفريقية ، وعليه فان ملك سموكم يمتد الآن إلى خط الاستواء ، وقد غادرت تلك البلاد في حالة جيدة ، وجميع الضباط والجنود الذين معي هم على أحسن حال من الصحة »

وكان تاريخ هذا التقرير يوليو سنة ١٨٧٣

ونشرت الوقائع المصرية في هذا الوقت :

« حضر لمصر السير صمويل بيكر ، ورفقاؤه بعد اكتشاف بحيرة « أوكريو » ،

التي سميت فيما بعد فكتوريا نياتزا ، التي يستمد منها النيل الأبيض »

وقد ورد في أنباء العام السابق أن الميرالاي رؤوف بك^(١) القائد المصري للحملة اختلف مع السير صمويل بيكر ، فأمر الخديوى بتعيين قائد آخر مكانه . وكشف أمين باشا سامي سر « الخلاف والتنافر » في كتابه مصر والنيل ، فقال إن رؤوف بك اعترض على تسمية البحيرات المكتشفة بمال مصر — فكتوريا نياتزا ، والبرت نياتزا ، بدون أن تسمى باسم اسماعيل باشا ، وكان هذا هو سبب استدعائه .

وذكر الأمير عمر طوسون أن نفقات بعثة بيكر باشا بلغت ٨٠٠.٠٠٠ جنيه

ويظهر أن دائني الخديوى كانوا لا يرحبون باستمرار انفاقه على هذه الحملة الحيوية

الخطيرة : فاننا نجد في إحدى الرسائل إلى السير صمويل بيكر :

« ما أظنك تجهل يا عزيزي أن السودان يتطلب نفقات باهظة ، لانجاز الأعمال التي

لا غنى له عنها كالسكك الحديدية ، وغيرها من المرافق العامة . لذلك أراى مضطراً أن

أرجو منك أن تنظم الأمور بحيث يمكن خفض النفقات وقصرها على ما لا غنى عنه

وإني أطلب منك هذا لكي يتسنى انجاز الأعمال العامة الأخرى التي تقتضيها

مصلحة السودان »

(١) تولى رؤوف بك حكمة المديرية لمدة عام بعد عودة بيكر ، ثم عين حكاماً علما

للسودان ، وفي عهده تحركت ثورة المهدي ، وهو الذي تولى رئاسة المحكمة العسكرية التي حكمت على عرابي باشا بالاعدام .

وعلى الرغم من ضغط الدائنين على الخديوى فإنه لم يعمد إلى إرهاب هذه الشعوب الجديدة التى دخلت فى حكمه ، بل تابع انفاقه ، وصبر صبرا دفع ثمنه عرشه ، ولكنه مع هذا أقام أرسخ القواعد لنشر أضواء الحضارة فى السودان

قال فى رسالة له إلى حاكم دار السودان بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ ، وهو يناقش الميزانية :

« يلزم منكم الاعتنى، وبذل المجهود فى اجرى الوسائط اللازمة لتقدم وتيسير أحوال الأهالى ، وتسهيل سداد الأموال بواسطة التأكد والتنبيه على الحكام والمأمورين باستمرار تشويق وترغيب الأهالى فى تكثير الزراعة ، والأخذ فى الاسباب التى يترتب عليها ثروتهم وسهولة تأدية المقرر عليهم، حتى إذا لزم الحال لصرف شئ من الحكمادارية فيما يتعلق بأمورية خط الاستوى^(١) أو غير ذلك فيستدرك تأدية ما يلزم من أصل الباقي من صافى الإيرادات .. الخ »

والحقيقة أن اسماعيل باشا كان شديد الشغف فى ذلك الوقت بمد سكة حديد تربط السودان بمصر ، ونجد فى ميرانيته الكثير من المفردات التى تدل على تمهيدته لهذا العمل الجليل . الذى لم تسمح الظروف باتمامه ، ولو كان الخط قد مد ، لما استقل المهدي بالسودان وبالتالي لما ضاع السودان من مصر .

وتابع الخديوى اسماعيل اهتمامه باستمرار الكشف عن هذه المناطق المجهولة ، وضمها إلى ملكه . وقد اتفق مع الكولونيل غوردون لتولى العمل مكان السر صمويل بيكر وصدر أمر تعيينه فى ٢ محرم سنة ١٢٩١ هـ — (فبراير سنة ١٨٧٤) ، نصه :

عزتلوقولونيل غوردون .
مأمور جبهة خط الاستوى
أنه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية ، قد عيناكم مأموراً على جبهة الاستوى التابعة للحكومة ، وصار فرز هذه الجبهة من تبعية حكمادارية السودان ، وصارت فائمة

(١) أصبح اسم الحملة « خط الاستواء » بعد أن كانت حملة النيل الأبيض فى بدء تأليفها .

بنفسها غير تابعة للحكمدارية . إنما كان لوازمتها التي تقتضى الحال تداركها من طرف
الحكمدارية — هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار ، وصرف ثمنها من طرفه مقابلة
محاسبة المالية بذلك :.. الخ

ثم ختم الخديوى أمره بقوله : « وعلى هذا ، وما هو منظور لنا منكم من حسن الفيرة
والأهلية ، مؤملين الاستحصال على مافيه عمارية جيات خط الاستوى المحكى عنها ،
وراحة أهاليها ، وحسن توطيئهم ، وتذليلهم على الدخول فى سلك الانسانية شيئا فشىء ،
كما هو مطلوبنا »

واختار غوردون القاتم شاليه لونج ، وهو ضابط أمريكى من البعثة الأمريكية ^(١)
بالجيش المصرى ، ليكون أركان حربه . وقد قص هذا الضابط الأمريكى مقابلته للخديوى
فى كتابه « حياتى فى أربع قارات » قال :

« كان الخديوى اسماعيل يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة ، وكان متهيجاً
تهيجاً عصبياً عند ما دخلت عليه ... وبعد التحية قال له الخديوى : والآن اصغ إلى

(١) ذكر كرابنس فى كتابه عن اسماعيل ، أن الخديوى رأى أن يستدعى عدداً من كبار الضباط
الأمريكيين لتنظيم الجيش المصرى ، لاغتفاده بأن أمريكا ليست دولة استعمارية ، تستغل هذه الفرصة
لمصلحتها . وقد تعاقد مع ثلاث جنرالات هم لورنج وسبل وستون . وعشرين كولونيلاً أولهم شاليه
لونج . وسبعة عشر ضابطاً من رتب أخرى . ونص عقد استخدامهم على « أن يشهروا الحرب على أى
عدو للفريق الأول ، كائناً من كان ، وأن يواصلوا تلك الحرب بكل شدة » وكان مفهوماً أن هذه
الحرب ستكون بين مصر وتركيا . وهكذا أنهى اسماعيل عهد الضباط الفرنسيين ، وحدث من نفوذ
الضباط والمستخدمين الانجليز باضافة هذه المجموعة الكبيرة من كبار الضباط الأمريكيين اليهم .

وقد انتقد عرابى باشا فى مذكراته خطة هؤلاء الضباط الأمريكيين فى حملة الحبشة انتقاداً مرأً ، حتى
اتهمهم صراحة بإفساء أسرار الجيش المصرى للملك يوحنا عن طريق أحد القسس الذى كان يتردد على
القيادتين ، وذكر أن هؤلاء الضباط دخلوا طرايبشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم . ثم ربطوا فى أعناقهم
مدايل بيضاء لإشارة الى أنهم مسيحيون ، ليأمنوا على أنفسهم من الخطر . ويذكر عرابى باشا أن
الأخطاء النعمدة من هيئة القيادة الامريكية كانت سبباً فى هزيمة مكرة ، ونفى على الخديوى اعتماده عليها .
ولكن يظهر من الدور الذى لعبه الكولونيل شاليه لونج فى أعالي النيل ان هؤلاء الضباط ، أو
بعضهم كانوا مخلصين فى عملهم .

ما سأقول . لقد وقع الاختيار عليك بصفة رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة . واعلم أن القوم في لندن على وشك أن يجهزوا حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الأمريكية يسمى استانلى ، وهو فى الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور لفنجستون ، أما فى الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطانى على أوغندة . فعليك الآن أن تذهب إلى غونودوكرو ، إلا أنه يلزمك ألا تضع شيئاً من الوقت ، بل يمم فى الحال أوغندة ، واسبق هناك حملة انجلترا ، واعقد محالفة مع ملك تلك البلاد . ومصر لانتسى لك أبد الدهر هذه اليد وهذا الجليل . اذهب وليسر عقبك النجاح إنشاء الله» (١) وهكذا نجد أن السباق بين القاهرة ولندن للوصول إلى آخر المنايع قد بلغ أشده ، وحى وطيس المعركة ، حتى أن لونيغ يصف الخديوى بهذا الوصف ، وهو أنه كان عصيباً متهيجاً ...

ونجد فى أوامر الخديوى بعد هذا كتابا إلى الملك متيسا صاحب أوغندة بتاريخ ١٩ رجب سنة ١٢٩١ هـ يقول له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ، نخصكم مزيد السلام والتحية ، ونخبركم أنه عرضت لدينا مكاتباتكم التى حررتموها إلى الكولونيل غوردون مأمور خط الاستوى ، وإلى رؤوف بك قومندان العساكر ، وعلمنا الهدية التى أرسلتموها ، وحصلت عندنا المسرورية ، حيث شرح الله صدركم للإسلام ، وجعلكم من أمة سيدنا محمد خير الأنام . وواجب علينا إسعافكم فى إبعاث العلماء الذين طلبتموم لتعليم الديانة ، وبعد تاريخه يرسلوا لطرفكم ، زادكم الله توفيقا ورشادا ، وهداية وسدادا ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته »

(١) نس هذه المقابلة فى كتاب مذبذبة خط الاستواء للامير عمر طوسون باشا ص ١٢٦ الجزء الاول.

وقد أحسن « شاليه لونج » أداء المهمة التي وكلها إليه الخديوى فى أنه ما أن وصل إلى « غوندوكورو » حتى رتب مع رؤوف بك القائد العسكرى ارحلة إلى « متيسا » ملك أوغنده ، واستغرق سفره مع حارسه الباسلين ٥٩ يوما لقي فيها أهوالا من القبائل المعادية. ووصف الرسول مقابلته لمتيسا بقوله - كما ورد فى كتاب مديرية خط الاستواء :

« ومتيسا هذا رجل ناهز الخامسة والثلاثين من العمر طويل النجاد ، يلبس الملابس العربية التى يرتديها عليه العرب ، وينقلد حساما تركيا محلى بالذهب أهدها إليه سلطان زنبار. » وقد وجه شاليه لونج كلامه إلى الملك قائلا إنه قدم باذن باشا غوندوكورو ، من قبل سلطان مصر الأعظم ليسلم على ملك أفريقيه العظيم ، وليعرب عما يمكن له فى قلبه من خالص الود ، فقبول هذا الخطاب بصيحات الفرح من جميع الحاضرين قائلين : « كورنجى !! كورنجى !! » ومعنى ذلك : مرحى !! مرحى !! . وخر الحاضرون ركعا وجثيا مشتبكى الأيدى صارخين « يا نزع .. يا نزع !! » وهى تحية شكر للملك لأنه أحضر لهم أميرا بلغ نهاية العظم ، لونه أبيض !

« وإلى هنا كان المنظر يكاد يكون هزليا ، ولكن سرعان ما تبدل بمنظر آخر مروع ورهيب لدرجة لا نظير لها . ذلك أنهم أحضروا ٣٠ رجلا مكبلين بالحبال ، وفصلوا رؤوسهم من أجسامهم احتفاء بقدم الرجل الأبيض . ومع أن هذا المنظر بلغ من شناعته مبلغا يستفز القلوب الصخرية ، فان « شاليه » رأى نفسه مكرها على كبج جماع مشاعره ، وأن ليس أمامه إلا أن يتظاهر بأنه غير مبال بما رأى ، إذ أنه لو صدرت أى إشارة يلوح من خلالها الاشتمزاز ، لعرض ذاته للسخرية وأضاع نفوذه .

« وانتهى الاستقبال عند هذا الحد ، فهض شاليه لونج وهم بالانصراف ، إلا أن متيسا ألح عليه طالبا منه أن يريه نساءه المئة ، فصحبه إلى داخل القصر (وهو من أعواد النبات وفروع الشجر) ، وأحاط به أولئك النسوة ، وأخذوا فى فحص كسوته ، وزخارفها المذهبة . »

وفي اليوم التالي ، أحتفل في « القصر » بتقديم هدية الخديوى لمليسا ، وكانت مكونة من ملابس زاهية الألوان وعقود ووديل وأساور ومرآة كبيرة مذهبة وصندوق موسيقا وبندقية . وقد فرح الملك بالبندقية فرحا عظيما ، وسأله اذا كان يستطيع - من أجل خاطر جلالته - أن يقتل له « كباريجا » ملك أونورو ببندقية مماثلة !!

وختم الاحتفال بذبح عشرة رجال اكراما لحفلة الهدية. وأقام « شاليه لونج » بضعة أيام في ضيافة الملك ، ثم استأذنه في زيارة البحيرة العظيمة (فكتوريا) وبعد مسيرة ٣ ساعات أشرف من فوق راية على خليج مرشيزون ، وعلى ماء البحيرة الرائع الصافي الهادى ، الذى يشبه مرآة عظيمة من الفضة تنعكس عليها أمواج من الضوء فيتألأ ذلك الماء تحت وهج شمس الجنوب .

وظل رسول الخديوى يكتشف سواحل البحيرة ويبحر بزوارق الزنوج على صفحاتها. وقد قوبل في سياحته على البحيرة بهجمات من الأهالى ، ثم شرع في العودة من طرق مخوفة بأعظم الأخطار . ولما بلغ غوندوكورو قابله « غوردون » أعظم استقبال ، وبعد أن سمع تقريره عن رحلته قال له « لقد عملت فوق ماعمله أى إنسان آخر في هذا البلد »^(١) وقد بذل غوردون مجهودات هامة لفتح الطريق إلى أوغنده وأنشأ المحطات على طول الطريق ، وكشف جانبيه ، ومنها منطقة مكراكا ، التى تسكنها القبائل المعروفة باسم « نيام نيام » وهى أكثر القبائل وداعة وسكوناً ، إلا أن مزاجها يتجه إلى استطابة أكل اللحم البشرى ، وكثيراً ما كانت توضع الحراسة الشديدة على تجارهم حين يقدون إلى القرى ويأمر الأطفال والصغار بعدم الخروج ، ومع هذا كانت تفتش القوافل العائدة ، فيوجد مع كل عائد ذراع ، أو ساق بشرية مخبأة في متاعه لاستطعامها إذا خلا الطريق من الرقباء !!

(١) التفاصيل الكاملة لهذه الرحلة الشائقة موجودة بكتاب شاليه لونج عن رحلاته في القارات الأربع ، وفي كتاب الأمير عمر « مديرية خط الاستواء » ويحسن أن يرجع إليها القارىء لأهميتها .

وفي النصف الأول من عام ١٨٧٥ أوفد غوردون بعثة جديدة إلى ملك أوغندا برئاسة المسو ارست دى بلقون ، وكانت الرحلة في هذه المرة أسهل ، لزيادة أمن الطريق الذى بثه وجود المحطات المصرية في أما كن كثيرة . وعند وصول البعثة المصرية دهشت إذ وجدت أوريبا عند الملك الزنجى ، ظهر أنه الرحالة ستانلى الذى كان الخديوى يخشى وصوله إلى هذه المناطق .

وقد أدى المسو ارست مهمته ، إلا أنه اختلف مع ملك أوغنده لأن متيسا أراد إبقاءه في خدمته فرفض .

وفي العام التالى — سنة ١٨٧٦ — قام الجنرال غوردون بنفسه إلى خط الاستواء ، وتمكن من أن يحقق الصلة بين بحيرة فيكتوريا ، وبحيرة البرت ، وطريق اتصالها بالنيل . وكانت سياحته على أعظم جانب من الأهمية ، إذ رسم الكثير من الخرائط لمنابع النيل وفي هذا الوقت طلب الملك « متيسا » أن تقيم في عاصمته — واسمها روباجا — حامية مصرية ، فبنى المصريون هناك ثكنة مؤقتة ، وأقام فيها ١٦٠ جندياً تحت قيادة نور محمد افندى عززوا فيها بعد ب ٦٠ جندياً .

وهنا نرى غوردون يقيم في مرولى ، وبدلاً من أن يعزز حامية أوغنده تعزيزاً جدياً ويعمل على إلحاقها بالنتاج المصرى ، نراه يصدر الأمر بسحب الحامية ، ويقترح على متيسا أن يستقل ، وأن يوفد سفراءه إلى الخديوى !!

وظهر أن نشاط لندن بلغ أشده في هذه المنطقة ، فبعد زيارة ستانلى ، نقرأ لغوردون رسالة بعث بها إلى ارسالية دينية وصلت إلى أوغندا يقول لها فيها :

« إن المصريين أخذوا يديرون للانجليز أكتافهم ويولونهم اعراضهم ، وانه أضحى من المحقق أنهم لن يصبروا طويلاً على ما يرسم لهم من الخطط ، إذ أن كل حادث صغير تحدث يذكر في نفوسهم نار الكراهية للانجليز ، ويزيد في شأنهم لهم . فداخلة الانجليز في زنبار والحبشة ، وارسالهم الآن أيضاً هذه البعثة التى يتجلى في كيفية تأليفها أنها بعثة لا دينية أكثر منها دينية ، كل ذلك مما يزيد في جفاء المصريين لهم . »

ويظهر أنه فهم من مهمة البعثة أنها ستعرض ميتسا على قطع علاقته بمصر، فقال: « وانه مهما كانت جنود ميتسا منظمة ، ومزودة بالسلاح (أى سلاح !!) فان جنود مصر لا تلبث أن تنتصر عليهم ، وتلحق بصفوفهم الهزيمة »

وهكذا أخذ تيار الحوادث يضطرب . فبعد أن كاد المسجد الذى أمر الخديوى بينيانه فى عاصمة أوغنده يتم ، أوقف العمل فيه . وبعد أن كان العالم الدينى يقوم بمهمته ، سحب بحجة أنه ارتد عن الاسلام وتنصر !!

وبعد أن أقام غوردون فى مأموريته هذه بحكمдарية خط الاستواء عامين وشهرين عاد إلى القاهرة حيث قدم استقالته فى ديسمبر سنة ١٨٧٦ .

وقد نشرت الوقائع المصرية فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٩٣ (٨ أكتوبر سنة ١٨٧٦) الكلمة التالية :

سبق فى الصحيفة أن حضرة سعادتلو غوردون باشا مأمور جهات خط الاستواء مهم غاية الاهتمام فى استكشاف بعض جهات بركة نيانزا . والآن بلغنا أنه عين أكثر أعمال من سواحلها ، وعين نقطاً متعددة بالجهات اللازمة لتأمين التجار والسياحين . وحيث أن صفة استكشاف أحوالها الجغرافية حرية بالاطلاع عليها ، ناسب المبادرة بذكر بعض ما يتعلق بها فنقول : ان (نيانزا) هى فى اصطلاح الزنوج المتوطنين بجهات خط الاستواء اسم للغدير الكبير الذى هو منبع النيل المبارك ، وموقعها الجغرافى محاذ لخط الاستواء ، مساحتها عبارة عن ٣٠٠ ميل كأنها بحر (مساحة البحيرة الحقيقية ٦٩٠٠٠ ك.م . مربعاً) ، وهى أوسع برك المياه العذبة فى الكرة الأرضية ، وفيها جزائر متعددة معمورة ، وسكانها من الزنوج . كما أن سكان سواحلها كذلك . وأهلها يحضرون قطع الخشب العظيمة ، ويتخذونها سفناً يسافرون فيها من جزيرة إلى أخرى للتجارة ومعاوضة أحد

الأصناف ببعضها ، وجلبها فيها . ثم قالت الجريدة : ولما كان النيل المبارك بمثابة الروح للأقطار المصرية ، طالما رغب كثيرون من الملوك والحكام الماضين في استكشاف منبعه ، ولكن لعدم تعلق البلاد السودانية بالحكومة المصرية قبل الآن ، ونفور أهلها وتوحشهم لا يتسر للأجانب المرور داخل ممالكهم ، والحصول على ما ذكر . وبدخول كثير من الممالك السودانية في حوزة الحكومة السنية المصرية ، ووقوع الألفة بين الأهالي في الجملة ، وإرادة استكشاف ذلك النيل ، تعين الرحوم (سليم قبودان) بهذه المأمورية المهمة ، وتوجه إلى الخرطوم ومنها إلى خط الاستواء المذكور بخمس درجات ، فوجد مياه النيل في هذا المحل نازلة من صخرات مرتفعة وجبال شاهقة ، فلم يتمكن من المرور بتلك السفن هناك ، فأكتفى بما استكشفه في هذا المحل ، ورجع لتجهيز فرقة استكشافية تسافر برا من « قوندوقرو » إلى المنبع . فهو أول من استكشف وعين ٧٠٠ ميل في سياحة البحر من الخرطوم إلى « قوندوقرو » ثم اقتدت به تجار الخرطوم في الذهاب والاياب بالسفن إلى تلك الجهات والاختلاط بالقبائل المتوطنة في السواحل ، والتعامل معهم . وبهذا زال نقارهم ، وانقادوا للحكومة السنية .



وهكذا مرت هذه الصور السريعة عن الزحف المصرى إلى منابع النيل ، وعن وصول جند القاهرة ، إلى جنوب خط الاستواء يرفعون الراية المصرية هناك ، ويعملون على « عمارة » البلاد كما قالوا ، وإدخالها ضمن نطاق حكومة منظمة متحضرة .

وقد قيل ان أهم أسباب عزل اسماعيل من عرش مصر ديونه التى أنفقها على القتال ولكن يمكن أن يقال الآن ، ان السبب الأول : والسبب الأهم هو هذه الدفعة القوية التى ركز فيها اسماعيل سلطانه على منابع النيل ، ومحاولة تأمين هذه المنابع بحملته الحبشية وبعثاته الأخرى فى شرق أفريقيا حتى يوجد لمصر منفذاً على المحيط الهندى .

فاذا كان هذا هو برنامج مصر في وسط أفريقيه وشرقها ، فان الثمن الذى دفع ديونا باهظة مرهقة ، وتاجاً كان من أعز تيجان مصر عليها — على الرغم من التشويه المقصود الذى أهالته أوربا على صفحة اسماعيل فى التاريخ ، لكى لا يتنبه أبناء مصر إلى حقيقة أغراضه ومراميه ، ويتعدهم الزمن عن الجو الذى عاش فيه ، وأراد لمواطنيه أن يتابعوه فيه .

ما الذى حدث إذن .. ما الذى حدث حتى توفد القاهرة إلى الخرطوم ، مندوباً من قبلها ، يقول باللسان الصريح والفصيح أنه أقبل لفصل السودان عن مصر ، وأنه يهدى تحيات صاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا إلى شعب السودان ، وأنها ستعمل على أن تفتح لهذا الشعب طريق الحج الذى ساء جلالتها أن أهل السودان لا يتمكنون فى ظرف الحرب الأهلية من تأدية فريضته !!



عرض ورد

عرض غوردون على المهدي أن يكون سلطان الغرب ، وأمل أن تكون صلته بعظمة السلطان الجديد حسنة .

وعرض غوردون على عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية القوية التي تقيم عند سنار بين نهر عطبرة والنيل الأزرق ، أن يكون مديراً للخرطوم ، وأنعم عليه بلقب باشا . .

أما المهدي فقد رد يدعو غوردون إلى الاسلام وأما عوض الكريم ، فقد اعتذر عن تولي هذا المنصب الكبير عندما علم أن الحكماء الجديدين أقبل من غير جند تدعم حكمه . ورسالة المهدي هامة حافلة ، تقتطف منها أهم فقراتها :

● الحمد لله الوألى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى عزيز بريطانيا ، والخديويه غوردون باشا

قد وصلنا جوابك ، وفهمنا مافيه ، وإنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين ، وفتح الطرق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ، وحل المسيحية ، من النصارى والمسلمانيين . وأن تجعلنى سلطاناً على كوردفان . فاقول والامر لله :

● إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم ، وما يقربهم من ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ، وليعملوا ما يصلحهم في آخرتهم . وقد كتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بجزيرة « أبا » بدعائه إلى الحق ، وبأن مهديتى من الله ورسوله . ولست فى ذلك بمتحيل ، ولا مرید ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً ، وإنما أنا عبد أحب

المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتعزير السلاطين . ونبوه عن الحق المبين ، لما
جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين . وهذا هو الذى صدم عن صلاحهم ، وأخذ
نصيهم من ربهم ، فآخذوا القانى ، وتركوا الباقي ، واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ،
ولم يسمعو قول الله ، ولا رسوله ، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغنى عنهم ذلك شيئاً ،
وندموا على قدر الذى تمتعوا به فايدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلائلهم إلى الله تعالى .
● .. وكيف من يكون على خلاف طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، يفتح باب
زيارة قبره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب ، كما ورد أن
الدنيا جيفة ، وطلابها كلاب . ولم يكن يرغب من عبد غير الله ، ونسى الله ، وأعرض
عن كلامه ، وطلب متاع الحياة الفانية ، فإن كنت شقيقاً على المسلمين ، فبالأولى اشفق
على نفسك ، وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● .. اعلم أن حزب الله واصل اليك ، ومزيل لك عما شاركت به خالقك ، فادعيت
ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين . وأما المسلمانيون
والمسيحيون الذين دعوت إلى إطلاقهم اليك ، فانا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله
وفى دار الأبد كما أريد لك ولكافة عباد الله ، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم ، فإن
الله قد أيدنى رحمة للعباد ، لا تقذهم من الهلاك الذى هم واقعون فيه ، لولا رحمة الله
بظهورى فيهم .

● .. ثم ان مثل هديتك عندنا كثير ، ولكن أعرضنا عنه طلباً لما عند الله ، وأقول
فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبقيس وقومها « أتمدون بمال ، فما آتاني الله خير مما
آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم
منها أذلة وهم صاغرون »

● واعلم أنك إذا آتيتنا مسلماً نريك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويروى به

طمعك في الدنيا وما فيها . ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاًحاً للمسلمين ، وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد مدير (دارا) سابقاً ، فانه لما أتانا ورأى الحق وفرح بلاقئنا غاية الفرح ، وندم على ما فات مما ضيعه من عمره في الفاني واطمأن قلبه بالله ، واختار الآخرة ووثق بالله ، وليناه على دارفور .

وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم ، فأكرمناه ، وإلى الآن نريد كمال تريته ، وهو الآن في خير كثير .

وكذلك السيد جمعه الذي كان مديراً للأفاشر الآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتي به الينا لكمال الترية والارشاد .. الخ

● ...وليكن معلوماً عندك يا حضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدي قد أنذرتهم أولاً انذاراً بليغاً ، وها هو واصل اليك انذار ولد الشلال بعد مخاطبته لي ، وانذار « هكس » بأجوبة عديدة للعامة ، وجواب مخصوص له ولأكابري جيشه . وقد أرسلنا إلى باشا الأبيض بجواب ، فقتل رسلنا ، وبعد أن وقع في يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ، ولا زلنا نكرمه ، ونعظمه ليقنتدى بنا ، ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كأنفس ، فلم يصدق ، ولا يزال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه ، حتى أخذته نيته فمات ^(١) . ومع ذلك لأجل مبايعته ومجالسته معي أياماً قد أتانا خبر بعد موته أنه عني عنه في الآخرة فصار من السعداء .

● وبعد أن كرر المهدي دعوة غوردون إلى الاسلام ، أضاف حاشية فيها بيان هدية منه « وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقيه وحزام ومسبحة » وكان تاريخ هذه الرسالة جواد أول سنة ١٣٠١ ، وقد قدم بهار رسولان من قبل المهدي يحملان الكتاب والخرق ، فلما قرأ غوردون ما ورد بالرسالة هاج وغضب ، ورفض الهدية بقدمه . وكتب إلى المهدي يقول له :

(١) هو محمد سعيد باشا مدير كردفان . وأما الشلالى ، فهو يوسف باشا الشلالى .

« إننى أدعوك إلى السلم ، وأنت تدعونى إلى الحرب وأدعوك إلى حتن الدماء ، وأنت لا تميل إلا إلى سفكها . فأقول لك الآن ، لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك ، ومهما يكن عندك من الاتباع فلا بد أن ترضخ صاغراً أو تهلك حيال قوى الحكومة الخديوية والدولة الانجليزية »



هل أراد غوردون الحرب فعلاً . وإعادة الحكومة النظامية الشرعية إلى سلطتها ، أم كانت له مهمة أراد أن يتوسل لها بمهادنة المهدي .

ولم يترك الفصل الذى عقده فوزى باشا^(١) عن « مأمورية غوردون الحقيقية » شكاً فيما قصد . ولم تكن خطبته الأولى عند وصوله مناورة ، ولا خدعة أريد بها غير ظاهرها .

فقد ورد فى مذكرات غوردون :

« أرى أن حكومة جلالة الملكة قد عقدت النية على ألا تأخذ على عهدها المهمة الكثيرة الصعوبة التى غايتها وضع حكومة منتظمة لأمم السودان ، وأنها بدلا من ذلك قد صممت على أن ترد إلى هذه الأمم حريتها ، وألا تسمح للحكومة المصرية بالتدخل فى شؤون تلك الأمم . »

لماذا صممت حكومة لندن على أن تسلك هذا السبيل ، وأيد كبار رجالها هذه الخطة بتصريححاتهم وأقوالهم ؟ فقد ذكر جلادستون : « إن مهمة غوردون هى اخلاء السودان ، وانقاذ موظفى الحكومة »

هل أرادت أن تشل يد الحكومة المصرية لكي تكون لها هى اليد الأولى ؟ هل هذا هو السبب فى الحملة العنيفة المنكرة على الادارة المصرية للسودان ، وهى حملة ظالمة

(١) السودان بين غوردون وكوشنر « ص ٢٩٥ » وما بعدها .

ينقضها تماما جميع الرسائل والوثائق التي بينت اتجاهات مصر بالنسبة للسودان ، وكلها اتجاهات توحيد وخير شامل ورحمة ورفق بالمدركين وغير المدركين من سكان حوض النيل ؟ هل أرادت الحكومة الانجليزية أن تحول دون أن يحس هؤلاء السكان بالمعنى الحقيقي لكلمة « وطن » التي طالما ترددت وتكررت في أقوال وكتابات وأعمال حكام مصر وخديويها ؟

على كل حال ، كانت مصر نفسها تمتحن بمحنة الغزو الأجنبي في هذه الأيام ، فكل ما كان يدبر للسودان كان في حيز الامكان ، وقد بدأ هذا التدبير بإيفاد ستانلى إلى منطقة أوغندا وملوكها في بعثة سياسية ، ثم إيفاد بعثة من المبشرين الانجليز تتابع العمل في هذه الأرجاء ، رغبة منها في تطويق النيل من الجنوب ^(١) .

ظهر لغوردون أن من المستحيل عليه أن يتفق مع المهدي ، أو يهادنه إلى حين . وتبين له في وضوح أن المصريين في الخرطوم وفي غيرها من المدائن التي لم تقع بعد في أيدي المهدي ، أصبحوا قاب قوسين من خطر الإبادة ، وستقع مسؤولية هذه الأرواح الكثيرة في عنقه فقرر أن يشرح الحال بوضوح للقاهرة — للسربارنج (اللورد كرومر فيما بعد) وللحكومة المصرية ، وأن يطلب نجدة تبقى طريق بربر مفتوحاً . وهي نجدة صغيرة ، يكفي وصول أول فوج منها لكي يتضخم أمرها ويصل إلى كل مكان انها حملة كبرى .

بعث غوردون إحدى عشرة رسالة برقية إلى السربارنج يوضح هذا الطلب ، ويحدده ويقول : إنه لن يستطيع بعد اليوم أن يرأس القاهرة لأن الخط التلغرافي سيقطع ، ولأن الخرطوم نفسها ستهاجم قريباً .

(١) كان النيل قد طوق من الشمال باحتلال انجلترا لجزيرة قبرس ، وكانت ملكاً لتركيا ، وذلك قبل المشروع في « الاهتمام » بجنوب النيل بيطع سنين .

ورد بارتج — أو كرومر — يقول غوردون أنه لم يفهم رسائله ، وأن على أسير
الخرطوم أن يفكر طويلاً فيما يطالب قبل أن يطلبه . . ومن رسائل غوردون في أول
مارس سنة ١٨٨٤

« لم أزل أعتقد كمال الاعتقاد أن اخلاء السودان ممكن لكن أقول لك أنه من
المستحيل اجلاء المستخدمين المصريين عن الخرطوم إذا لم تساعدني الحكومة بالطريق
الذي أوضحه لها »

فأجابه السربارتج :

« لقد وصلتني الاحدى عشرة رسالة التلغرافية المرسلة إلى في الأربعة أيام الأخيرة ،
بخصوص مسائل السياسة العامة ، وإني شديد الرغبة في مساعدتك بكل طريقة لكنى
لم أتمكن من معرفة ما ترغبه الآن ، وأرى أن أحسن طريقة هي أن تلخص المسألة
جيداً ، وتخبرنى تلغرافياً بما تستصوبه »

فأجاب غوردون يلخص مطالبه في ٩ كلمات هي :

« يجب على الحكومة مساعدتى ، ولا بد من إجابة مطالبي »

كيف تصرف قنصل إنجلترا في هذا الاستصراخ ؟ . . كتب إلى اللورد جرانفيل
يقول : « إن الجنرال غوردون والسر ستيوارت يلحان في وجوب فتح الطريق بين
سواكن وبربر لنجاح مأموريتهم الحاضرة . أما أنا فلا يمكننى تأييد ما جاء بتلغراف
ستيوارت من ارسال فرقة من الخيالة الانجليزية أو الهندية إلى سواكن »

وكتب القنصل في رسالة ثانية لجرانفيل :

« أتشرف بأن أخبر سعادتكم أن الجنرال غوردون كتب إلى تلغرافياً بأننا لو
أرسلنا ١٠٠ (مئة) جندي إلى أصوان وحلفا يأمن من كل خطر ، ويكون في حالة
اطمئنان كالسواح المسافرين في النيل وينتج منها تحويل صغير ، أما أنا فلا أريد مطلقاً
أن أخطر بحياة فرقة صغيرة مؤلفة من مئة جندي فقط »

وعلق فوزى باشا على هذه الرسائل بقوله :

« كان قصد غوردون بكل مخبراته مع السير بارنج أن يكون التاريخ حكماً بينه وبين إنجلترا ، ولذا بعث بتلغرافات قبل وصوله إلى الخرطوم فخواها أن الاضطرابات أقل مما كان يظن ، وأنه يرى أن لا مندوحة له من تمحيص حكومة جلالة الملكة النصيح بتسكين الاضطراب في السودان الشرقى ، وتقوية خطوط الاتصال بين بربر وشواطئ البحر الأحمر من جهة ، وبين حدود مصر من جهة أخرى . وحاول أن يقنع السير بارنج بأن السودان مفتقر كل الافتقار إلى اشراف الحكومة الخديوية عليه بحقوق السيادة ، وسأله ابدال فرمان الذى كان يحمله بأخري يحتم على السودان وجوب الخضوع لمصر ، فذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح ، وأصر السير بارنج على إنفاذ الخطة التى توخاها أولاً » والحقيقة ان موقف غوردون كان غامضاً كل الغموض ، فقد سار أول الأمر فى ركاب النهضة المصرية ، ونفذ رغبات الخديوى اسماعيل بأمانة . إلا أنه اضطرب عند ما تبين سياسة بلاده حيال أعالي النيل ، فانسحب من مهمته ، وعاد إلى القاهرة ، لكي يظفر بتقدير الخديوى ، حتى أنه اختاره ليرأس لجنة التحقيق الدولية فى مالية مصر . وهنا بدأ دور اصطدام شديد بينه وبين قنصل إنجلترا السير بارنج .

ووصف غوردون صورة من هذا الصراع بقوله :

« كنت فى الدور الأرضى فى احدى غرف القصر العديدة التى أولانها سمو الخديوى فوجدت بارنج . وبارنج فى المدفعية الملكية أما أنا فى فرقة المهندسين المالكين . وقد كان بارنج فى مهده لما كنت مشتركاً فى حرب القرم . ولاحظت لى على وجهه مظاهر الادعاء والفخامة . فتكلمنا قليلاً وقلت له : « إني سأفعل ما يطلبه منى الخديوى » فأجاب : « ليس هذا فى مصلحة الدائنين » . وبعد هنيهة افترقنا . وإذا كان الزيت يمتزج بالماء فأننى استطعت الاتفاق مع بارنج !! »

ترى هل كان هذا النفور الشخصى بين الرجلين هو سبب نكبة مصر فى السودان ، واصرار كرومر على التضحية بغوردون ، أم أن السياسة الاستعمارية العامة كانت تقتضى

هذه التضحية .. الحق أنى أمل إلى وضع العاملين معاً في الميزان . وإلا فبماذا نفسر
أصرار كرومر على أنه لم يفهم ماورد في إحدى عشرة برقية ، في حين أنها كلها كانت
مفهومة واضحة وهي ترتيب مظاهرة عسكرية تبقى خط الارتداد مفتوحاً أمام غوردون
لكي يتراجع أمام المهدي وينقذ عشرات الألوف من المصريين .

ومن الواجب أن نفتش عن مركز الخديوى توفيق في هذه الأزمة، فقد كان حديث
عهد بالثورة العرابية ، وكان منهك القوى مما حدث فيها ، وما حدث منها ، وما حدث
بعدها . ولكنه مع هذا عبر عن آرائه بوضوح في حديث نشر في الصحف قال فيه :
« لم يكن في استطاعتي أن أبدي دليلاً على حسن مقاصدى بأحسن من تعيين
غوردون باشا حكمداراً عاماً للسودان ، ومنحه كل السلطة في عمل ما يراه ضرورياً
لإصابة الغرض الذى ترمى إليه حكومتى ، وحكومة جلالة الملكة ، حتى أنى قابله نفس
السلطة المخولة لى ، و تركت له الحكم على الحالة الزاهنة ، ولا ريب في أن ما يستطيع اتيانه
من الأعمال أحسن ما يكون . وقد قبلت سلفاً ما يمكن أن يقترحه من الوسائل ،
وما يراه حسناً من التصرفات يكون الزامياً بالنسبة الينائم انى بعد أن جعلت عظيم ثقتي
بهذه الكيفية في هذا الباشا لم أشرط عليه إلا شرطاً واحداً ، وهو أن يبذل عنايته فيما
فيه طمأنينة العناصر المتمدنة من أوريين ومصريين . »

ثم قال : « إن قلبى يذوب عند ما أفكر في الألوف المؤلفة من رعاياي الخالصين
الذين تكفى غلطة منه لهلاكهم . وانى لا أشك في أنه سيبذل كل ما في وسعه لحقن دماء
أكثرهم على الأقل . فان نجح بعون الله في اخلاء الخرطوم وأهم موانى السودان الشرقى فله
الشكر مدى الدهر على نجاة رعيتى التى ترتعد فرائصها من توقع ما يخشى حصوله بعد حين »
وذكر الخديوى أن على غوردون أن يعتمد على معونته ومعونة حكومته بقدر
ما تصل اليه يد الامكان .. ولكن هل كان في امكانه شىء والسياسة كلها تدبر في لندن
لا في القاهرة !!

مدينة تزرع

أخذ الوقت الثمين يضيع في استنجد غوردون وفي صمت لندن والقاهرة ، حتى قطع طريق بربر بعد ثلاثة أشهر من قدومه ، وأخذت حلقة حصار المهدي تضيق على عاصمة النيل الثانية ، وبدأ أهلها يحسون بوطأة الحالة احساساً قويا .

وكان أول قتال جدى فى سبيل استيلاء المهدي على الخرطوم فى رجب سنة ١٣٠١ إذ أمر المهدي قائده « أبا قرجه » بالتقدم إلى الخرطوم من جهة الجريف، وهى قرية على النيل الأزرق تبعد عن العاصمة أربعة أميال ، ولما تكامل الجمع وانضمت اليه جموع من الضواحي المجاورة زحف على استحكامات الخرطوم ، وظلت الحامية صامدة لا تجيب على نيرانه حتى صارت على بعد ١٢٠٠ متر من سور المدينة ، حيث يوجد حقل ضخم من الألغام ، أخذ يتفجر فيهم ، ثم تناوت بنادق ومدافع الحصون المهاجمين فخسروا أربعة آلاف قتيل عدا الجرحى ..

ولما علم المهدي بما حدث، قرر أن يوفد قائداً من أقدر قواده هو عبدالرحمن النجومى ومعه ستون ألف مقاتل ، وأضاف اليه عبدالله بن النور مع عشرين الفا ، وزوده بمدفع كروب ، وست مدافع جبلية ، كما أصدر المهدي إذنا عاما لكل من يرغب فى مرافقة النجومى من قبائل السودان الأوسط ، بأن يسير معه . وكان عدة الخيالة فى هذا الجيش عشرة آلاف ، وحملة البنادق عشرة آلاف ، والباقون من حملة الحراب . وفى آخر ذى الحجة من هذا العام ١٣٠١ ، وصل النجومى إلى قرية الجريف، وتولى القيادة العامة.

وكتب القائد الجديد إلى غوردون يعرض عليه أن يستسلم ، فرد عليه باشا الخرطوم

مستهزنا . وكان يعلم أن جيش الدراويش يعاني أزمة في تموينه بالأغذية بسبب فرار أهل القرى ، وقلة الحاصلات ، فارسل غوردون إلى النجومي — على سبيل الاستهزاء — أو الحرب المعنوية ٥٠٠ أقه من البقساط، لكي يريهم أن زاده أوفر، وأنه لا يعبأ بمحصرهم. هل كان غوردون في يسر حقيقى ، وقد توفر له من الزاد ما يكفي أهل هذه المدينة الكبيرة وحاميتها ؟ الحقيقة أن غوردون كان فى أزمة ماحقة ، فقد ظهر أن كمية الميرة المثبتة فى الدفاتر لم تكن صحيحة بسبب خيانة الموظفين ، وانهازهم فرصة الاضطراب للاثراء . كما أن متعهدى توريد الغلال كانوا يأخذون أثمانها ويفرون إلى المهدي أو إلى جهات أخرى ..

وقد أدت هذه الحال إلى تفشى المجاعة فى المدينة ، ووصفها فوزى باشا كما يلي : « كانت المجاعة مريعة جداً ، حتى أن كثيراً من السكان تورمت أطرافهم وصار قوت الحامية من الصنع مخلوطاً مع جمار النخل ، وقد شوهد أن الذين يقتاتون بهذه الأصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان الأصفر ، ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام تعقبها أعراض الموت .

«ومن غرائب ما رأيناه فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الأسماك ، ولما بدأ الحصار انقطع ورود الأسماك كأنها فرت من قعقة البنادق وهزيم المدافع ، حتى أن غوردون انتهى ممكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم باربعة أشهر فلم يتيسر الحصول عليها .

«وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم، فإن أراضى بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة ، وفى ابان الحصار تلف كل مزرعتها، ولم ينبت فيها شئ من البقول ، وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها !!

« وقد قاسى غوردون من ألم المجاعة ما قاساه أصفر جندى من الحامية ، أو أحقر شخص من سكان المدينة، فانه اضطر إلى التغذى بجمار النخل حتى أصيب بتلبك معدى

كاد يودى بحياته . وفي ذات يوم جاءني الطبيب « اكسيوداكي » اليوناني طبيب الحامية ، وأخبرني بأن مداومة غوردون على تناول الجمار لا تحمد مغبتها ، وأن صحته الآن على خطر كبير ، ولا بد من تدارك غذاء جيد له، فكنت آتخذ له بعد كل يومين أو ثلاثة في دجاجة أو زوج من الحمام الطاعن في السن .

«ودخلت عليه مرة ، وقد قدموا له شيئاً من المرق ، وكان لم يطعم شيئاً من ٢٤ ساعة فلم يتناول من المرق إلا قليلاً . فألححت عليه في تناول كمية تقوم بتغذيته، فامتنع وقال لي: إنني لا يهنا لي بال ، ولا تميل نفسي إلى طعام ما دام جنودى يموتون جوعاً . وإنني فعلت الواجب على والله يفعل ما يشاء .

وكانت أسعار القوت في المدينة حتى سقوطها كما يأتي :
«ثلاثين ريالاً ثمن الكيلة من الغلة . وعشرة يالات ثمن الأفة من البقسماط ، وخمسة يالات ثمن الأفة من اللحم البقرى . وكان بعض السكان يذبحون الحمر الأهلية وتعاقب الحكومة من يرتكب ذلك ...

...

في يوم العيد (آخر رمضان سنة ١٣٠١) ، أعلن المهدي أن النبي ﷺ أمره بالتقدم إلى الخرطوم ، وبشره بفتحها ، وفي اليوم التالي بدأ زحفه الشهير ومن حوله جمع هائل من الجنود والأنصار يزيد عددهم على نصف مليون ، ولما وصل إلى مسيرة ثمانى مراحل من الخرطوم أقام معسكرأهناك .

وفي محرم من العام التالى (١٣٠٢) ركز المهدي هجومه على أم درمان ، ولكن مدفعية المدينة ردت به بخسائر متوسطة . وكان يتولى قيادة الحامية فرج باشا ، وهو ضابط سودانى كان برتبة اليوزباشى ، وظل غوردون يرقيه حتى منحه رتبة اللواء .

ارتد المهدي ، ولكنه شدد الحصار على أم درمان ، فلما كاد ربيع الأول ينتهى

كان القوت قد نفذ تماماً من الحامية ، ولم يكن لدى غوردون فى الخرطوم أى وسيلة لامتدادها بتموينها، لأن الخرطوم نفسها كانت فى مجاعة كما ذكرنا . وبعد تبادل الرسائل بالاشارات ، مع فرج باشا ، حاول محاولة فاشلة فى اجلاء الحامية بالبواخر ، ثم أوعز لها أن تسلم للمهدى . فطلب فرج باشا كتاب الأمان . وفى آخر هذا الشهر (يوافق يناير ١٨٨٥) دنا المهدي بشخصه من خندق المدينة ، فتقدم الضباط نحوه ، وترجل المهدي عن فرسه وجلس مع الضباط على الأرض ، وقدم لهم شراباً من العسل ، وأمر بأن يصبح فرج باشا^(١) من أحد قواده . وبعد سقوط ام درمان ركز المهدي كل جهوده للظفر بالخرطوم . ومنذ وصول المهدي إلى ضواحي الخرطوم ، وهو يتبادل الرسائل مع غوردون يعرض عليه شتى العروض لتسليم المدينة ، ومنها :

١ — ان يسلم غوردون المدينة ويسمح له المهدي بالعودة ، هو ومن معه من المصريين إلى مصر ، بشرط ألا يحملوا معهم إلا أخف المتاع ، على أن يؤدوا أجر الجال التي تنقلهم إلى الحدود .

٢ — أن يرحل غوردون بدون قيد أو شرط ، ويترك المدينة للمهدي . وكان غوردون يرد قائلاً : انه إذا وقع أسيراً فان حكومته تقديه بعشرين ألف جنيه^(٢) . . وظل يطاول المهدي ، وكان يقصد من استمرار المكاتبات أن يقف من رسائله على أبناء النجدة التي كانت تشق طريقها في النيل لانتقاذه من الخرطوم ، أو رد الحصار عنها . وكانت هذه الحملة قد سيرت في بعض سفن ، ولكنها كانت عاجزة تماماً عن أن تتصل بالخرطوم أو بمن فيها . ولما وصلت طلائعها كانت الخرطوم تحترق وقد ذبح معظم من فيها .

(١) أخلص فرج باشا في خدمته للحكومة المصرية حتى يوم التسليم ، ولما أسره المهدي ، أخلص له بدوره ، وهو القائد الذي هاجم حدود الحبشة في عهد الخليفة عبد الله النعاشي ، وقتل النعاشي يوحنا ملك الحبشة ، وهزم جنده .

(٢) ورد في رسائل المهدي ردا على فدية العشرين ألب جنيه : «أنت إن قبأت نصحنأ فيها ونعمت . وإلا إن أردت أن تجتمع على الانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام »

وذكر سلاطين في كتابه «السيف والندى» وكان أسيرا في جيش المهدي : « بعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا في المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجي من دارفور . وكان المهدي يمنع الناس من اظهار الحزن على المولى أو القتلى ، لأنهم في مذهبه يدخلون النعيم . ففهمت انه لا بد أن قد حدث شيء غير عادي حتى يخالف الناس أوامر المهدي . وكان الحراس المكلفون بحراستي يتطلعون لمعرفة سبب هذا العويل ، وقد تركوني لهذه الغاية . وعادوا بعد قليل يقولون إن طلائع الجيش الانجليزى التقت بالقوات المجموعة من البرابر والجمالين والدغيم وكنانة ، الذين كان يقودهم موسى واد حلوه وهزمتهم في أبو كلبة ، وقد هلك كثيرون ولم ينج إلا عدد قليل عادوا وأكثرهم به جراحات ، وقد فنى الدغيم وكنانة تقريبا . وقتل موسى واد حلوه ، وعدد من الأمراء (القواد) أيضا . وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزائم أخرى للدراويش . وعقد المهدي وأمراؤه مجلسا للتشاور ، فقد رأوا أن كل ما جنوه من الانتصارات السابقة قد بات في خطر ، حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار . وصار القضاء على المهدي مسألة يمكن انهاءها في بضعة أيام ، فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شيء .. بهذا أرسلت الأوامر لقواد الحصار بأن يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الأخيرة .

هذا كان حال المهاجمين حول الخرطوم . أما المدافعون عن الخرطوم فقد ذكر ابراهيم باشا فوزى عنهم ما يلي :

« كان غوردون ومعه قناصل الدول واقفين على سطح السراى ينظرون بالنظارات المعظمة إلى كثرة الدراويش الذين يجتازون النهر ويلحقون بمعسكر ابن النجومى ، وقد استنتجوا من وقوف الناس في صعيد واحد أن المهدي لا بد أن يكون في معسكر ابن النجومى ولا بد أن يكون قدومه لشأن ذى بال لأنه لم يقدم على معسكر ابن النجومى منذ حل بام درمان .

« وفي منتصف النهار استدعاني غوردون إلى السراى وأخبرني بما شاهده مع القناصل من كثرة اجتياز الدراويش للنيل ، وانضمامهم لمعسكر ابن النجومى ، ثم قال لي

هيا بنا نطوف حول الخندق ، ونتفقد الجند ، فرافقته إلى الخندق وقضينا أربع ساعات في الطواف حوله ، وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات ، ويعدهم بوصول نجدة الانجليز في الغد ، فلم يلتفت أحد لأقواله ، وكان كمن يصرخ في برية أو يطلب من الماء جذوة نار . اذأن العساكر كانوا صرعى لا حراك لهم ..

« فعدنا إلى السراى وقد أخذ اليأس منا كل مأخذ ، واجتمع عنده قناصل الدول لدى عودته ، وكان الليل قد أقبل وما تزال السماء متلبدة بغيوم حجبت نور القمر . فقال غوردون للقناصل :

— لقد رأيتم تجمع العدو . واننى بتفقدى الحامية ، وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرّون بها على حراسة الاستحكام في هذه الليلة المشؤومة . واننى موقن بسقوط المدينة قبل أن يسفر الفجر . وقد كنت عملت ما فى وسعى لإنقاذكم من هذا الخطب ، فتقاعدتم ، وأيتم ، ليتم قضاء الله عليكم . وإلى هذه اللحظة ، فاننى أدعوكم لانفاذ ما اتفقنا عليه أولا ، فهأى الباخرة ، قوموا وسيروا بها ومعكم ابراهيم فوزى كما تقرر قبلا عسى أن يقرن سميكم بالنجاح ، وتقابلوا الجنود الانجليزية ، أما أنا فاننى موقن بعدم لقاءهم . فأجابه بأن نجاة الباخرة مستحيلة لأن طوابى العدو قد تضاعفت ، وزاد عددها أضعافا على الذى رأيناه يوم الجمعة . وعلى ذلك فنحن باقون هنا ، والله يفعل ما يريد . ثم هموا بالانصراف ، فصالحهم كلهم قائلا اننى أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة أى كارثة تحل بكم . فقالوا نحن نشهد بما تقول فصالحهم وودعهم الوداع الأخير . ثم استدعى غوردون ابراهيم باشا فوزى وقال له :

— أنا موقن بوقوع الحادث الأخير على هذه المدينة في هذه الليلة . واننى كما علمت لم أدر شيئا من سعي في سبيل انقاذها . ولكنى لا أزال أشعر بتبكيك الضمير الذى يؤلمنى لتركى أهالى هذه المدينة الذين وثقوا بى ، وحاربوا معى ، عرضة لانتقام المهدي . ولو لم أكن طول حياتى أطلب رضا الله في كل أعمالى لانتحرت تخلصا من وخز الضمير .

لكن الانتحار ينفي التفويض والتوكل على الله الفاعل لكل شيء ، ويوجب غضبه سبحانه وتعالى .

ثم قال غوردون نفوزى وهو يودعه الوداع الأخير :

— عليك بحراسة المدينة بمن معك من الأوريين ، وأنا أعلم أن هذا لا يجدى نفعا . ولكن نقوم بواجبنا الى اللحظة الأخيرة ..

...

في صباح يوم الأحد ٨ ربيع الثاني خرج المهدي من كوخه يحمل على رأسه مقطفا من الخوص مملوءا بالرمل ، فتبعه الناس حتى انتهى إلى ضفة النهر ، فاحاط به الجنود ، وهو لا يكلم أحدا منهم ، وأخذ يقبض من الرمل بيده ويقذفه في النهر ويرفع صوته قائلا : « الله أكبر على الخرطوم » فيجاوبه من حوله بمثل ما قاله ، حتى فرغ مافي المقطف من الرمل ، فالتفت إلى من حوله . وقال لهم إن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالهجوم على المدينة في هذه الليلة وأن سقوطها في يده ضربة لازب . ثم ركب زورقا واجتاز النهر إلى الضفة الشرقية حيث قصد معسكر ابن النجومى كما ورد قبل .

وبعد صلاة العصر ، رتب المهدي الجيش ، وجعله تحت إمرة ابن النجومى ، وولاه قيادة الفرسان ووضعهم في القلب ، ووضع على اليمين الحاج محمد أبا قرجه ، ووضع على اليسرة محمد نوباوى

وكان قائد اليسرة هو المكلف بالاستيلاء على سراى غوردون ، وقد خاطبه المهدي قائلا :

— لدى دخولك المدينة يجب ان تقصد سراى غوردون على الفور ، وتبلغه تحيتي ، ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يعتدى عليه حتى توصله إلى سالما بغير أن يصيبه مكروه . وخطب المهدي في الجيش نفسه قائلا :

— لا يتعرض أحد منكم لحياة غوردون بسوء لأننى أريد أن أقتدى به
احمد عرابى باشا .

ثم صدرت الأوامر إلى ١٠٠ الف مقاتل كي تنضم إلى معسكر ابن النجومى ،
وكلهم من قبائل البقارة ، وقد انضموا إلى الميسرة تحت قيادة نوباوى ، وكانوا مسلحين
بالحراب والسيوف .

وفى فجر يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الثانى (١٥ يناير سنة ١٨٨٥) كان خندق الخرطوم
قد اجتيح ولما دخل محمد نوباوى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غوردون ، وكانوا زهاء
١٠٠ الف مقاتل ، وأمر غوردون حرسه بالا يتعرضوا للمهاجمين ، ثم لبس كسوة
التشريفية الصغرى ، وتقلد سيفه ، ووضع على رأسه كوفية من الحرير ، وربطه بعقال كزى
الاعراب . وكان نوباوى وبعض الدراويش أول من دخل عليه ، فوجدوه جالسا على
كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض ، فابتدره أحدهم وقال له :

— أين أموالك يا غوردون يا كافر ؟

فتبسم غوردون وقال له :

— أين محمد احمد (المهدي) ؟

فابتدره الرجل بطعنة رمح فى صدره خر منها صريعا على الأرض ، والدم يندبجس
من جرحه ولكنه لم يفقد حواسه . وصاح أحد الحاضرين :

— لا تقتله بل أبقه كما أمر المهدي : فاجاب . محمد نوباوى . .

— إن الخليفة التعايشى أمر بقتله !!

ثم سحبوا غوردون من رجليه ، وكان متنبها لما يحدث له ، حتى أنزلوه إلى ساحة
السراى ، ثم قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة محمد الشريف ، فانتدب أحد أقارب
المهدي . فركب الباخرة اسماعيلية لكي يوصل الرأس إلى سيد الخرطوم ، وسيد
السودان كله محمد المهدي .

ويكمل سلاطين بقية القصة—وكان يرسف في الأغلال في معسكر المهدي—يقول: «ظهر قرص الشمس أحمر في الأفق، فتساءلت: ماذا يأتي بنا به هذا النهار؟ وقعدت أنتظر وأنا في أشد القلق وهياج النفس. ثم سمعت أصوات الابتهاج وصيحات النصر من بعيد. وتركنا الحرس وجروا لكي يعرفوا سبب هذه الأصوات. وبعد دقائق عادوا إلينا وأخبرونا بأن الخراطوم أخذت عنوة، وصارت الآن في أيدي الدراويش. وبقي لي شك أتعلل به: هل تكون هذه الأنباء كاذبة؟

«ثم زحفت، ونهضت أنظر في المعسكر فوجدت جمعا غفيرا من الناس قد تألبوا حول مكان المهدي والخليفة (عبد الله التعايشي)، ثم رأيت هؤلاء الناس يسرون نحوي وكان أمامهم ثلاثة من الزوج يدعى أحدهم «شطة»، وكان في يده قماش مشرب بالدم قد لف على شيء، وكان وراءه جمهور من الناس يبكون. واقترب العبيد الثلاثة مني، ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الاهانة والسباب، وحل «شطة» القماش، وأخرج لي رأس غوردون. فدار رأسي، وشعرت كأن قلبي قد وقف. ولكني جمعت كل قواي وضبطت نفسي ونظرت إلى هذا المنظر المفزع وأنا صامت. وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا إلى النصف. أما الفم فكان في هيأته العادية. وكان شعر رأسه. وعارضيه قد علاهما الشيب.

قال «شطة»: أليس هذا رأس عمك الكافر؟

فأجاب سلاطين بهدوء:

— وما في ذلك. جندي شجاع وقع وهو يقاتل. إنه لسيّد إذ قد انتهت آلامه.

فقال شطة:

— ها، ها. لا تزال تمدح هذا الكافر، ولكنك ستري النتيجة.

ثم سار «شطة» إلى معسكر المهدي. ويروي فوزي باشا:

«لما وصل رأس غوردون إلى المهدي أنكر قتله. وصاح قائلا:

— لماذا قتلتموه . ألم
أنهم عن قتله ؟ فقال له
التعايشي :

— ان قتله خير من
استحيائه !

فبدت على وجه المهدي
علامات الغضب ، وأسرع
بالتقيام ودخل منزله .

ونصبت رأس غوردون
على خشبة طولها متران ،
وأخذ النساء والصبيان
يرجمونها بالحجارة ، ويهينونها
بالبصق حتى تهشمت قطعاً
صغيرة .



غوردون باشا

عندما كان غوردون يخبر القاهرة لنجدته ، أرسل مرافقه السرسيتوارت ، بقوائم
تحتوي أسماء الأسرى المصرية الموجودة في الخرطوم ، وإحصاء بعددهم . وذكر أن جملة
المطلوب ترحيلهم ٢٠٠٠٠٠ مئتي ألف نسمة هم مجموع المصريين الذين هربوا أمام عسكر
المهدي من أنحاء السودان ، وتسكدسوا في الخرطوم في انتظار العون والممدد .

وعندما سقطت الخرطوم ، سقط هذا العدد العظيم من الرجال والنساء والأطفال في
أيدي عسكر المهدي ، ودارت بينهم مذبحه فظيعة ، بلغ عدة من قتل فيها كما ذكر فوزي
باشا أربعة وعشرين ألف رجل وثلاث نساء ، ثم لم تلبث المذبحة أن وصلت إلى الأطفال



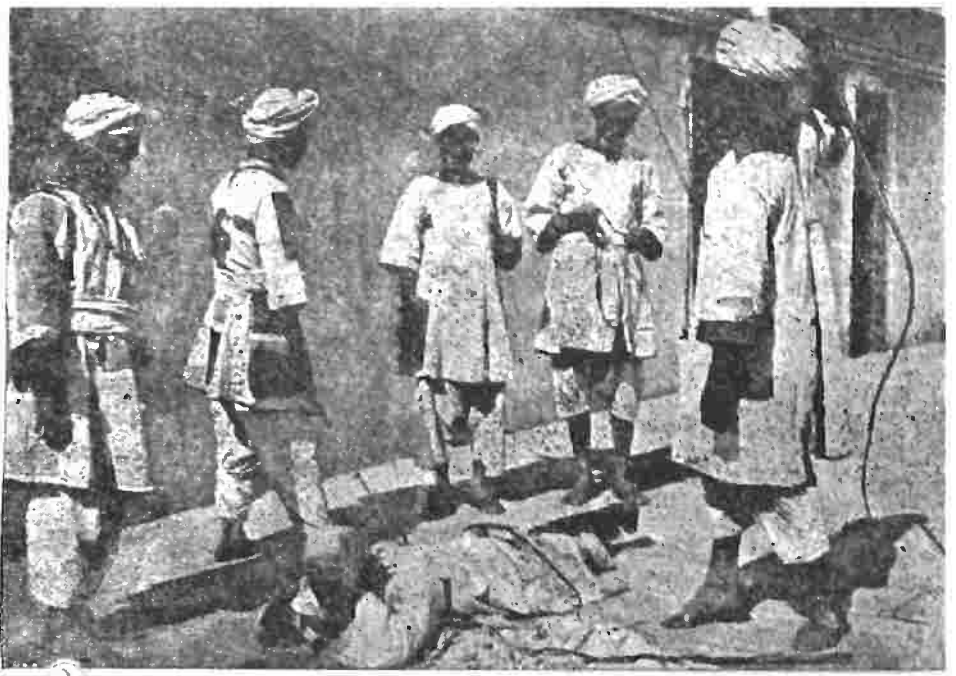
ابراهيم باشا فوزى

الذ كور حتى لو كانوا رضعا . وقد بدأت
المذبحة عند طلوع الفجر ، وقبيل شروق
الشمس أصدر الخليفة شريف الأوامر
بالكف عن القتل . وأخرج السكان من
منازلهم بملايس النوم ثم أودعوا في
مكان خارج الخندق بعد تفتيشهم . وفي
اليوم التالى كان أمين بيت المال يستدعى
كل أصحاب منزل ويقول لهم : انكم
كفرتم بالله ورسوله وحاربتم المهدي .
ولذا أهدر الله ورسوله دمكم وحرم مالكم
عليكم ، وصيره حقا للمهدي . والمهدي
عفا عن دمكم ، ولا سلامة لكم في الدنيا

والآخرة إلا بتسليم جميع أموالكم . حتى الخيط والخياط .

وقد ضرب كل رجل بقى حيا ألف سوط ، وكل امرأة نصفها . وبقي هذا التعذيب
مستمرا شهرا كاملا حتى جمعت الأموال والأمتعة في بيت المال .

وكان من بين ما جمع نحو ألف فتاة عذراء من بنات أعيان المصريين ، أخذوا
سبايا وأرسلوا إلى المهدي فاختار منهم لخرمه ثلاثين ووزع ما تبقى على حاشيته . كما
أرسل إلى التعايشى وبقية القواد جموعا من نساء المصريين السبايا . ويقدر فوزى باشا
عددهن جميعا بخمسة وثلاثين ألف فتاة وسيدة . ولم يحق لأحد من القواد أو الجند أن
يحصل على واحدة من هؤلاء الأسيرات الشقيات إلا بأمر كتابي من أمين بيت المال



يوضح فيه اسمها
واسم أسرته. ومن
احتاز امرأة من
غير اذن يعاقب
بعقوبة السارق .
وأصدر المهدي
أمرا بطلاق جميع
النساء من
أزواجهن — لأن

طريقة الجلد للحصول على المال . ويرى اثنان يتعاونان على
جلد مصري عجوز .

هذا الزواج حدث في عهد الفترة — أى ما قبل الاعتقاد بمهديته ، ثم أمر بالقيات من النساء
اللاتى لم تكن ذات جمال تسبى لأجله ، بأن يزوجن بعقود جديدة لأزواجهن أو لغير
أزواجهن حسب الظروف

وغنم المهدي من الخرطوم نحو ٣٠٠ ألف جنيه ، و ٣٠٠ ألف ريال مجيدى ونمساوى ،
ونحو ٣٠ (ثلاثين قنطارا) من الذهب المصنوع حليا ، ونحو ٤٠٠ (أربع مئة) قنطار
من الفضة .

أما أثاث المنازل والرياش والملابس ، فأنها لا تدخل تحت حصر ، وقد كومت في
هيئة تلال عظيمة الارتفاع . كما غنم المهدي عددا من المدافع والبنادق والذخيرة .
وقد هدم من الخرطوم جزء عظيم ، وما تبقى منها أصبح أشبه بالانقاض آوت إليه
فلول المصريين المضعضعة المروعة المذعورة ، وقد منعت من كل غذاء اللهم إلا رطل ذرة
يوزع على كل فرد يوميا .

وهكذا .. هكذا ذبحت الخرطوم .

الأسير

كان ابراهيم باشا فوزى أكبر مصرى فى الخرطوم أثناء محنتها ، منح هناك رتبة اللواء ، وعين حاكماً عسكرياً للمدينة ، ومشرفاً على دفاعها ، والتالى لفوردون من سكان المدينة . وصف ما حدث له عند اجتياح المدينة بقوله : ان الدراويش اوثقوا كتافه ، وأحاط به مئتي رجل شهروا سيوفهم وساروا به إلى أمين بيت المال وهم يصيحون به : يا كافر .. ياعدو الله .

ولما وقف بين يدي الأمين ، كان منزله مليئاً بالنساء السبايا ، وهو مشغول بالنظر إلى فتاة فاتنة وهى مجردة من ملابسها ، ويدها خرقه تستر بها عورتها ، وهو يقلبها يمنة ويسرة ، والدمع يجرى من عينيها ، وهى تتمتم : « رضينا بقضاء الله » ثم حانت منه التفاتة فرأى ابراهيم فوزى فصاح :

— أعوذ بالله من هذا الوجه الأبيض ^(١) . من هو هذا الكافر ؟ فقالوا :

— هو ابراهيم باشا فوزى . فقال :

— لماذا لم تقتلوه ؟.. فقالوا :

— تركناه حتى يظهر أمواله وأموال غوردون والحكومة .

ولما لم يدلمهم فوزى باشا على هذه الأموال ، صاح الأمين بالعبيد فطرحوه أرضاً ، وجلس واحد منهم على رأسه ، وأمسك اثنان بالسياط ، وضرباه حتى كلت سواعدهما ، فأبدلا باثنين آخرين ، حتى سال الدم من جسده . وبعد أن مرق جسده ، زجوه فى

« ١ » حدثني سودانى كبير ، قال ان أهل السودان يرفضون زواج الأوريات لأنهن « مسلوخات » فى نظرهم ، أى قد نزع عنهن جلدهن . كما أن نساء السودان فى الغالب لا يحتجن امام الأوربي لأنه « كافر » لا يعامل معاملة الرجال .

السجن ثلاثة أيام ، وفي كل يوم يعاودون ضربه وتعذيبه ليدلهم على مال لا يعلم مكانه .
ثم ساقوه إلى الأمير أبي قرجة ، لكي يأمر باعدامه ، فاذا بهذا الأمير يعفو عنه ،
ويلحقه بيته بعد أن اطمان إلى أنه لا يخفى مالا ، ولا يعلم عن أموال الحكومة شيئا .
وحمل بعد هذا إلى المهدي ، ومعه السيد بك جمعه مدير الفاشر ، فلما فرغ من صلاة
الظهر ، ووعظ الناس ، قيل للمهدي :

— ها هو ابراهيم فوزي

فهش في وجهه وقال :

— يا ابراهيم فوزي إنتي أعرفك منذ كنت حاكما في مقاطعات البحر الأبيض ،
فلماذا ركنت إلى الكفار ، ولم تسلم لي . أولم يكن الواجب لي مثلك اجابة دعوتي فأجاب :
— يا سيدي إنتي من كبار قواد الحكومة ، ولا يليق بي أن أتركها في أوقات
الشدة ، وسويات الأزمة . وكأنتي وفيت لها ، فسأوفي لك أيضا . فتبسم وقال :
— قد عفوت عنك . وأمره بالدنو منه فدنا وبايعه ^(١) ، ثم نزع المهدي مرقعته
(جبنه) وقدمها لابراهيم باشا فوزي ، فلبسها ، وكان هذا أكبر دليل على رضا المهدي .
ولما خرج الأسير الذي أصبح طليقا من حضرة المهدي تجمع الناس حوله ، هذا
يلثم الجبة وذاك يلصقه لفوزه بهذا الشرف ، ولم ينقذه إلا أحد الأمراء الذي رد له جبنه
فاخذها وسار إلى بيت يوسف منصور قنطان طوبجية المهدي . وما أن وصل حتى وصلته
منحة من المهدي ، هي ملاءة للغطاء ، وإناء لطبخ الطعام ، وقصعة للأكل ، وجارية
باعها بعشرين ريالاً .

ونصح لابراهيم باشا فوزي أن يقابل الخليفة عبد الله التعايشي ، فخاف من هذه
المقابلة لأن هذا الخليفة كان مشهوراً بالعنف والقسوة ، وما أن قدم له حتى عبس في وجهه

(١) كانت صيغةبيعة المهدي هي : « بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نفرك بالله
شيئا . لا نسرق . ولا نزني ولا نأتي البهتان ولا نمصيك في المعروف . بايعناك على ترك الدنيا والآخرة
(كذا ...) ولا نفر من الجهاد »

ودهش لبقائه حيا ، مع أن الأمركاٲ صريحا في قتل كل ذى شارب ولحية . ولكن ابراهيم باشا فوزى كان لبقا ، أو لعله اضطر أن يكون كذلك فعالج الخليفة بقوله :

— ياسيدى الخليفة الصديق ! إن سبب نجاتى من القتل هو تعلق قبى بمحبتك ومحبة سيدنا الامام المهدي المنتظر وإن أنوارك وأنوار المهدي كانا سبب نجاتى من الموت . وإنى احمد الله على منته بمشاهدة نورك ونور المهدي ، وقد صرت الآن لا أكره الموت لانفماسى فى ذلك النور !!

فاطرق التعايشى إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال :

— يايوسف منصور . لقد دفوت عنه .

وهكذا نجا فوزى باشا ، وما كاد !!



ولنترك الآن ابراهيم باشا فوزى ، لتتحدث قليلا عن شخصية المهدي : الذى وصل إلى كل هذا التوفيق ، وكل هذا النجاح فى ثورته ..

وقد أجمعت الشروح والتعليقات التى أضيفت إلى تفاصيل هذه الثورة ، على أن سببها كان فساد الحكم المصري ، وجور الحكمداريين والمأمورين الذين كانت تعيينهم حكومة القاهرة فى السودان . وجاء الوقت لكى نقول أنه ما من شىء أبغث على الاشتمازاز والقسوة من هذا التفسير المغرض الخاطيء الذى يضاف إلى ثورة السودان فى أواخر القرن الماضى . بل ربما كان صوابا خالصا أن تقرر أن السودان انما ثار ثورته . لأنه أحس بنفسه ، وأن جهود مصر فى وصله بنور الحضارة ، قد أثمرت ثمرها العاجل ، فتزايد طموح السودانيين ، وجاشت نفوسهم بشتى المعانى ، فكانت الثورة . والتأمل فى تواريخ الثورات الكبيرة التى قامت بها الشعوب ، يؤكد هذا المعنى ويزكيه . فلم تقم فى فرنسا ثورتها الكبرى أثناء عسف لويس الرابع عشر ، واكنها قامت عند ماسرع رجال فرنسا فى عهد لويس السادس عشر يستغلون ضعفه ويضعون قواعد الاصلاح الحقيقى . والثورة

الديمقراطية في روسيا ، التي قلبت حكم آل رومانوف ، تمت بعد أن سلم القيصر فعلا بسلطان الدوما « مجلس النواب الروسى » واعترف بحقوق الانسان فى بلاده . والثورة العربية فى مصر ، لم تنشأ إلا بعد أن أجرى اسماعيل اصلاحاته الكبيرة ، واتصلت مصر بالآراء الحرة اتصالا قويا عن طريق مدرسة جمال الدين الافغانى وعن طريق رجال البعث التي عرفت كيف كانت الحياة فى الدول الراقية ..

وإذا نحن تعمقنا فى دراسة الحياة فى السودان قبل أن تصل اليه يد محمد على الكبير ثم اصلاحات سعيد واسماعيل ، فاننا نجد حكما اقطاعيا خضع فيه الأهالى لطائفة من السلاطين والملوك وشيوخ القبائل المستبدين . كما أن السودان كله خضع قرونا طويلة لحكم صيادى الرقيق وتجاره ، الذين كانت لهم سطوة تنخلع لها القلوب ..

زعموا أن الضرائب التي فرضت على السودان كانت كثيرة ، وإن الجباة كانوا يسرقون أضعاف ما يصل الى يد الحكومة . ومن الجائز أن نسلم بفساد نظام الجباية ، ولكن حصيلة الضرائب الرسمية التي كانت تصل إلى خزينة القاهرة كانت قليلة ، اذا قيست بنفقات ادارة السودان نفسه ، ونفقات تعميره ، وتعليم أهله العلوم والحرف المختلفة . ما أكثر ما عملت القاهرة لنشر الزراعة ، واصلاح الموائى ، وشق الطريق للتجارة ، وتيسير الأمن لها .. وما أكثر ما انفقت مصر من المال ، ومن جهود العمال وأرواح الرجال لكي يأخذ السودان نصيبه الكامل من نفس الحياة التي كانت تحياها مصر .

فهل يمكن أن تقارن حياة قطر ، وجدت فيه المحاكم ، والمدارس ، والزراعات ، والغرف التجارية ، والمستشفيات ، وشركات الجند النظامية ، والصناعات المتوسطة ، والطرق الممهدة ، والمدن المبنية على أحدث طراز ، والبواب المفتوح للرحلة الى الخارج والداخل ، بحياة أخرى لا يسود فيها قانون ، ولا تعرف من العلم شيئا ، وتجارتها النهب والسلب والاغارة ، وطبها الكهانة والخرافة ، وجندها عصابات صيادى العبيد وقطاع

الطرق ، وصناعاتها الحراب وصيد بعض الوحوش البرية ، وطرقها البرية والنهرية منعقدة ،
ومساكنها أكواخ من القش والغاب ..

ان من الظلم كل الظلم أن ينكر دور مصر في نقل السودان من حال إلى حال وهى
تجاهد في توحيدة معها واندماجها في حياتها اندماجا تاما ..

حقيقة كان السودان يعانى من ظلم في بعض نواحيه ، وقسوة في جباية بعض
الضرائب . ولكن هل كانت مصر نفسها بريئة من هذا العيب ، وهل كانت دول
العالم الأخرى في منتصف القرن الماضى لا تشكو من علة ، ولا تتذمر من نظام .. لا ..
فمن طبائع الحكم في كل زمان ومكان أن يوجد بين مطبقيه أفراد عادلون وآخرون
ظالمون ، وكان يعاب هذا على الحكم المصرى لو انه قصد أن يحل الظلم محل العدل ،
والقسوة محل الرحمة ، والفساد محل الاصلاح . ولكن رحلات الولاة والخديويين ،
وتبديل الحكام في كل آن ، والاستماع إلى شكاوى المظلومين .. كل هذا كان يخفف
أو يزيل كل أثر لسوء ، وكل ظل لشر في السودان ، بقدر أكثر مما كان يحدث في مصر .
وإذا كان بعض المديرين أو المأمورين قد أساءوا استعمال ساطة من السلطات في
أيديهم ، فمن الخير أن نذكر أن هؤلاء الحكام في الأطراف لم يكونوا جميعهم من المصريين
لا بل كان منهم المصرى ، ومنهم السودانى .. بل ربما كان عدد المديرين والمأمورين
السودانيين أكثر من المصريين . ذلك أن مصر لم تكن تحكم أهل السودان ، ولكنها
كانت تتحد مع السودان في معيشة مشتركة .

ولقد ثار المهدي .. وكانت ثورته دليل حيوية السودان ، ودليل تقدمه ورقيه ،
لا دليل خموله وتأخره وتدهوره . ثار المهدي .. ولم يكن سبب ثورته ظلم حاكم ،
أو قسوة مأمور في تحصيل ضريبة ، أو الاساءة إلى إنسان ..

لا ، بل ثار المهدي لأنه كان يطلب مزيداً من التشديد في تطبيق قواعد الدين ،
والخدمن الحرية الممنوحة للسودان والسودانيين في ممارسة العقائد ، وتطبيق المذاهب ...

نار المهدي لأنه كان يريد إصلاح السودان ، وإصلاح مصر ، وإصلاح بلاد المسلمين..
نار المهدي لأنه عرف أن الأمة الإسلامية كلها تحتاج إلى أن تعود إلى ما كانت عليه أيام
سيدنا محمد ﷺ فقد تعلم بعض السودانيين ، وقرأوا التواريخ والفقهاء والدين ، وعرفوا
ما كان عليه الأوائل والأواخر .

وأخيراً ، أو قل أولاً وأخيراً ، نار المهدي لأن مصر ثارت ، ولأن ثورة مصر ، وثورة
السودان كانت سلسلة في حلقة الحركات الكبرى المنظمة المرتبة التي أعدها السيد
جمال الدين الأفغاني . وقد كان وهو في لندن ومعه صفيه وحواريه الشيخ محمد عبده ،
يعملون لنجاح ثورة المهدي ، ولاخلاء السودان ، ويدفعون السياسة الدولية كلها في
هذا الاتجاه تنفيذاً لخطة مرسومة .

ولقد أسلفت في كتابي عن محمد عبده ، أن الأستاذ الامام تنكر وهو في منفاه ،
وبدأ رحلته للسفر إلى السودان ، لكي يتولى قيادته ، ولكن موت المهدي أوقف رحلته
ولم يكن صدفة ولا ارتجالاً أن المهدي أمر بالبقاء على حياة غوردون لكي يفادي به
عراقي .. لقد كانت هناك صلة أقوى صلة بين الثورتين ، ثورة شمال النيل وثورة جنوب النيل .
فكيف .. كيف بالله يخطئ ، إنسان إلا أن يكون مشوهاً للحق ، مزوراً للتاريخ ، فيزعم
أن المهدي كان نائراً لأن الحكم المصري في السودان قد فسد ، أو تعفن ، أو استحق
أن تطبق هذه العقوبة عليه ؟ !!

ثم .. ثم إن المهدي كان يعيب على مصر أمراً هاماً وخطيراً ، وهو أنها سمحت
للأجانب بالتدخل في شؤونها ، وإن أهل السودان أنفسهم رأوا هؤلاء الأجانب بينهم —
لا سائحين أو تجاراً — ولكن حكماً وقواداً . فكان هذا في عقيدة المهدي . وهي
عقيدة تعصب ، وتزمت ، كفرأ ما بعده كفر ..

وإذن فقد نار السودان تحت قيادة المهدي ، وكانت ثورته من أجل الدين .. أي
ضد الخلافة التركية . ومن أجل الحرية .. أي ضد التدخل الأجنبي .

كتب المهدي كتاباً إلى الخديوي توفيق - بعد أن استولى على الخرطوم - يقول له في مستهله: « إن دسائس أهل الكفر التي أدخوها على الاسلام ، وضلالاتهم التي مكنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الاسلام ، واشتد الكرب على أهل الإيمان ، فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر ، لتراكم البغي والعدوان .

وقال : « صارت جيوشك تأتي ثلثة بعد ثلثة ، وأقدم لهم الانذارات ، ولم تنفعهم ، والله يؤيدني وينصرني عليهم كما وعدني ، ويقطع دابرهم ، إلى أن قلت حيلتك ، وتلاشي أمرك ، فسلمت امرأة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانجليز ، واحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الانجليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله ، فلما سول الشيطان لهم إدراك « غردونهم » بالخرطوم وأيست من هداية أهله ، وعلمت أن تكرار الانذارات لا ينفعهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » عجل الله بفتحه ، وإهلاك من فيه .. » وقال : « ما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ »

وقال : « وما بيننا وبينك إلا الحجة الخالصة لوجه الله تعالى ، ونكون نحن الجميع يداً واحدة على إقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين ، وقطع دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم إن لم ينيبوا ويسلموا .. »

وفي رسالة أخرى وجهها المهدي إلى سكان مصر يقول:

« قد رأيتم مانال الدين من الاندراس الذي لا يخفى ، ولما أن أراد الله إحياءه ، وإظهار شعائره ، أنجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإظهرني بالخلافة المهديّة ، وأمرني بدعاية الخلائق إلى السنة المرضية ومن عهد ظهوري بهذا المظهر الديني مازالت

دولة الترك تبيض جيوشها وترسل رجالها لمحاربتى من غير استناد إلى دليل شرعى ... »
وإذن فالإنجليز والترك — أو الخلافة — كانا هدف الثورة ، ولم تكن مصر نفسها
ولا حكمها فى فساد أو صلاحه هو السبب .

وصدق دعوة المهدي كثير من أهل مصر ، حتى وصل دعاته إلى جرجا ،
ووجدوا لهم أنصاراً وأعواناً .

رقد أخفت هذه الحركة كما هو معلوم ولاخفاها أسباب :

أهمها أنها كانت قائمة على التعصب الدينى وحده ، وما كان يمكن لحركة تظهر فى
مطالع القرن العشرين ، ويكون هذا العامل وحده هو قوامها . وعلى الرغم من أن
جمال الدين الأفغانى أيد الحركة ، إلا أن هدف الأفغانى كان تجديد فهم الدين ، وفتح
أبوابه لمسايرة روح العصر ، فى حين أن المهدي لم يفهم هذا الهدف ، أو لم يستطع أن
يسايره . بل على العكس حاولت الحركة المهدية أن تلقى كل جهود العلماء والفقهاء فى
شرح الدين ، وتفسيره ، وتخريج قواعده .

التى القبض مرة على عالم شهير ، فكان مما قاله له « عبد الله التعايشى » خليفة
المهدي : « يا عالم السوء .. قضيت عمرك المشؤوم فى تحصيل علوم جاء المهدي بنسخها .
فقد كنتم تقولون حدثنا فلان عن فلان باسانيد طويلة ، ونحن الآن نتلقى الشريعة من
المهدي ، الذى يتلقاها مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . فاحذر يا شيبه السوء أن أسمع
عنك أنك تعلم الناس شيئاً من العلوم القديمة المنسوخة ، وأعلم أنك منذ الآن محتاج إلى
التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدي » ثم دعا عبداً أعجمياً ، وقال للشيخ : « هذا
أستاذك منذ الآن . فصل بجانبه ، وتلق شريعة المهدي عنه . أما ما علمته قبل الآن فانه
منسوخ ، وخير لك أن تحفر له فى الأرض حفرة تقيبه فيها . »

وقد جر هذا التعصب إلى نتائج سيئة جداً ، هى حقد الحركة المهدية على كل من لم
يسلم لها ويذعن لأمرها . ومحاولتها استئصال جميع العناصر التى عارضتها أو وقفت فى

وجهها .. فإن المهدي زعم : « أن من شك في مهديتي ، فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين »

وهذا الزعم هو الذي جر عليه وعلى الحركة الدمار ، فقد دعاه إلى أن يصادر كل مال يصادفه ، ويقتل كل انسان يعارضه ، أو لا يتفق معه في أنه المهدي المنتظر ، وإن كان مستعداً للاعتراف بأنه « مصلح » منتظر .

ولقد كلف تعصب المهديّة شعب مصر تكاليف باهظة من الأرواح والأموال .. ودع عنك أرواح الجند والمحاربين ، وإنما نتحدث عن أرواح الأهالي المدنيين . فقد اجتث المصريون في طريق المهدي ، وأبيدوا إبادة تامة ، لا لأنهم مصريون ، ولكن لأنهم غير مؤمنين !

وكانت لمصر في السودان ثروات تجارية ضخمة ، ومصالح مادية لا تحصى ولا تقدر ، صودرت كلها اللهم إلا القليل الذي أمكن لبعض ثروة الخرطوم نقله إلى مصر قبل استفحال الأمر . ودع عنك خسارة مدينة ضخمة عظيمة كالخرطوم هدمت ، وخربت تخريباً .

ولو أن العمر امتد بالمهدي فترة أطول من الزمن ، لكان قد عرف كيف يستفيد من البقية الباقية من المصريين ، وأصحاب العلم والكفاية ، الذين نجوا من مذبح الخرطوم ، وقد ضاع فيها ٢٤ ألف رجل ، غير الحامية كلها .

وكان من سوء حظ المهدي أنه قام بثورته قبل أن يتجمع للسودان عدد أوفر من أصحاب العلم والدراية بشؤون السياسة والحكم والصناعة وغيرها .

وكان المهدي نفسه أعلم جماعته ، وأوفرهم تحصيلاً ، وأكثرهم دراية بالشؤون العامة . ومن يطالع رسائله يجدها مكتوبة بأسلوب مستساغ ، ويمجد استشهاد بالقرآن والحديث دليلاً على تعمقه وتفهمه للكتاب والسنة . وهذه الدرجة من العلم هي التي لم تجعل المهدي ضيق النظر إلى الأمور ، كما كان أصحابه . فهو لم يسرف في القتل اسرافهم . ولم يحكم

بإعدام شخص إلا لضرورة قصوى ، وكان العفو أقرب إليه من العقوبة ، وتأليف القلوب أدنى إليه من تنفيرها .

أما صاحبه التعايشى - خليفته - فلم يكن على علم المهدي ، بل ربما كان حظه من العلم ضئيلاً . ولهذا حرص على ألا يبقى على أحد من ذوى الكفاءة والقدرة العقلية ، فقد ينازعه في سلطانه ، إذا ما وصل إلى هذا السلطان . ولهذا أوعز بقتل غوردون ، لا بغضا في غوردون ، ولكن خوفاً من أن يأتي عرابي إلى السودان فتكون له الكلمة العليا .. ولأمر ما لم يتابع الشيخ محمد عبده رحلته التنكيرية إلى الخرطوم ، بعد أن علم بوفاة المهدي نفسه ..

وقد قيل في صفة الرجل كلام كثير .. وصفه فوزى باشا بقوله : « كان المهدي طويلاً القامة ، أسمر اللون بخضرة ، عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، واسع الجبهة ، أفتى الأنف ، واسع الفم والعينين ، مستدير المحية خفيف العارضين ، أسنانه كاللؤلؤ .. وبالجملة فإنه كان ذا صورة جميلة جداً بين السودانين أمثاله ، وكان يتعمم على قلنسوة من نوع ما يتعمم عليه أهل مكة ، وعمامته كبيرة منفرجة من الأمام ، يرسل (عذبة) منها على منكبيه الأيسر حتى تتجاوز سرتة »

ووصف سلاطين المهدي بقوله : « كان طويلاً عريض الأكتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيراً وعينه براقنتين ، وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حروز ، وكان أنفه وفمه حسنى الوضع . وكانت عادته الابتسام على الدوام ، وإذا ابتسم بدت أسنانه الناصعة ، وكان أفلج ، وكان قلبه سيباً في حب النساء له .. وكان يعطر جبته بالمسك والصندل والورد ، واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى « رائحة المهدي »

ووصف خليفته عبد الله التعايشى « بأن لون وجهه كان السمرة الخفيفة ، ووجهه عربى عليه مسحة من الرقة . وكانت لا تزال آثار الجدري بادية فيه ، وكان أنفه منقارياً

وفمه حسن ، عليه شاربان صغيران ، وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن. وكان
ربعة بين القصير والطويل ، وسطا بين السمن والنحافة . وكان لابساً جبة مرقعة مؤلفة
من رقع مربعة كل رقعة تختلف في اللون عن الأخرى ، وعلى رأسه طاقية قد تميم
عليها بعمامة من القطن ، وكان إذا تكلم تبسم ، فتبدو أسنانه البيضاء .



نعود الآن إلى أسيرنا ، وما كان من أمره وأسر من استحي من المصريين في
السودان إبان الانقلاب المهدى .

من العسير جداً أن نصور ما صار إليه إبراهيم باشا فوزى بعد أن نجا بأعجوبة من
القتل . فقد كان هذا الرجل ، المصرى الأول في السودان ، يأتى بأمره جيش كبير ،
ويحكم مدينة الخرطوم ، ويمتد نفوذه إلى البقاع التى حولها ولا يزال للحكم المصرى عليها
سلطان . حقيقة كانت قد أملت به محنة سابقة ، وهى تجريدته من رتبه والقباه لاشتراكه
في الثورة العرابية ، ولكن معرفة غوردون به لسابق خدمته معه في السودان كانت سبباً
في استصدار عفو عنه ، وإعادته إلى الخدمة ، ثم سفره إلى عاصمة الجنوب، حيث ينتظره
مستقبل طيب . وقد شق له طريق هذا المستقبل بمنحه رتبة اللواء . ولكن هذه هى
الدنيا العريضة التى أمل رفدها ، تفر من بين يديه فراراً ، وما هو ذا أسير لا يملك مالا ،
ولا طعاماً ، ولا يملك ثياباً .

تذكر فى ساعاته السود الأولى ، آخر أحاديثه مع غوردون ، الذى كان يوعز إليه
بالسفر من الخرطوم برفقة القناصل ويقول له : « إذا أصبحت أنا أسيراً فى أيدي هؤلاء
الأشقياء ، فلا تتركنى حكومة جلالة الملكة ، وأنها تقدم القناطير المنظرة من الذهب
فداء لى ، وأنا أتمنى لك النجاة من صميم فؤادى يا عزيزى فوزى لأنك إذا وقعت
أسيراً فى يدهم لا تفديك حكومتك ولو بدراهم قليلة . »



ودارت دورة الأسبوع ، فاذا غوردون قتيلا ،
وإذا فوزى أسير ذليل ، لا يعرف طريق النجاة ،
ولا يلمح في الأفق بادرة من بوادر الأمل .

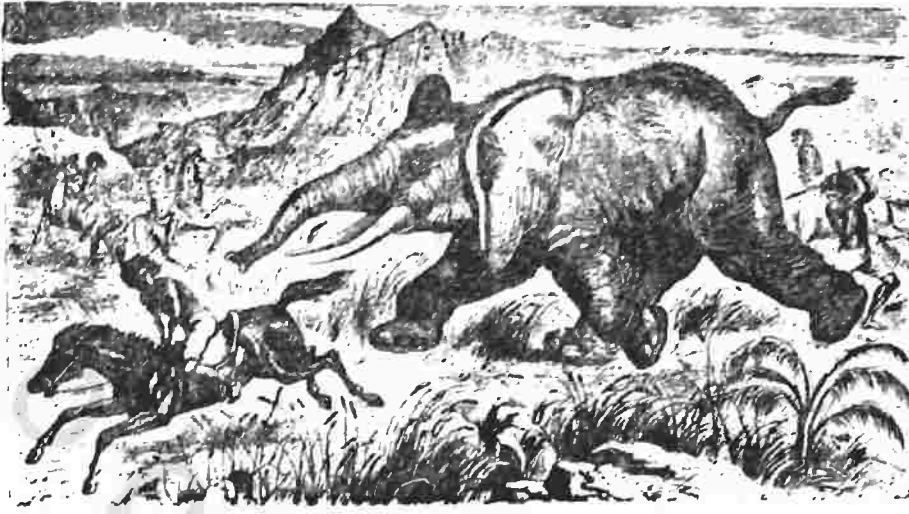
وقد حدث في سير الحوادث أضخم ما يمكن
أن يحل بهذه الدولة الجديدة ، وهو موت المهدي
بعد ستة أيام من إصابته بحمى التيفوس ، وكان ذلك
في يوم الاثنين التاسع من شهر رمضان سنة ١٣٠٢ .
وهكذا لم يعيش المهدي بعد فتح الخرطوم أكثر من
أربعة أشهر ، وقد انهار بموته كل أمل في تنظيم هذه

« المهدي »

الثورة ، أو تحويلها إلى حكم صالح مثمر .

وتولى من بعده خليفته عبد الله التعايشي ، بوصية منه . والخليفة الجديد من قبيلة
البقارة ، وقد تولى زعامة هذه القبيلة بعد أن اشتهر ، واستطار ذكره . وقد ذكر أن صيد
الأفيال من شارات الشهرة والمجد لأفراد هذه القبيلة ، وأن من ظفر منهم بفيل ، أسماء
قومه « الثور » لشجاعته و بسالته ، ومنطقة هذه القبيلة—وهي دارفور—غنية بالأفيال
غناء المناطق الأخرى بها .

ولم يكن الخليفة الجديد متعلما ، ولا كانت له صفات الكياسة التي اتصف بها
سلفه المهدي . إلا أنه وصف بكثير من المظالم الفاشمة ، والأمر بأوامر غريبة تعسفية ،
كانت السبب في خراب كثير من مناطق السودان وهجرة أهلها منها . ويظهر أن في
نسبة هذه المظالم له بعض المبالغة . فلا شك أن المهدي لمح فيه صفات طيبة من الشجاعة
والنفائى في الدعوة حتى جعله خليفته ، من دون أهل قرابته ، والمقدمين من كبار قواده ،



أمثال النجومى والحلو
وشريف وغيرهم .
ولوان التعايشى كان
بكل هذا النقص
الذى وصف به ، لما
استمر حكمه اثني عشر
عاما حتى أزالته عنه

كيف يصطادون الفيل فى السودان

جيوش كئشتر ، ولما عرف كيف يخضع القبائل الكثيرة المتعددة المصالح والزعامات المتنافرة . والحقيقة انه تمكن من أن يضرب بعضها البعض الآخر ، ويبيد منها ما لا يسلس قياده . كما غير تغييرا أساسيا فى طبقة الزعماء التى تركها المهدي بما انتقص من نفوذها وحد من تأثيرها على العامة . .

وعلى كل حال ، فان ما يعنينا من أمر الخليفة الجديد فى هذا الكتاب ، هو موقفه من « بقايا » المصريين ، التى ظلت تحت حكمه . .

● يقص علينا فوزى باشا هذه الفترة الحالكة من تاريخ حياته فى الأسر ، بعد وفاة المهدي بقوله « إن المصريين أخذوا فى السعى للارتزاق بالمهن الدنيئة ، مثل صناعة الخبز ، وفتح حوانيت الأطعمة . وهم فى كل آن عرضة للاضطهاد ، وفى كل يوم يقع بعضهم فى تهمة إخفاء المال ، فيعاد تعذيب الواحد منهم بما يقشعر منه البدن .

« وكنت أقيم فى كوخ فى أم درمان بجوار منزل يوسف منصور (قائد المدفعية) ، وبعد وفاة المهدي ، كانت لى زوجة على وشك الوضع ، كنت تزوجت قبل سقوط المدينة ، وهى بنت أحد الضباط المصريين العظام ، فانتقلت إلى الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها ، وما كادت تمضى على أيام حتى نمت إلى التعايشى أننى ذهبت إلى الخرطوم لتوحيد كلمة المصريين ، والقيام بعمل مضاد للمهدية . فما شعرنا فى احدى الليالى

إلا بالنداء بأن كل ذكر من الذين خرجوا من خندق الخرطوم ، يهدر دمه اذا بات في المدينة ، بل يجب أن يكون في البقعة التي عند نقطة ملتقى النهرين الأبيض والأزرق .
» وبينما كان الرجال يودعون أطفالهم ونساءهم للخروج إلى محل الاجتماع ، ازداد النداء بوجوب خروج النساء والأطفال إلى ذلك المكان أيضا ، فخرجنا بنسائنا وأطفالنا ونحن في حالة لا أقدر على وصفها ، وبعد وصولنا إلى تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان ، أخبرونا بأن المراد من الاجتماع قتل إبراهيم فوزي ، وبيع بقية المصريين أرقاء . فقضينا تلك الليلة ، وفرشنا الأرض وغطاؤنا السماء . فكنت لا تسمع غير صياح الأطفال وعويل النساء .

» وفي اليوم التالي مكثنا إلى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التعايشي ممتطيا حمراً يحيط به نحو الف حارس ، وأمامهم أشخاص ينفخون في أبواق من العاج بصوت مزعج متقطع . ولما دنا التعايشي من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفىين رافعين أصواتنا بالتهليل ثم استدعاني من وسط الصفوف ، ومعى بضعة أشخاص من أعيان الخرطوم . ولما مثلنا بين يديه قال :

« — أيها الاتراك أهالي الخرطوم ، وفضلة سيف المهدي عليه السلام !!
انكم أضلأتم الناس وغررتموهم بدنياكم ، فلماذا أيها المناقون أقم في الخرطوم ، ولم ترحلوا إلى أم درمان . فهل أنتم لا تزالون مكذبين للمهدي أو ما هو السبب ؟ .

فأجبت (أي إبراهيم باشا فوزي) قائلا :

— يا سيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من أن نكون مصريين على تكذيب المهدي ، ونحن نعترف أمامك باننا مؤمنون بالمهدي وخلفائه ، والذي منعنا من الإقامة بام درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الكواخ فيها ، وتمكثنا من الإقامة في خرائب الخرطوم بغير مشقة . فأجاب التعايشي في غضب :

— أنت منافق ولا أرى غير ضرب عنقك ! قتل :

— ياسيدى الخليفة . أنت تعلم الغيب وما تخفيه الصدور . وإن الخطر عليه السلام وزيرك ومشيرك . وقد قال فيك المهدي عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فأطرق بوجهه إلى الأرض ، وقد سره هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال :

— يا ابراهيم فوزى ، لقد تحققت براءتك مما نسب اليك . وقد عفوت عنك ، وعن جميع أهالى الخرطوم . ولكن لا بد من مغادرتكم الخرطوم وإقامتكم بأمر درمان . لأن الخرطوم دار كفر ، والمهدي عليه السلام قال : لا تسكنوا فى مساكن الكفار ، ولا تلبسوا ملابسهم ، ولا تنزيوا بأزيائهم .

فقلت له :

— ياسيدنا الخليفة ، نحن لا نملك أجرة اجتياز النيل . فتمر بأجارتنا مجاناً . فاجتزنا النهر ، وأقمنا بأم درمان ، نقاسى من صنوف الذل ألواناً . . .



● وتتجلى قسوة الحياة على هؤلاء البؤساء ، فى استعراض أنواع الحرف والأعمال التى كان يؤديها ابراهيم باشا فوزى لى يجد ثمن ما يقتات به هو وأسرته .

قال إن أحد معارفه من أهالى السودان زاره ذات يوم ، وأعطاه خمسين ريالاً ، وأعطى جاراً له من المصريين — على خير الدين — عشرة ريالات ، فاتفق الاثنان على أن ينشأ قبوة على شاطئ النيل ، أقامها من البوص والخشب ، وتكلفا عشرين ريالاً حتى استقام لهما حانوت . . وما أن أعدا العدة للعمل ، حتى جاءهما محتسب الشاطئ . (الموردة) وأمرهما بهدم ما بنياه فوراً ، ولم تجد ضراعتهما غير سيل من الشتائم ، ثم ما لبث الجندان هدموا الحانوت ونهبوا كل شئ فيه حتى البوص .

وقررا أن يعاوردا التجربة بما تبقى لهما من المال فى مكان بعيد عن نفوذ هذا المحتسب ، وقد أفلحا فى إقامة حانوت ، وأخذ الدراويش يترددون بكثرة ، ويطلبون

القهوة، فاذا طولبوا بالثمن، ضربوا صاحبي القهوة قائلين: أنتم ما زتم كفاراً لا تعطون شيئاً من أجل الله!! وأخفق هذا المشروع.

فعاود فوزى باشا التفكير، وساقه هو وصاحبه إلى الاتجار في البطيخ. واشترى فعلاً كمية من البطاطيخ من قرية مجاورة، ولما أنزلها إلى البر، مر موكب التعايشى، فهب جنده البطيخ، وحطموا ما تبقى، فضاع رأس المال، وتراكت الديون وحزن إبراهيم فوزى وصاحبه حزناً عظيماً، وقرر أن يذهب إلى التعايشى يشكو له جور جنده. فلما لقيه، وعرض عليه أمره قال له الخليفة:

— ما ذا قلت لما أخذ الأنصار بطاطيخك؟ فأجاب:

— قلت في شأن الله، وفي حب سيدنا الخليفة. فتبسم التعايشى وقال:

— أهكذا قلت مع أن رأس المال دين؟.

فأكد إبراهيم فوزى أن هذا ما حدث. وبعد أربعة أيام أرسل له التعايشى ٤٠ ريالاً من النوع «المقبول» وهى تعادل مئتي قرش.

وبحث الرجلان عن حرفة جديدة، فاهتديا إلى فكرة طيبة، وهى أن يذهبا إلى سوق الماشية، ويكتبتا عقوداً بين البائع والمشتري، تتضمن أوصاف البهائم المشتراة. وكان عقد الرأس من الماعز أو الضأن قرشاً. وعقد البقرة قرشان، وكذا الابل. وما أن أقبل الظهر حتى كان إيرادهما ٤٠ قرشاً، وقد فرحا بهذا العمل المربح فرحاً جزيلاً، ولكن ما لبثا أن داهمهما جند، أوسعهما ضرباً بالسياط، وأخذوا منها القروش كلها وساقوها إلى المسجد للصلاة.. فلما تضرعا في استرداد شيء، رد لهما خمسة قروش، مع الأمر بعدم العودة إلى هذا العمل لأنه مربح، ولا يجوز للمصريين الكفار أن يحصلوا على أكثر من ثمن الخبز بغير اداام.

هذا هو نوع الحياة التى كان يحياها أكبر المصريين شأنًا، وتستطيع أن تقيس عايتها درجات البؤس التى انحدر إليها بقية المصريين.

● ولم يبق أمام إبراهيم فوزى إلا أن يطوف بباب التعايشى عسى أن يعينه ببعض المال على إعانة أسرته . فلأزم المسجد ، ولكنه سمع ذات ليلة الحديث يدور حول مسيح دجال يوشك أن يظهر ، ووصف الخليفة هذا المسيح بأنه أبيض اللون ، قصير القامة ، ضخم الجثة ، مستدير الوجه .. وزاد أحد الحضور أنه سيكون مصرياً !! ولاحظ إبراهيم فوزى أن هذه الأوصاف تنطبق عليه ، وهمس أحد الحضور فى أذنه مداعبا ، بأنه قد يكون هذا الدجال . فداخل فوزى وجل شديد ، من أن تكون هذه الفرية حيلة جديدة ابتكرها الخليفة لى يوقع به ، فانسحب بسكون من الحلقة وجلس بعيدا حتى لا تقع عليه عين أحد . ولكنه ما لبث أن سمع مناديا يناديه من حلقة الخليفة ، فجن من من الذعر أو كاد ، وسار فى خطا متخاذلة ، حتى اقترب من المجلس ، فاذا بالتعايشى يهيم من وسط الجمع ، ويقف ، ويمسك إبراهيم فوزى من يده ، ويسير معه خطوات إلى الباب ، فتهاشم كل من فى المجلس : لقد نزل الوحي على خليفة مهدي الله بأن هذا هو المسيح الدجال !!

ولما وصل التعايشى بإبراهيم فوزى إلى الباب قال له : انى أريد أن أزوجك من امرأة مؤدبة متدينة حسنة الخلق ، وهى احدى نسائى . فأجاب فوزى :

— يا سيدى اننى متزوج . فقال الخليفة :

— أليست لك زوجة واحدة ؟ فرد فوزى :

— بلى ! فقال له الخليفة :

— وما المانع من أن يكون لك ثلاث زوجات أو أربع ؟ فأجاب :

— لا مانع يا سيدى سوى أننى رجل فقير مدقع . وليس لى كسب يعاوننى على

القيام بواجبات زوجتين . فأجاب المهدي :

لا تلتفت إلى هذا ، لأن الله متكفل بأرزاق العباد .

ولم يكن بد من أن يرضخ الأسير لهذا العبء الجديد . وبعد أيام كانت الزوجة

الجديدة فى منزله ، وقد تملكه اقتناع شديد بأن هذه السيدة ، لم تكن إلّا عينا للخليفة عليه ، وكان يخفى فى بيته بعض التبغ فأسرع ونقله حتى لا تشى به الزوجة المفروضة عليه ، فيحكم عليه بأشد العقوبات لارتكاب هذا المنكر الذى حرم فى السودان كحرمة الحر .

وفى ذات يوم جلس فوزى باشا مع هذه الزوجة يتناولان الطعام ، وكان من خبز الذرة ، وإدامه من ورق اللوبيا . فرأى السموع تتساقط من عينيها ، فسألها عما يبكيها ، فأشارت إلى هذا الطعام متأففة فقال لها مندهشا :

— هذا طعام أنصار المهدي .. فردت وهى تلتحب :

— لعن الله المهدي وخليفته . لقد هتكاً عرضى ، وقتلاً أهلى ، وسلباً نعمتى ..

وعاودت بكاءها بصوت يفتت الكبد . فسألها فوزى باشا عن أهلها ، فذكرت له اسم أبيها ، وكان من قواد الترك فى الخرطوم ، وله ابن كان يشغل منصبا ساميا فى خط الاستواء . ولم تكن هذه السيدة تعلم عن أهلها شيئا ، بعد أن سيبت ، وضمت إلى حريم الخليفة . فأرسل فوزى باشا ، واستدعى أهلها ، وكانوا بالقرب من كوخه . وكان لقاء ، وكان بكاء ، وكانت فرحة الأحباء بالأحباء ..

وقد أنسى هول المصائب هؤلاء المصايين فى بيت فوزى باشا ، بأن فى البيت زوجتين ، وإن الغيرة من طبائع النفوس . فقد أغفلت الزوجتان ، القديمة والحديثة كل شىء . إلا أن تعاوناً زوجها المنكوب فى احتمال أعبائه ، وكانتا تقضيان النهار ، وشطرا من الليل فى خياطة الملابس لل دراويش بأجر طفيف ، ولكنه كان يكتفى لى لا يموت الجميع جوعا .

ولم ينس الله هؤلاء الأسرى المساكين ، فقد كان الأهل والأصدقاء فى مصر ، يهربون لهم النقود ، ويضعون لبعضهم خططا للهرب إلى الشمال . وكان من الذين عنوا بفوزى باشا صديقه محمد ماهر باشا محافظ القاهرة ومحافظ أسوان أثناء هذه الحوادث ،

الذى أرسل مع أحد التجار بعين جنيتها انجليزيا إلى أسير الخليفة ، كما قدم له هذا التاجر هدية من السكر والصابون والبن والملابس ، وكانت هذه المنحة كأنها لفنة من السماء ، تفتحت فيها ينابيع السعادة والرزق .. اربعون جنيتها .. ملابس .. سكر .. بن ، هذا عظيم .. هذا شيء أكثر بكثير مما كان يحلم به المعذب المسكين في محتته .

وكان فوزى باشا يتيم بجوار يوسف منصور كما قلنا ، وكان يوسف هذا عينا عليه ومكلفا بحراسته ومراقبته . فقرر فوزى باشا أن يبنى لنفسه منزلا جديداً في حي المسلمين ، كلفه نحو مئة ريال ، وانتقل إليه . ولكن ما لبث يوسف منصور أن أنبا الخليفة بأنه غير مسؤول عن فوزى إذا فر بعد أن أقام بعيداً عنه ، فصدر الأمر بعودته فوراً ، فباع المسكين منزله الجديد وخسر فيه ٧٥ ريالاً !!

...

● ولم يكن الهرب بعيداً عن ذهن ابراهيم باشا فوزى ، ولا عن ذهن أصدقائه — لا حكومته — وحدثت محاولة من هذا النوع ، كانت غاية في الخطر . فقد رتبوا له في مصر اعرابيين ، يسلكان به طريق الشمال حتى الحدود ، ووصله ١٠٠ جنيتها من مئتين أرسلت له ، فسدّد ديونته ٢٠ ، وترك لأهله ٥٠ ، وسار بالباقي مع دليله . وكانت الخطة أن يسيرا إلى الجنوب ، حتى إذا أمنا الطلب عادا إلى الشمال على جمال خبثت في إحدى القرى .

وحزم فوزى باشا أمره ، وسار مع صاحبيه ، في زورق بالنيل إلى الجنوب ، حتى إذا أويا إلى مكان متفق عليه ، رفضا المسير معه حتى يأتي معهما آخرون من المصريين وعدا تبهر بهم أيضاً . وطال الانتظار سبعة أيام ، كاد القلق خلاها يقتل ابراهيم فوزى قتلاً وفي نهاية هذا اليوم رآه أحد كتبة يعقوب أخى الخليفة ، فقال له إن التعاشي يقاب كل حجر في السودان بحثاً عنه . فلم يستطع الهارب صبرا ، وأنذر صاحبيه أن يعودا به إلى النيل ليعود إلى أم درمان ، إن لم يسيرا به إلى الشمال فوراً . فأثرا أن يعودا به إلى النيل ،



وهناك وجد قارباً ، أسلم نفسه له ،
وسار به حتى وقف عند إحدى النرى ،
ووجد مصرياً في القرية ، كان ضابطاً في
الحامية ، فأسعفه بعشرة أراذب من
الأذره وضعها على الشاطئ وأقام
بجوارها . وبعد قليل أبصر باثنين
يقبلان نحوه ، بعد أن أناخا هجينيهما
ولما رآياه قال لهما :

— أأنتما قادمان من البقعة
المنورة ؟! . فقالا نعم . فقال :
— لعل خليفة المهدي عليه
السلام بخير ؟ فقالا :
— نعم بخير وهو يقرأ عليك
السلام .

فوثب واقفا على قدميه وهما

« فوزى باشا في ملابس الدراويش وقد شد قدماه إلى أنقال من الحديد »
يقولان :

— إن الخليفة يدعوك للحضور عنده . فصاح بهما فوزى :
— ولماذا لم تخبراني بذلك قبل التحية . إن أوامر الخليفة واجبة النفاذ في الحال .
وسألاه عن عمامته ومنطقته ، فقال ان اللصوص سرقوها ، ثم لفق لهما سبب وجوده
هنا ، وهو أنه كان يجمع من بعض المحسنين حبوباً ، وهو في انتظار سفينة تمود به إلى
الخرطوم . وجاء صاحبه الضابط فأيد قوله ، وخلع عليه عمامة وحزاماً ، وأردف أحد
الرسولين الباشا وراءه ، وساروا خبيئاً إلى أم درمان ، وقد وصلوها بعد ثلاثة أيام .
وأناخوا أمام باب التعاشي فصاح به :

— أين ذهبت يا إبراهيم فوزى فأجاب :



« فوزى باشا وقد أنفلت قدماء بالعبود وأمامه ابنه ، وبينهما شارل نيوفلد وسودانى يتناولان الطعام »
— يامولاي إننى شخصت إلى إحدى قرى النيل الأبيض لأنال شيئاً من احسان
أولى البر ، فجمعت عشرة أراذب من الذرة ، فلم أجد سفينة شرعية تحملنى فأقمت عندها
حتى جاءنى رسولك.

وأيد الرسولان كلامه ، وقصا ماشاهداه . فهدأ الخليفة وقال :
— من الذى أذن لك بالسفر ؟ فانتحل فوزى باشا كذوبة وهى أنه أخذ إذنا
من مقدم « جاويش » . فقال الخليفة :
— أمثلك يأخذ إذنه من المقدم ! ؟ فاجاب :

— كلا ، ولكننى اضطرت لهذا السفر بسبب ملحقنى من الجوع وضيق العيش
فامر التعايشى بان يوكل بابراهيم فوزى ، بقارى - وهى قبيلة الخليفة - لى يلازمه
دواما .. وما أن رآه البقارى حتى قال له فى دهشة !
— ياولد الريف .. لماذا أنت ضخم هكذا ؟!

فأخنى فوزى باشا رأسه فى تذل ، وقال :
— هكذا خافنى الله .. ثم سار البقارى مع فوزى باشا إلى منزله ليتناول معه

الطعام . وظل يلزمه بهذه الصورة ، أربع سنين كاملة . لم ينقذه منه إلا .. إلا حادث
اعقبه السجن — سجن فوزى لا البقارى —

وقد احتفل التعايشى بالثور على ابراهيم باشا فوزى احتفالا ضخما ، وظلت الطبول
تدق والأبواق تنفخ ثلاث ساعات كاملة .

ومنذ ذلك الوقت أصبح من واجبات فوزى باشا أن يطعم حارسه وأن يداريه
بالمال حتى لا يختلق عليه الأكاذيب فينكل به الخليفة . وكان عليه أيضا أن يخدم
هذا البقارى . . أن يحمل له سلاحه إذا سار ، وأن يكون وراءه دائما ، تعظيما
لحارسه واكباراً !!

وازداد الحارس حارساً آخر ، فاصبحا اثنين وخاطباه بقولهما :
— يا ولد الريف ، إعلم أنك كافر وقد أسلمك الخليفة الينا لنعلمك الصلاة والصوم .
وهكذا لم يستطع فوزى باشا التخلف عن الصلاة بالمسجد ، وكان بيته يبعد عن
المسجد أربعة أميال . فكان يخرج قبل صلاة الفجر بساعتين ، ويظل في المسجد يتابع
الصلوات في أوقاتها ، بحيث لم يجد وقتاً للراحة ، أو الاختلاف إلى منزله في أثناء النهار
لبعده عن المسجد .

والحاجة تفتق الحيلة . فقد اتفق مع الحارسين على أن يرشوها بريالين في كل مرة
يتخلف فيها عن الصلاة في المسجد ، وهذا زيادة على وجبات الطعام معه في بيته ،
وزيادة على قبوله الذهاب إلى حيها مرة كل أسبوع ليكتب نحو مئة خطاب أو أكثر
للبقارة ، ويقرأ لهم ما يرد من رسائل . وكان أهل هذه القبيلة واثقين من أن الخليفة
أنعم عليهم بهذا « العبد » الأبيض لكي يخدمهم .

وكان نساء البقارة يصنعون آنية من سعف الدوم ، محكمة الصنع إلى درجة أن الماء
لا يقطر منها ، وكانت تتخذ للشرب . وقد ألزم الحارسان أسيرهما أن يبيع لهما كل أسبوع
بعض هذه الآنية وإذا أخفق في إيجاد مشتري فتنسب له تهمة الكفر فوراً ، ويهدد

بتبليغ الخليفة، فيعود إلى معارفه يستجديهم ثمن هذا الخوص ، وعند ما يعود به يقول له
حارساه .. الآن أسلمت !!

وقد أبهظت ضريبة الصلاة عاتق فوزى باشا ، فظل يتعلل ويتذلل ، والضريبة
تنخفض إلى أن وصلت بعد عدة أشهر إلى قرشين عن كل فرض .

وظل فوزى باشا في بلاء من حارسياه أربعة أعوام ، وفي ذات يوم أذن المؤذن في
المصريين من الرجال ، أن يجتمعوا في صعيد واحد .. وفزع « أولاد الريف » من هذا
النذير ، فقد كانت لهم عهود بأمثاله ليس فيها مايسر ، وليس فيها إلا كل شؤم وشر .

فلما كان موعد اللقاء ، أقبل التعايشي ، فهلل المصريون لمقدمه . وكانت عدتهم في
ذلك الوقت نحو خمسة آلاف رجل . وكان فوزى باشا منزويا في آخر الصفوف ، فناداه
الخليفة ، وبعد حديث ، فيه أنواع الملق التي أجادها ، أمر الخليفة ، فنثرت على الأرض
أربعة أكياس من التمر ، وأمر المصريين باستطعامها فاقبلوا عليها ، وحمل فوزى باشا
جزءاً منه وقال للتعايشي أنه يتبرك بتمر خليفة المهدي ، ويريد إهداءه إلى أهل بيته ،
فسر منه الخليفة ..

ولم يكن هذا الاجتماع يحمل مفاجأة سيئة ، بل على العكس ، أمر الخليفة فأحضرت
راية سملت لفوزى باشا وعين أميرا (رئيسا أو قائدا) لجند مصر النظاميين الذين دخلوا
في طاعة المهدي ، وعين آخرون من المصريين أمراء على طوائف أخرى .

وقد فرح فوزى باشا بهذا « المنصب » الجديد ، لأنه أحله من حراسة البقاريين .
فقد رفعأ أمره إلى الخليفة أنه لا يلزمهما في الصلاة ، فاستدعاه وسأله ، فقال ان تعيينه
أميرا ، دلالة على رضا الخليفة عن تدينه ، وأنه يستطيع الآن أن ينتزع هو الكفر من
قلوب الناس ، فأجازه ، ورفع عنه هذه الحراسة المقيدة التي أرهقته وأعنتته ماديا ونفسيا
لعدة سنين .

● وكان أتباع المهدي بالجملة يحترقون المصريين . ويشكون في نواياهم وفي كل حركة

تصدر منهم .. حدث ذات مرة ، أن جاويشا مصر يا كان يبيع « الترمس » وينادى عليه بقوله : « تفرج » . فأمسكه حاكم السوق ، وقال انك بهذا تدعو الله أن يعود حكم الترك مرة أخرى ، وتزول المهديّة من السودان . ثم أمر بجلبه مئة جلد . فلما اشتد وقع الشياط على جسد الجاويش أخذ يصيح « لا تفرج .. لا تفرج » . وترك الرجل هذا النداء ، واستبدله بآخر هو « خليها على الله » ، فجلد مرة أخرى بنفس التهمة ، فعدل عن كل نداء من هذا النوع ، ولعله اكتفى بقوله « ترمس !! »

وحدث مرة أن إمام أحد المساجد في إحدى القرى ، دعا الله في خطبة الجمعة قائلاً : اللهم حول حالنا إلى أحسن حال . ولما بلغ الخليفة هذا الدعاء أمر بعزل الرجل وجلده ، فلما سأله ماذا كان يمكن أن يقول ؟ .. أجيب : - « اللهم أدم علينا هذا الحال !! »

ومع مضى الزمن تسلل بعض المصريين إلى الوظائف الكتابية في بيت المال ، والفنية في مصنع البارود ، وذلك لندرة عدد المتعلمين والفنيين في معسكر المهديّة ، إلا أن عددا كبيرا من الذين نجوا من أصحاب المراكز السامية ، والمساكنة الاجتماعية المرموقة كانوا يبيعون الخبز ويتجرون في السلع التافهة ، وما أكثر ما كان يصادفهم ما صادف فوزى باشا حين أتجر في البطيخ .

وقد أصدر الخليفة أمرا بأن كل مصرى يوجد عند نقطة معينة في الشمال (خور شنبات) يهدر دمه ويقتل فوراً ، حذراً من الهرب .. ومع هذا كان بعضهم يفر ، ومنهم من مات في الطريق ، أو رد إلى الأسر فالقتل .

وظل حال فوزى باشا ومن معه على هذا المنوال إلى أن هرب سلاطين ..

● وسلاطين نمسوى من أسرة كبيرة كان يعمل أفرادها في بلاط الامبراطور ، وقد شغف بالرحلة والمغامرة ، حتى اختارته الحكومة المصرية - بناء على توصية غوردون - مديراً لدارفور عام ١٨٨٤ . فلما ضيقت عليه الحركة المهديّة الخناق استسلم بعد أن فقد كل أمل في ابقاء منطقته على ولائها للحكومة ، وقبيل تسليمه تظاهر باعتناق الاسلام وأسمى

نفسه « عبد القادر صلاح الدين » ، وظل في أسر المهدي ، ثم التعايشي إلى سنة ١٨٩٥ .
وقد هيأت له القنصلية النمساوية كل أسباب الفرار ، كما أحكم إعداد خطتها قلم الخبايا
البريطاني الذي كان يرأسه اذ ذاك السرونجت . وقد تمكن من الفرار إلى الحدود المصرية
في ذلك الوقت .. وصحبت اقامته وفراره الكثير من الحوادث الطريفة الشائكة ، أوردها
في كتابه « السيف والنار » ، الذي ترجمه السرونجت إلى الانجليزية ، واستفاد منه ، ومن
معلوماته في حمة كتشنر للقضاء على حكم التعايشي .

وما يعنيننا من قصة سلاطين أنه عند ما هرب ، حدث في أم درمان قلق كبير جداً ،
واضطرب التعايشي اضطراباً عظيماً لفراره ، وأوقع بعدد كبير من الناس الذين اشتروا
في تهريبه ، أو ظن أنه كانت لهم صلة في فراره . وقد ترك سلاطين رسالة ^(١) للتعايشي
قال له فيها بعد أن أهال عليه ألواناً من المدائح ، إنه بعد أن أقام بباب الخليفة عشرينين
استمتع خلالها بمعطفه وكرمه ، اجتذبه حبه لأهله ووطنه ، فسافر ليرام . ولكنه وهو
يرحل ، يعرب عن شدة تمسكه بالدين الحق . ويذكر أنه لن يخون الخبز والملح حتى
يدركه الموت ، ثم يقول انه أخطأ إذ لم يستأذن قبل رحيله . ولكنه يطلب العفو والسماح
ويعود فيؤكد وفاءه ، للخليفة وللإسلام ويطلب بركاته المهدية .

وقد وجدت هذه الرسالة في أم درمان بعد سقوطها ، وكان للثور عليها دوى كبير ،
ولكن يظهر أن سلاطين اتخذ من كتابتها خط رجعة له ، فيما إذا قبض عليه ، وأعيد
إلى الخليفة مرة أخرى

ويذكر « نيوفلد » الذي أورد نبأ هذه الرسالة ، أن الخليفة بعد أن ينس من إعادة
سلاطين ، أمر بأن تقرأ هذه الرسالة في المسجد ، وفي نواحي أم درمان ، وكان قصد

(١) لم يورد سلاطين هذه الرسالة في كتابه ، ولكن الذي ذكر نبأها ، هو شارل نيوفلد ،
في كتابه « سجين الخليفة » . والمؤلف الماني من المشتغلين بالتجارة أغراه ريش السودان وعاجه
وصفحه بمحاولة الوصول إليه في أيام حكم الخليفة فقبض عليه ، وكاد يشنق ، ولكن تظاهره
باعترافه بالإسلام أنجاه .

التعاشي من اذاعة محتوياتها أن يطمئن أنصاره على أن فرار سلاطين لن يحمل في اعتاقه
أى شر . كما إنه أراد أن يفهم الأسرى المسيحيين أن صاحبهم الذى فر لن يفيدهم شيئا ،
فما يزال على وفائه لأسريه ، وتمسكه بالاسلام !

والحقيقة أن موقف المسيحيين المتظاهرين بالاسلام كان حرجا ، فقد حسبوا أن فرار
سلاطين سيخلف وراءه أسوأ الظنون بالنسبة لهم . إلا أن حادثا عارضا كان قد وقع في
مطلع هذا العام ، وقام إلى حين .. وهذا الحادث هو أن أحد أنصار الخليفة (يوسف
منصور) اقترح أن « يتطهر » المسيحيون وهم الذين يسمون « المسلمانيون » وقد قبل
معظمهم اجراء عملية التطهير ، على أساليب الجراحه الخشنه التى بقيت فى ام درمان . ولكن
اجراء هذه العملية لهم ، كان سببا نفسيا من أسباب الافلال من الشك فيهم . فلما
حدثت محنة فرار سلاطين ، حمام ما أحدث فى أجسامهم قبل شهور من رد فعل سريع
ولكن عودة الرجال الذين أرسلهم الخليفة فى كل وجه للظفر بسلاطين ، دون أن
يعثروا على خبره ، أشعل نيران الغضب مرة أخرى فى صدر سيد السودان ، فجمع قضاته ،
وأخذ يشاورهم ، فقال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض ، خصوصا اذا كان
ذا وظيفة فى الحكومة . وتطوع آخر فذكر أن سلاطين كان صديقا لابراهيم فوزى ،
وكانا يشربان الخمر ، ويدخنان التبغ معا ولا بد انه علم بفرار صاحبه قبل حدوثه . وقال
ثالث انه اذا كان سلاطين قد هرب ، فلا بد أن فوزى سيهرب ، لأنه أرفع مكانة من
سلاطين فى الحكومة اذ يحمل لقب باشا ، فى حين أن سلاطين لم يحمل غير لقب بك ..
ولم يطق التعاشي صبرا ، فأرسل من أحضر ابراهيم فوزى وأخذ يستجو به عن
سلاطين ، وفوزى يتظاهر بالدعشة البالغة وهو يسمع قصة فراره ، وحاول أن يكرر القاء
الأنشودة المعتادة التى كان يطفى بها غضب الخليفة ، فقال :

— يا خليفة المهدي عليه السلام . ان سلاطين نصرانى ، ارتد عن الاسلام ، وعاد
إلى دين النصرانية ، وقد أبعد الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدي عليه السلام

في الدنيا والآخرة . ومع ذلك ، فانه لحق بمصير التي ينوي مولانا الزحف عليها في هذا العام ، ولا بد من وقوعه في قبضة المهديّة ، ويدوق جزاء خيائته وفراره .

ولكن لم تجد هذه التعويذة في الاقلال من شكوى الخليفة وهواجسه ، وأمر به ، فسيق إلى السجن ، وكان السجن يسمى السائر ، على اسم سجانه .

ووصف فوزي باشا ما حل به في طريقه إلى السجن قال : « اجتذبتني أربعة من الحراس إلى خارج الباب، وهناك اجتمع نحو خمسين منهم ، فأخذوا يضربونني حتى سال الدم من أنفي وجسمي ، ثم نزعوا عمامتي ، وشدوا بها وثاقى ، وساروا بي إلى السجن والسياط تمزق جسمي ، فلم أقدر أن أمشي إلاّ بعض خطوات ، ثم سقطت على وجهي ، وقد أغمى على ، فأمسكوني ، وأسندني بعضهم ، والبعض الآخر أخذ يضربني بالسياط حتى بلغت باب السجن . فتلقاني حراسه بالضرب بالسياط أيضا ، ووضعوا في رجلي ستة قيود يربو وزنها على أربعين رطلا ، ووضعوا في رقبتي جنزيرا كبيرا من الحديد، وأمسك الحراس عن ضربني بالسياط . فالتفت إليهم ، وقلت أسقوني ماء . فكان جوابهم إعادة الضرب وهم يقولون : مثلك لا يستحق شربة ماء ، يا عدو خليفة المهدي عليه السلام . ثم أدخلوني السجن»

و بعد أن قضى فوزي باشا ليلة في السجن ، جاءه في اليوم التالي قاضيان من قبل التعايشي يقولان له إن الخليفة رأى وجوب قتلك لأنك تعمل ما يخالف منشورات المهدي عليه السلام . فقال لهما السجين : ان خليفة المهدي أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وان المهدي عليه السلام أخبر بأنه من أهل الكشف ، فاذا كان هذا القول من عندياته فهو صادق ، وإلا فان أعداءه قبل زمن المهديّة يريدون الوشاية والتكليل به . وعلى كل حال فهو لا يطلب في دنياه وآخرته غير رضا الخليفة ، فاذا عزم على قتله فهو راض ، واذا استحياه فهو راض!!

وذهب القاضيان بهذا الجواب ، وعادا يقولان إن خليفة المهدي عفا عنه ، واكتفى بالسجن المؤبد بدلا من القتل !!

وما لبث آخرون أن لحقوا بفوزي باشا في سجنه منهم شارل نيوفلد الألماني . وفي مرة أمر كبير السجناء أن يربط الرجالن معا في حديد واحد . وتصادف أن أصيب فوزي بحمى ، وأصيب صاحبه الألماني بدوسنطاريا شديدة ، كانت تدفعه إلى قضاء حاجته كل بضع دقائق ، ولكنه لم يكن يستطيع استصحاب فوزي معه لأن الحمى كانت قد سلبت قوته . فاقام الاثنان خمسة أيام يتعذبان عذابا لم يره أحد ، حتى مرت بهما إحدى زوجات « السائر » ، وهى مصرية ، ورأت مافيه مواطنها المصرى من كرب عظيم ، فراحت تتشفع لزوجها الذى أمر باطلاقهما من القيد المشترك ، وخص كل منهما بقيده . وكان عدد حراس السجن نحو مئة . ولم تكن لهم مرتبات ، من خزينة بيت المال ، اكتفاء بما يفرضونه على المسجونين من ضرائب . والويل للمسجون الذى لا يوفى مايطلب منه ، ولا يهدى السجناء في أعيادهم وزواجهم ومولد أبنائهم .. الخ . فانه يعرى من ثيابه ، ويوضع في شمس الصيف المحرقة ، ونهال عليه السياط متواليات بغير عدد .

وقد فرض على ابراهيم فوزي أن يدفع رايالا كل يوم في سجنه ، نظير تركه وراء أحد الأبواب لكي يستنشق الهواء من شقوقها . ولم يكن يملك مالا ، ولكن كان يتولى عنه هذه الضريبة تاجر يونانى كانت له بفوزي باشا صلات قديمة أيام أن كان حاكما لمديرية خط الاستواء . وظلت هذه الضريبة تدفع حتى سقطت أم درمان في يد العساكر المصرية بعد خمس سنين طويلة .

وحدثت للسجين مفاجأة سيئة ، فقد نعى إلى السجناء ، أن ابراهيم باشا فوزي ، قريب الخديوى عباس ، فلما أنكر هذه القرابة ، ساقوه ضربا بالسياط إلى كبير السجناء ، وذكروا له إنه قل عن التعايشى « خليفتمكم » ، ولم يقل خليفة المهدي . فاج المسكين في الانكار ، عسى أن يغاث من عذاب الجلد ، واستشهد بشارل نيوفلد

فاحضروا شارل وهم يوسعون في الطريق ضرباً ، ولما أيد شهادة فوزى أمر كبير السجانيين بأن يجلد الألماني خمسين جلدة ، وأن تضاعف قيوده ، لأنه لم يحسن الشهادة . أما فوزى باشا ، فقد صنع به هذا الصنيع ، وزج به في غرفة الاعدام ، حتى يستصدر صاحب السجن أمراً بالتنفيذ . وبعد شفاعه ، وضراعه ، قبل أن يتقاضى عشرين ريالاً على أن يسكت عن ابلاغ الخليفة ..

ولم يكن فوزى باشا يملك دانقاً واحداً ، ولكنه كان يملك عبداً اسمه « لدوم » إذا باعه لا يتقاضى من ثمنه هذا المبلغ . كما أنه أصر على عدم بيعه ، وآثر الاعدام ، لأن « لدوم » كان يطوف كل يوم بيوت المحسنين من معارف فوزى باشا ، يجمع منهم هباتهم لكي تقتات أسرة السجين . وفي آخر الأمر رثا لحاله اثنان من أغنياء بربرسجنا على أثر فرار سلاطين ، وقاما بدفع هذا المبلغ ، وبذا نجح من موت محقق .

وكان لابراهيم باشا فوزى ابن اسمه محمد ، وقد اقترن ميلاده بشبهة المؤامرة التي التصقت بأبيه في الأيام الأولى لسقوط الخرطوم . وقد شب هذا الغلام ، وكان في السابعة لما سجن أبوه .. ومضت شهور السجن حتى أصبحت أعواماً ، فلما زادت على ثلاث سنين ، أوعز فوزى باشا لابنه محمد ، وكان قد جاوز العاشرة ، أن يذهب إلى الخليفة يستعطفه لاطلاق سراح أبيه .

وكانت هذه الشفاعه شرا على الجميع . فقد قال الخليفة : هل يلد الثعبان إلا ثعباناً ، ثم أمر به فوضعت القيود في قدميه ، ثم أمر أحد أعوانه بأن يسجن الغلام عنده ، وأن يوكل اليه خدمة الخيل .

وقد جن فوزى باشا لسجن ابنه ، أو كاد . وظل في هذه الحالة الأليمة حتى أنقذت الجميع جيوش الفتاح .

الفرج

لم يكن اعداد الحملة المصرية الانجليزية لاستعادة السودان متفقاً تماماً مع خطة الحكومة البريطانية. فقد كان التصميم الأول يقضى بأن تفتح السودان من الجنوب قوات من الامبراطورية ، تقتطع أجزاءه من الدولة المهدية تبعاً .. إلا أن عاملين، حملاً على أن يكون الفتح من مصر ، وهما تقدم الفرنسيين في منطقة بحر الغزال ، والرغبة في مساعدة القوات الايطالية، التي هزمها الأحباش هزيمة منكرة في عدوة، على الانسحاب دون أن يضايقها الدراويش .

وقد أعدت هذه الحملة حسب ما تقضى به القواعد العسكرية الدقيقة ، إذ نظر إلى مواصلاتها ، وتقرر أن يكون وراءها خط حديدى يصلها بحلفاء .. كما أحسن تمويلها وإمدادها بالأسلحة والذخائر الكافية .. وأضيفت إليها مجموعة من البواخر النهرية المسلحة كانت ذات أثر قوى جداً في تدمير القوات المعادية . وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الحكومة المهدية في السودان لم تستطع أن تقيم قواعد ثابتة لتموين الأهالى ، مما أدى إلى انتشار المجاعات الذريعة ، التي لم يكف في التخفيف من فتكها الدعوات ، ولا قراءة الرواتب المهدية المقررة .. كل هذا أضعف الحماسة للحركة الانقلابية ، وأكثر من أسباب التذمر ، والرجاء في أن تعود مصر إلى السودان كما كانت بخيرها وعدلها^(١) ، وإن كان

(١) عند ما بدأ ابن النجوم زحفه على مصر ، اشتبك مع الحماية المصرية أول مرة عند « أرغين » وقد نصف جنده هناك ، ثم أفنى بقية الجيش في معركة « طوشكى » كما ذكرنا . وقد كتب أحد الدراويش الى أهله قبل « أرغين » يقول إنه ذبح فرسه في ليلة المعركة ، وتمشى من لحما هو ومن معه ، وادخر الباقي لى يوصله الى حدود (الكفار) المصريين ، وهناك سيجد طعاماً أو فرس . والجندي الذى يضطر الى ذبح فرسه ، لابد أن يكون هو ومن معه في ضنك شديد .

هذا لم يمنع الخليفة عبد الله ، من أن يعتمد على قبيلة البقارة القوية ، ذات الجذ في الحرب ،
والحماسة في القتال ، وعلى آخرين ما تزال قلوبهم متدفئة بالحرارة الدينية .

ولنلق الآن في الخرطوم ، وفي سجن « السائر » بالذات الذي ضم كبار الأسرى ،
وعلى رأسهم إبراهيم باشا فوزى ، لنستعرض أبناء الزحف المصرى هناك . فقد كان
الحديث يكثر في كل مكان عن « شيطان من حديد » يستعين به الكفار في زحفهم ،
ولم يكن هذا الشيطان غير القطار الحديدي الذي تده الوحدات المصرية ، والذي لم يكن
لمعظم السودانيين عهد به .

وفي كل لحظة ، كانت تأتي الأنباء بهزيمة الجيش المصرى ، وانتصار
« الأنصار » . ولكن زج في السجن بعض السودانيين الذين هجروا القوات الزاحفة
إلى صفوف الدراويش ، فشك الخليفة في أنهم جواسيس كتنشروا أمرهم فسجنوا .. ومن
هؤلاء ، عرف المسجونون كل ما حدث ..

تحرك الجيش من عكاشة إلى فرقة في طابورين ، أحدهما بجذاء النهر وهو مكون
من ٧ آلاف جندي والثاني من طريق الصحراء شرق النهر وكان مكوناً من ٤ آلاف
جندي . وكانت الأوامر تقضى بالزحف ليلاً ، وأن يكون المسير في هدوء تام ، وكل من
يشعل سيجارة ، أو ناراً من أى نوع يعذب فوراً .. وقد أثبت المصريون في زحفهم الليلي
أنهم على أعلى درجة من درجات النظام ، باراء هذا الامتحان الدقيق لقوة أعصابهم أثناء
زحفهم الليلي^(١) . وبعد سير طويل اقترب الفجر ، وأخذ طابور الصحراء مكانه
مواجهاً لمعسكر الدراويش الذي كان يقوده حموده ادريس . وفوجئ جند التعايش
مفاجأة تامة بسيل منهم من القنابل والرصاص ينصب عليهم انصباباً . وبدأت المعركة ،
واستمرت ساعة ونصف ، وانتهى القتال بالقضاء على قوة العدو . وفقد المصريون عشرين
قتيلاً وعانى جرحى ، وفقد الانجليز قتيلاً واحداً . وقتل من جيش الدراويش قائدهم
حموده ، وعدد كبير من أعوانه وجنوده قدر بثمانى مئة في نفس الميدان .

(١) هذا من كلام « أنريدج » الراسل الحزنى الذى كان مرافقاً للعملة . وقد امتدح بسالة المصريين
والسودانيين امتداحاً كبيراً في جميع مراحل القتال ، وأثنى على بسالتهم العسكرية الفريدة .

ومن مفاجآت الحملة . أن جنديا سودانيا في القوة المصرية وجد أباة - وكان من الدراويش - قتيلا في ميدان المعركة ، فلم يبد تأثرا كبيرا . إلا أنه استأذن في غسله ودفنه . فأذن له .

وتابع الجيش المصري مطاردة القلول الهاربة ، وأوقع بها خسائر جسيمة رفعت عدد قتلاها إلى ألفين ، منهم أربعة وأربعون أميرا وشيخا .

وكانت هذه الهزيمة ضربة قاضية على دفاع الخليفة عن مراكزه الشامية ، فأخذ ينسحب منها واحدة بعد الأخرى . ولو أن الجيش المصري لم يواجه قوة يعتد بها ، إلا أن مرض الكوليرا هاجمه . وبذلت جهود جبارة لإيقاف سريان العدوى بين المعسكرات حتى أمكن إنهاء الوباء بعد أن تكبد المصريون منه خسائر ليست قليلة .

وعند ما وصلت القوات المصرية النهرية إلى دنقلا واستولت عليها . أمكن أن يضاف من نهر النيل ٤٥٠ ميلا كانت تحت الحكم المهدى . وكان من بين الذين أسروا في طريق الزحف الأمير حسن ولد النجومي ، أخو عبد الرحمن النجومي الشهير .

وكانت هذه المعلومات وهي تلقى إلى فوزى باشا وأصحابه ، تزلزل كيانهم لهفة وشوقا ، وكلما كان وقت خلاصهم يدنو ، كان قلقهم يزداد ، ودق قلوبهم يدوى دوى الطبل بين جنوبهم .

ولم يكن فوزى باشا ومن معه هم وحدهم الذين استبد بهم القلق ، ولكن معسكر الخليفة أيضا بدأ يروع بهذه الأنباء الخيفة . ولم يكن عبد الله يبنى بسلسلة الهزائم التي حاقت بمجنوده على شواطئ البحر الأحمر ، وعند الحدود المصرية ، بل ربما سر من بعضها لأنها خلصته من بعض ذوى الرؤوس الصلبة . أما الآن فقد تغير الأمر ، وتبدلت الأحوال . أقبل عثمان دقنة على الخليفة ، فسأله :

— ماذا لديك من الأنباء ، وكيف حال الأنصار ؟ فأجاب

— سيدى .. قدت الأنصار إلى الجنة !!

وتقد تعود الخليفة على سماع هذا الرد ، وهو يستمع إلى الهزائم ، فكان يقبله ساكناً ،
أما الآن فقد زال السكون ، وقال الخليفة لقائده :

— ولماذا لم تلحق بهم إلى الجنة ؟ فأجاب عثمان :

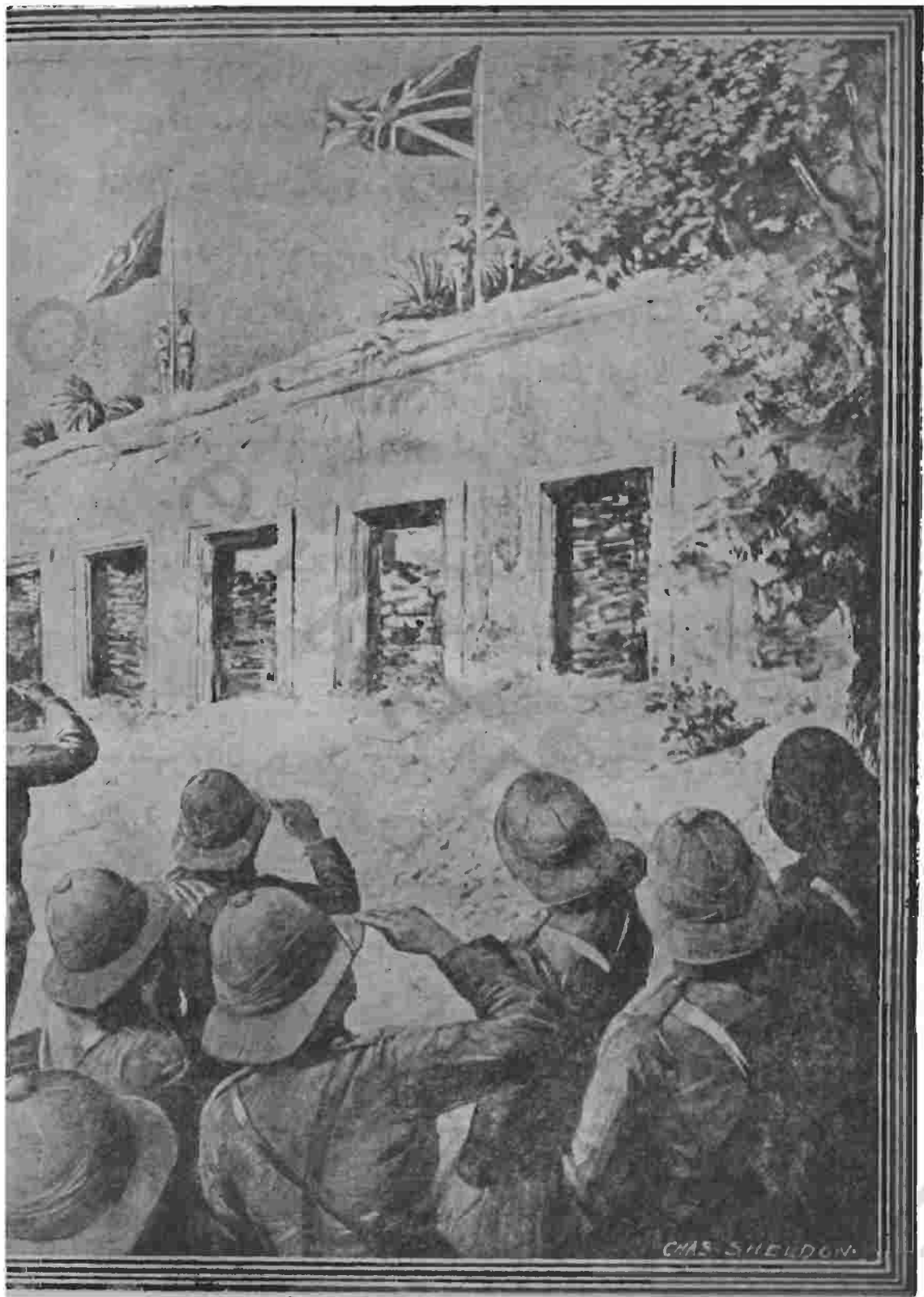
— لم يأذن الله بعد . ولعله سبحانه وتعالى ادخرنى لعمل مهم سأقوم به .

وهكذا بدأت أم درمان تحس بالقبضة الثقيلة التي بدأت تطبق على عنقها .
وكانت مهمة السجناء تنحصر في أمرين : أولهما امداد جيش الفتح بأدق المعلومات
عن حالة جيش الخليفة ، وعدد بنادقه ، ومواقع طوابيه ، ونوع بنادقه وهكذا .. ولم
يكونوا يعدمون وسيلة لهذا ، ولا سيما أن الماجور ونجبت ، رئيس الخبايا كان معنياً
بأن يرسل لهم الرسل في أزياء مختلفة للوقوف على ما يريد . وأما المهمة الثانية ، وهي
هامة جداً ، فكانت تتلخص في اقناع أمير السجن « ادريس السائر » في أن يحسن
معاملتهم ، وأن يبقى على حياتهم . وقد قص فوزى باشا على ادريس ما حدث في أثناء
الثورة العرابية ، فقد كان في سجن القاهرة مدير عذب مسجونيه وأذاقهم عذاب الهون ،
وفي الاسكندرية آخر أحسن معاملتهم وهياً لهم أسباب الحياة والراحة حتى أقبل جيش
الغزو .. أما الأول فقد فر ، ولكنه أحضر ، وشنق في السجن . وأما الثاني فقد رقى
وأبقى في مكانه .

ولم يكف ادريس عن تقاييب الأمر على وجوهه : هل يبقى مع سجنائه ، وينتظر
الفاحين ، أم يقتلهم ويفر مع التعايشي ويشاطره مصيره ؟.

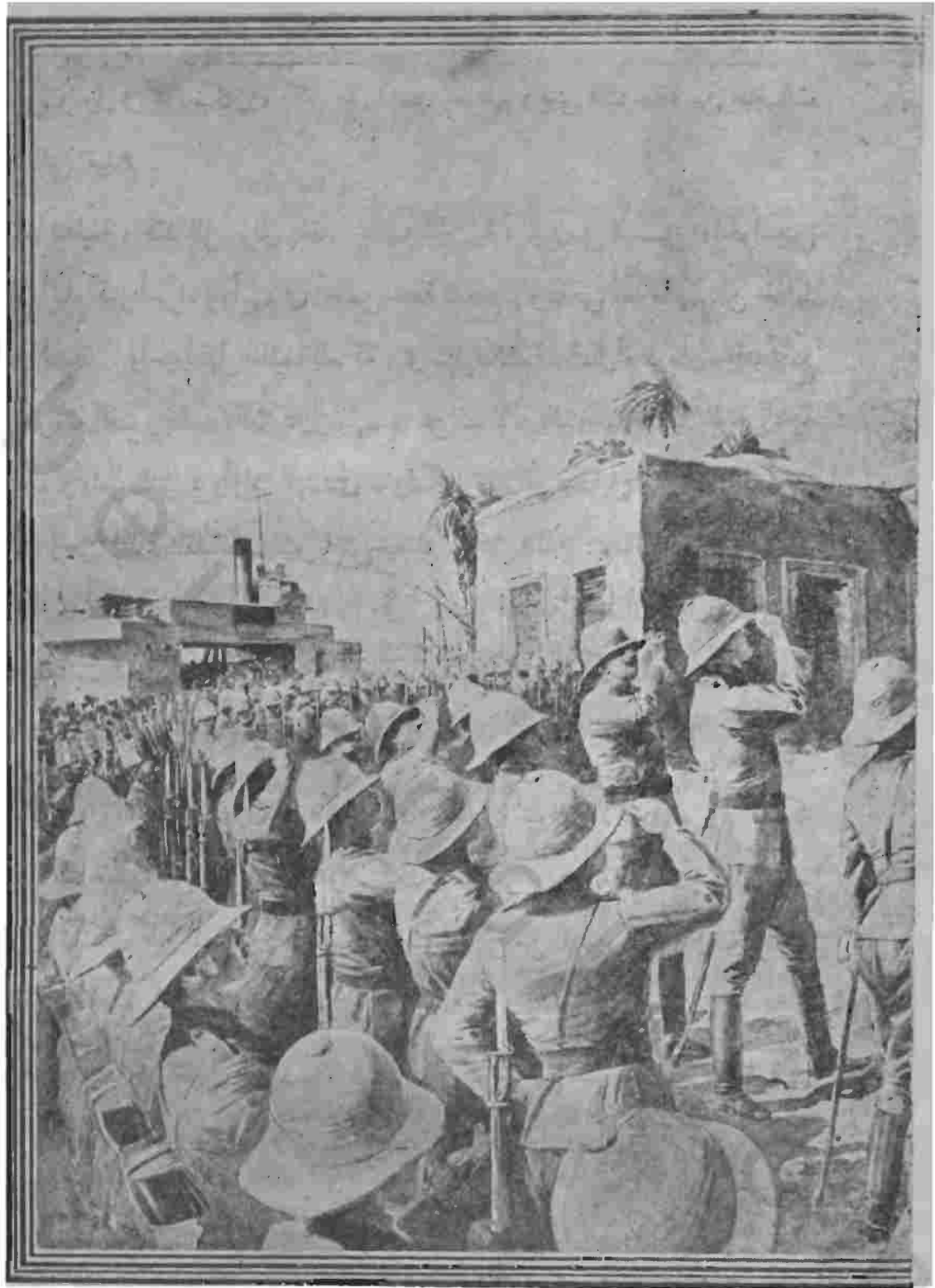
وأخيراً .. أخيراً تغلب الرأي الأول . وكلما تقدمت الحملة في زحفها ، كلما ازداد
احساناً إلى من عنده حتى انتهى به الأمر إلى أن أودع جنوده من البقارة المتحمسين في
زنايات الاعداء وغيرها ، ووكل إلى الأسرى حراستهم .. فسبحان مغير الحال !

وأدت اتصالات السجناء بالجيش الزاجف إلى تحديد موقع السجن ، فلما اقتربت
السفن المسلحة من مواقعها المدة لك الاستحكامات والطوابي ، كانت القنابل تمر فوق



عنبرما سقطت الخر

مسورة تذكارية فريدة لوحدة الجيش الانجليزي ، وقواده ، وقد اصطفت وراءهم وحدات الجيش وهذه هي المرة الأولى التي رفع فيها العلم الانجليزي في



طوم في بر كفسر

المصري وهم يرفعون العلمين المصري والانجليزى على انقاض سراى الحاكم العام التى قتل فيها غوردون
السودان ، وما يزال حتى الآن مرفوعا بجوار العلم المصرى .

السجن ، وتنزل في كل مكان ، وكان كل انفجار حولهم ، يعنى فك حلقة من حلقات الحديد التى تقيدهم .

أما الخليفة ، فقد ظل يوالى عقد مجالسه الحربية ، ويرسل الرسل والجواسيس يستطلع أنباء كبار أسراه ورأيهم في أحسن خطة للدفاع ، ويتقصى معلوماتهم عن خطط كتشتر المحتملة .. وأخيراً قبل الخليفة المعركة ، في سهل مكشوف شمال أم درمان ، وقد تجمع حوله نحو مئة ألف ربطهم به ما كان ينبئهم به عن اتصالاته بالسماء ، وهبوط الوحي عليه بالنصر ، وأوامر النبي ، وأوامر المهدي ، ولكن يظهر أن قنابل المدافع لم تكن تتلقى أى وحي سماوى فقد حصدت الجيش حصداً ، وقتل قائدها يعقوب أخوه ، وشيخ الدين ابنه ، وعدد عظيم جداً من المقاتلة .. وفي أثناء فرار الخليفة ، بعد أن حاول جمع نسائه ومتاعه ، كانت قبة المهدي تنهار تحت قنابل المدفعية وكان الحكم كله يذوب ويحول إلى الأبد ، ومعه جميع أقطابه ورجاله من خليفة وأمرأ .

وكان أول الأسرى الذين استدعاهم السردار شارل نيوفلد الألماني ، ولم يذكر شارل في كتابه شيئاً عن فوزى باشا ، ولا كيف أطلق سراحه ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن فوزى باشا كان كبير المصريين في السودان ، ولم يكن من المهم أو اللازم أن تذكر سيرة هذا القائد وتفاصيل إطلاق سراحه وعودته إلى وطنه !

وقد عاقب القدر شارل نيوفلد عقوبة عادلة بأن قوبل من السلطات البريطانية في القاهرة بجفاء كبير ، ووصف بأنه كان يصنع للخليفة البارود الذى قتل به الانجليز في حملة الغزو ..

هذا مجل سيرة مصر وتضحياتها الشعبية في السودان ، وهذه قصة قائدها هناك ، وآلاف مؤلفة من أبناء مصر ، وما ذاقوه من نكال في أيام الأسر . ومن أهمل — من الجميع — بعد عودة الحرية

ملخص النواحي الهامة:

سنة

١٨١٩ قرر محمد علي باشا فتح السودان وضمه إلى مصر .

١٨٥٧ زار سعيد باشا السودان .

١٨٦١ شرع السر صمويل بيكر في كشف أعالي النيل .

١٨٦٩ عين الخديوي اسماعيل السر صمويل بيكر قائدا لحملة ضم منابع النيل إلى مصر .

١٨٧٤ عين الخديوي اسماعيل الجنرال غوردون لمواصلة ضم منابع النيل إلى مصر .

١٨٧٥ اشترى الخديوي اسماعيل ميناء زيلع من سلطان تركيا، وامتد حكم مصر حتى برره

١٨٧٦ عقد غوردون مع متيسا ملك أوغندا ، وأوفد اليه شنتزلر (Schnitzler)

أو «محمد أمين» ممثلا للتاج المصري .

١٨٧٧ بعد انتهاء خدمة غوردون في العام الماضي ، عاد الخديوي فعينه حكمدارا عاما على

السودان بما فيه مديرية خط الاستواء . وفي هذه السنة أمر غوردون باخلاء

ميزندى وكيزومو ، وهى من المحطات الرئيسية في منطقة المنابع .

١٨٨١ أعلن محمد احمد مهيته ، وبدأ نشر دعوته الدينية .

١٨٨٢ احتلت الجنود البريطانية مصر بعد هزيمة عرابي باشا في التل الكبير .

١٨٨٣ سقطت الأبيض في يد المهدي . وفي نفس السنة اجتاحت عثمان دقنة مراكز

الحاميات المصرية في شرق السودان . وفي نوفمبر من هذا العام دمر المهدي جيش

الجنرال هيكس تدميرا تماما جنوب الأبيض نتيجة أخطاء فاحشة ارتكبتها

قيادة الحملة .

١٨٨٤ في فبراير من هذا العام أوفد غوردون إلى الخرطوم بتفويض لاخلاء السودان

وفي ٢٦ مايو من هذا العام سقطت بربر وقطع خط الاتصال بين مصر والسودان

وفي هذا الوقت بدأت حملة نهريّة بقيادة اللورد ولسلي (Wolsely) تتحرك لانتقاذ

غوردون . وفي سبتمبر أرسل غوردون مساعده الكولونيل ستيوارت لشرح الحالة والتعجيل بارسال نجدة فذبح في الطريق .

وفي هذا الوقت استولت بريطانيا على بربره وزيلع من الأملاك المصرية وأضافت هرر إلى أملاك نجاشي الحبشة .

١٨٨٥ في ٢٦ يناير سقطت الخرطوم ، وذبح شارلس غوردون و ٢٤ ألف مصري من المدنيين ، وسييت ٣٥ ألف فتاة وسيدة من المصريات وهذا غير الحاميات العسكرية . ولما علمت حملة الاتقاذ بسقوط الخرطوم عادت إلى الشمال .

وفي هذا العام احتل الايطاليون مصوع وانسحبت منها الحامية المصرية . وانسحب امين باشا حاكم خط الاستواء إلى وادلاي .

وفي هذا العام حاولت انجلترا أن تستولي على شاطئ البحر الأحمر السوداني وأن تنشئ خطا حديديا إلى بربره ، فوافدت قوة قوامها ١٣ ألف جندي تحت قيادة الجنرال جراهام . ولكن عثمان دقنة لم يمكنها من إتمام مهمتها .

وفي يونيو من هذا العام مات المهدي ، وخلفه عبدالله التعايشي . وفي ٣٠ ديسمبر من هذا العام حاولت جيوش الخليفة عبدالله أن تتجتاح الحدود المصرية ، فردتها الحامية المصرية هناك ، وأوقعت بها خسائر فادحة .

١٨٨٧ في هذا العام والعامين التاليين ثارت دارفور على الخليفة عبدالله . وأخذت قبيلة الكبايش في شمال كردفان ترهق حكم التعايشي بانتفاضتها .

١٨٨٨ في ديسمبر حاصر عثمان دقنة فارس السودان الشرقي آخر معاقل مصر ، وهي مدينة سواكن . ولكنه هزم ورد عن المدينة بخسائر كبيرة .

١٨٨٩ في صيف هذا العام حشد التعايشي جيشاً عظيماً تحت قيادة أظهر قواد المهديه عبدالرحمن النجومى ، لكي يغزو مصر ، وفي أغسطس دارت المعركة الحاسمة عند « طوشكى » بين اسوان والشلال ، وقد تمزق جيش الدراويش وسقط

النجومى قتيلا ، وبددت هذه الهزيمة أحلام التعايشى فى غزو مصر إلى حين ، وأقيمت فى مكان المعركة مقبرة فخمة تذكارا لهذه المعركة .

١٨٩٧ تمت معدات الحملة لاستعادة السودان فى العام الماضى ، تحت قيادة كتشير ، وفى أغسطس من هذا العام احتلت أبو حمد ، وفى سبتمبر احتلت بربر .

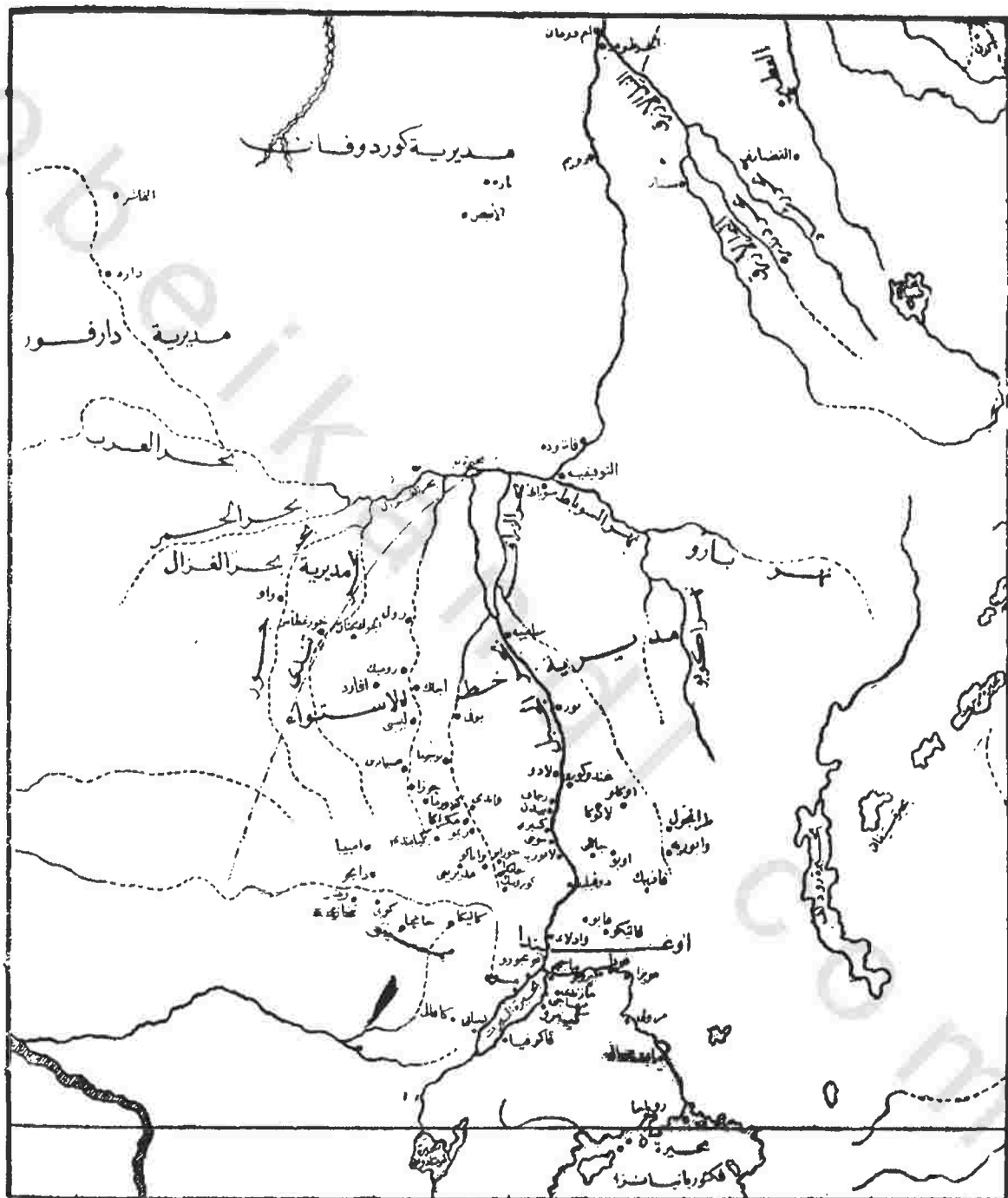
وكانت القوة المصرية مكونة من عشرة آلاف جندي وكان عدد ضباطهم ٣٣٢ ضابطا . وتألقت القوة البريطانية من ٣٣٥٧ جنديا و ١٠١ ضابطا .

١٨٩٨ فى ٨ ابريل احتلت قوات الفتح عطبرة . ثم زيد عددها إلى ١٧٦٠٠ جندي مصرى وسودانى و ٨٢٠٠ بريطانى . وكانت الوحدات المصرية تمتد فى زحفها الخط الحديدي الذى كان أكبر عون للحملة على انجاز مهمتها بنجاح .

وفى ٢ سبتمبر حدثت المعركة الحاسمة بين جند الخليفة وجيش مصر ، فهزم الدراويش شر هزيمة شمال أم درمان . وكانت خسائر الجيش فى هذه المعركة ٥٦ قتيلا و ٤٣٤ جريحا . وبهذه المعركة انتهت الدولة المهدية .

وفى هذا العام حاول الفرنسيون أن يفتالوا جزءا من السودان ، ووصل مارشان إلى فاشوده ، فأسرعت القوات المصرية لتخليص منطقة بحر الغزال ، وفى ديسمبر انسحب الفرنسيون .

١٨٩٩ استقال شريف باشا من الحكم وحل محله بطرس غالى باشا الذى قبل توقيع اتفاقيتى الحكم الثانى .



حواش افندى . . وقصص أخرى

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين »
« اووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . »

— ١ —

● نحن الآن في مديرية خط الاستواء مرة أخرى ، وفي عام ١٨٧٨ م . وهذا هو العام الذى أصدر فيه غوردون باشا حكمدار عام السودان ، أمراً بأقالة ابراهيم بك فوزى من حكمدارية خط الاستواء لسماعه وشاية أحد السياح فى حقّه ، وعين مكانه طيبب المديرية وهو ألمانى اعتنق الديانة الاسلامية فى تركيا وتسمى باسم محمد أمين . . وقد منحه غوردون لقب بك وأعطاه السلطات اللازمة لمباشرة مهام منصبه .

وقد بدأ أمين بتقسيم المديرية إلى ثلاثة أقسام عين لكل قسم وكيل حكمدار ، الأول فى « مكراكا » (نيام نيام) فى الشرق ، والثانى فى الوسط ومقره « كرى » ، والثالث فى الجنوب ومقره « ماجونجو »

● وفوجى ، أمين فى مستهل عمله بأمر غريب صدر له من غوردون ، وهو أن يخلّى منطقة المنابع الواقعة جنوب نيل فيكتوريا ، ويقصر حكمه على الشمال . فتلكاً فى تنفيذ هذا الأمر ، فلما أصر غوردون ، نفذه ولكنه عاد فاحتل المناطق التى اخلاها بمجرد علمه بتنحي غوردون عن حكمدارية السودان .

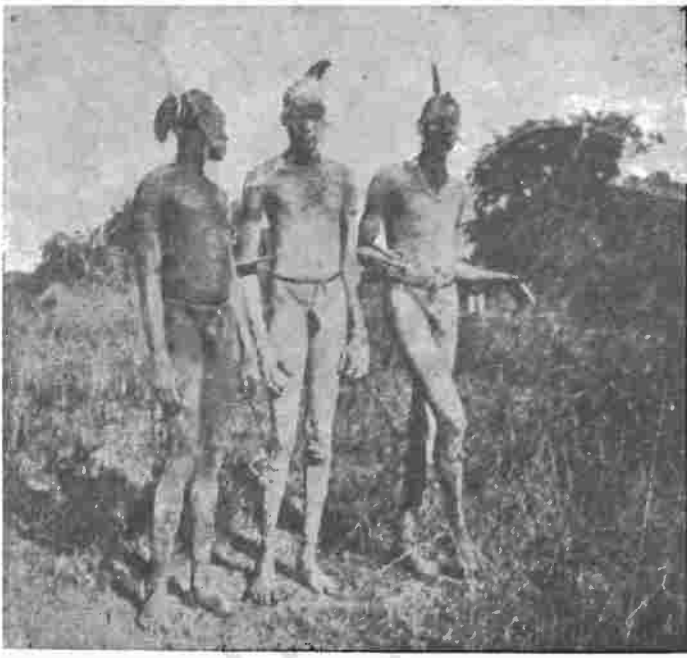
وفى هذا العام بدأت صلات أمين الودية تزداد بالملك متيسا صاحب أوغنده ، وقد جاءته منه هدية مكونة من عنزتين ، ومزراقين ، وترس مصنوع من القش ، وحوضان من الفخار ، وحذاء ، وقطعة من قشور الشجر مشغولة ، ومديتان من صنع أوغندا .

وقد عني أمين بك بتوطيد الأمر في مديريته لدرجة أن أحد المبشرين ، واسمه فلكن ، قام في العام التالي برحلة إلى البحيرات ، ذكر عنها أن الانجليز في انجلترا مسخروا من فكرة امكان الوصول إلى أوغندا بطريق النيل ، حتى أن ستانلى أكد له إن هذه البعثة لن تصل ومعها نصف أمتعتها . ومع ذلك وصل أفرادها من « سوا كن » إلى « روبا جا » ولم يفقد منها طرد واحد .

وذكر هذا المبشر أنه عند ما وصل إلى « الرجاف » وجد قائد محطتها اسماعيل افندى خطاب ؟ وقد وصفه بأنه ألطف مصرى وقعت عينه عليه . وسر سروراً لا مزيد عليه إذ أهداه اسماعيل افندى كميات من البن والسكر والصابون وكانت العاصمة في هذا الوقت قد نقلت من الاسماعيلية « غوندوكورو » إلى « لادو » ، وهى فى غرب النهر وإلى الشمال قليلا من العاصمة القديمة .

● وظل أمين بك منذ تعيينه حكمدارا لخط الاستواء مدة عامين ، وهو ينفق على مديريته من دخلها المعتدل ، دون أن يتلقى اعانة من الخرطوم . ولم تتأخر رواتب الجند مطلقاً . فلما كان عام ١٨٨٠ جاء البريد إلى أمين بك من الخرطوم فاذا به يتضمن عزله من مديريته ، وتوليته عملاً آخر فى سوا كن ، لأنه تردد فى تنفيذ الأمر الصادر له باخلاء منطقة البحيرات . وقد حزن أمين حزناً شديداً ، ولكن ما لبث هم أنه انفرج عند ما وصلته المعلومات بسفر غوردون وتولية رؤوف باشا الذى تولى قيادة الجند فى هذه المنطقة الجنوبية مدة طويلة . وقد ألقى رؤوف أمر العزل ، وثبت أمين بك فى عمله . وزاد سرور أمين بك أن يده أطلقت فى اقامة المحطات أينما أراد والتوسع فى نشر الحكم المصرى على أوسع نطاق .

● وقد استطاع هذا الحكمدار أن يدخل زراعة الارز والبن فى مديريته ، فأنتجت أحسن النتائج ، وكان محصولها مجزياً . وذكر صيدلى المديرية واسمه فيتا حسان افندى أنه لا يوجد مرض أو داء عضال فى « لادو » العاصمة ، ولا فى محطات الحكمدارية الأخرى



ولم يتقدم اليه للعلاج إلا أربعة مرضى بالحُمى الصفراء ، وقليلون جداً مرضى بأمراض سرية نقلها التجار إلى الأهالي. وقلما تجد انساناً هناك يشكو من ألم في عينه أو أسنانه، فعميون وأسنان السودانيين ليس لها نظير في كل بلاد العالم. وأقام هذا الصيدلى عشرة أعوام في المديرية، هي طول مدة خدمة أمين

زنج ارستقراطيون ، وقد صفوا شعرهم حسب مودة خاصة ، وزينوا صدورهم بمقود الحرز . وهم من سكان مديرية خط الاستواء

يك ، وكان من الموظفين معه بناء ، ونجار ، وحداد ، ونقاش ، وسمكري ، وهؤلاء يتقاضون

رواتب شهرية، غير أجر ما يصنعونه للموظفين أو الأهالي . وهكذا وفي الخديوى اسماعيل بتنفيذ لأمرته في تنظيم السودان ، فبدأت هذه المناطق تعرف المساكن المبنية بالطوب ، بدلا من القش ، وحتى المستشفى والصيدلية عرفتهما . ولا غرو فان الحكماء كان طبيبا .. وما يزال .

● واحتكرت حكومة المديرية التجارة ، وعلى الأخص تجارة العاج. وخصص ايراد العاج لسداد الضرائب. وحددت أسعار ريش النعام بـ ١٨ ريالا لأحسن أنواعه ، وأقلها ثلاث ريالات . وكانت البواخر تقوم من لادو وغيرها محملة بالعاج والريش والجلود ، وتعود بالأحذية والمظلات والمنسوجات والصابون والسكر والبن والشاي والخرز وغيرها . . وكانت العملة قليلة ، وأساس التجارة هو التبادل النوعى . ولم يصل إلى هذه المنطقة من النقود خلال عشرة أعوام سوى ٥٢٠٠ ريالا نقداً . في حين أن كل باخرة كانت تجلب سلماً قيمتها نحو ٣٠٠٠٠ ريالا بدلا من صادرات المديرية .

ولم تكن المديرية تصدر الذرة والسمسم والفول والشهد والزيت وغيرها من الحاصلات لحاجة الاستهلاك المحلى اليها .



وقدر ثمن أردب الذرة

ب ٢٨ قرشاً ، والسهم ٦٠

قرشاً ، والفول ٢٥ قرشاً

ورطل الشهد ١٥ ملياً ،

ورطل الزيت ١٢٥ ملياً .

● في هذا الوقت كان

يتولى قيادة محطة «مكراكا»

منظر فريد لمفاجآت الوحوش في السودان . فقد فاجأ وحيد القرن ، فرسا مربوطا في شجرة ، فكان فريسة مستساغة : ولم ينج الفرس استغاثة المتصاة

(نيام نيام) يوزباشى مصرى اسمه حواش افندى منتصر . وقد بدت عليه من دلائل المهمة واليقظة ما جعله من خيرة الضباط غيرة على تنفيذ الأوامر ونشر الأمن والعدل بين الأهالى .

وحدث في هذا الوقت أن أضيفت إلى المديرية منطقة جديدة هي مركز « رول » ، كانت مضافة من قبل إلى بحر الغزال ، وفي إحدى بلاد هذا المركز واسمه « ممبتو » اعتدى الأهالى على رحالة اسمه « جونكر » فما كان من أمين بك إلا أن نقل قائد «نيام نيام» إلى هذه المنطقة ، لكي يعيد إليها الأمن ، ويوطد دعائم القانون ، فسار حواش افندى على الفور على رأس ٥٠ جنديا إلى منطقة العضيان ، فاذا به يعلم أول وصوله إلى حدودها أن الحامية أيدت وكانت مكونة من ٨٠ جنديا . فلم يأس أو يتراجع ، بل استأنف السير السريع بقوة الصغيرة ، وكثب إلى الحكمدار :

« قتلت حامية ممبتو . سأنتقل إلى هنالك لأعاقب الزنوج على ما جنت أيديهم وأنتقم نسعتك . فاذا سامنى الله من هذه الواقعة ، وظلت على قيد الحياة أحطنتك دلما بالنتيجة »

وأول ما عمله حواش افندى ، أن ذهب إلى قرية الطويل ، وتبادل الدم مع شيخها . وبذا ارتبط مع قبيلته بحلف أبدي ، دفاعى هجوى ، لا خيانة فيه ولا نكوص . وهكذا

أمكنه بقطرات من الدم سفكها من ذراعه باختياره أن يضم إلى وحدته ٣٠٠ زنجي مسلحين بالبنادق ، لا سبيل إلى توقع الغدر منهم ^(١) . وفي قرية أخرى أجرى تبادل الدم مع شيخها ، وحصل منه على ١٨٠٠ رجل مسلحين بالحرايب . وتنقل إلى الشمال أيضا ف عقد معاهدة دم ثالثة ^(٢) حصل منها على ١٥٠٠ رجل آخرين .

واستطلع حواش افندى القوة في المنطقة الثائرة فلم ان عدة محاربها ٣٦٥٠ رجلا ، فهجم وفاجأ قوات عدوه وهزمه ، وظل يطارده في الغابات سبعة عشر يوما . وكان شيخ المنطقة الثائرة ، واسمه « مامباجا » واسع الخيلة جم الدهاء . فبعد ان انهكه الطلب ارسل إلى حواش افندى رسولا يحمل اربع سلال مليئة بالتبن ، وقال له : « ان سيدى يخبرك أن لديه رجالا عددهم مثل عدد التبن الموضوع في هذه السلال ، وهو يؤثر أن يكون صديقك على أن يكون عدوك . وينصحك لمصلحتك أن تكف عن مطاردته »

فأخرج حواش افندى على الفور علبة كبريت من جيبه ، وقال للرسول اذا عدت إلى سيدك ، فافعل مثلما افعل . ثم قلب السلال ، واشعل فيها عود كبريت . وقال له : انه وان يكن رجالي أقل عددا من رجالك إلا ان واحدا منهم يستطيع أن يعمل في رجالك مثل ما عمل عود الكبريت في التبن !!

وحاول زعيم الزوج « مامباجا » ان ينفذ وعيده فجمع عددا عديدا من رجاله ، وهاجم محطة حواش افندى ، فأمر القائد رجاله — مشددا — ألا يتحرك منهم أحد حتى يصدر لهم أمره مها حدث . وفهم الزوج الذين معه ما قصد .. فلما أصبح العدو قريبا جدا اخذت البنادق تحصد رجاله فينساقطون كاوراق الخريف ، في حين لم يصب عسكر الحكومة

(١) يطلق سمو الأمير عمر على معاهدة الدم بقوله : « لم يحدث في السودان مطلقا أن أحد الموقعين عهد الدم نكث عهده ، ويصح ان يحتذى الرجال الذين يطلق عليهم كلمة متمدين بمنوحشى افرقية في المحافظة على المهود »

(٢) الطريقة في تبادل الدم هي أن يجرح كل من المتعاهدين نفسه ويقمس في دمه حبة بن يتبادلها مع اخرى غمست في دم زميله ، ثم يبلغ كل طرف حبة صاحبه .

وحلفائها بشيء لأنهم أقاموا متاريس من أخشاب الشجر وقفهم من كل شيء . وارتد مامباجا بعد أن خسر ٣٥٠ قتيلًا . فلما كان الليل سحب حواش افندي جنوده إلى مكان قريب ثم أشعل نارا قرب معسكره ، فظن العدو أن المعسكر نفسه يحترق ، واسرع يقضى عليه ، ويظفر بفنائم الحكومة ، وما أن اقترب حتى أصبح بين نار البنادق ولهب الحريق ففقد ٤٠٠ قتيل آخرين .

وقد كفت هذه الضربات المتلاحمة في اقناع جميع اهالى المنطقة بان قوة الحكومة لا تقهر ، وان حيلها لا تنفذ ، فأقبل جميع شيوخ القبائل ، وعقدوا مع حواش افندي معاهدات الدم ، وهكذا كثرت جراح السلم في جسمه ، وان لم تؤذه جراح الحرب حتى الآن .

ولما وصلت هذه الانباء الى امين بك ارسل تقاريرها إلى الخرطوم ، فانعم رؤوف باشا على حواش افندي برتبة الصاغ جزاء بسالته .

● ولم يتردد امين بك في أن يقوم على الفور برحلة طويلة في المناطق التي اخضعها حواش افندي فوجد النظام على اتمه والمحطات غاية في النظام والنظافة ، والزراعة تنتشر والأمن مستتب استبابا عجيبا ، ، حتى انه عندما كان يمنح العبيد الحرية ، وينفي سادتهم الدناقلة إلى الخرطوم ، لم يقابل بتدمير يذكر . وقد حرر اربع مئة عبد ، فكان هذا العمل مثار فرح في كل مكان ، وحنق لدى الدناقلة ..

● وقد أقام حواش افندي في هذه المنطقة ثلاث سنوات يؤدي عمله ، ويذكر الصيدلى حسان ان ممبتو كانت المركز العاشر من مراكز مديرية خط الاستواء . وهو مركز واسع الاطراف يتصل تقريبا ببلاد الكونجو ولا يفصله عنها سوى لسان تعلوه الغابات عرضه عشرون كيلو متراً . وتمتلك الحكومة المصرية جزءا من هذا اللسان . وقد اخضع حواش افندي أقزام « أكا » لغاية مسيرة خمسة عشر يوما في الغاية . ويعمر هذا المركز النيام نيام ، والمبتو ، فالأولون ضاربون في القسم الشمالى ، وفي جنوب مديرية بحر الغزال

اما المبتو فيشغلون جميع جنوب المركز لغاية حدود الغابة . وأهم طعام هذه المناطق الموز ولديهم منه غابات ، ويزرعون أيضا الذرة الصفراء ، والبيضاء ، غير أنهم لا يزرعون منها إلا قليلا ، بحيث لا يكفي محصولها إلا لصنع المريسة . وتستدعى زراعة الذرة البيضاء قليلا من العناية ، ومع هذا تأتي بمحصول يزيد عشر مرات على محصول الذرة الصفراء . ويرجع الفضل في استيراد ذلك النوع هناك إلى نشاط حواش افندى منتصر المتواصل ، وتوقد ذكائه واصالة رأيه . وهو الذي أدخل كذلك زراعة أشجار البرتقال والليمون ومختلف أنواع الخضر والتبغ الذي استحضر بذورها من القصارف من أعمال مديرية كسلا

ومع أن الحيوانات نادرة الوجود في هذا المركز ، فإن الأهالي لا يمتنعون عن الاستمتاع بكل لحومها . ورغمما عن الصرامة والشدة التي تستعملها الحكومة ، فإن هؤلاء الأهالي لا يقامون عن أكل لحوم الانسان .

وكانت القوة النظامية التي تحت قيادة حواش افندى في هذه المنطقة ٧٠ رجلا من النظاميين و ٧٠ من المتطوعين أو الخطرية ، و ٣٠ من التراجمة . ويجند العساكر النظاميون من بين الأهالي ، وتقدم لهم الحكومة الكساء والغذاء ، وتعلمهم أصول الحرب ، وتصرف لكل منهم ٢٠ قرشا في الشهر . أما المتطوعون فيتقاضى الفرد منهم ١٠٠ قرش ويلبس ويأكل على حسابه . وأما التراجمة فيتقاضى الفرد منهم ٢٠ قرشا غير طعامه وسلاحه ويكلفون بحراسة البريد والمواصلات (١)

ويقدر عدد سكان مديرية خط الاستواء بـ ١٥٠٠٠٠٠ نسمة ، خضع للحكومة خضوعا تاما نحو ثلثهم والباقون كانت تجرى عليهم تجارب الاستقرار والرضوخ للقوانين .

(١) كانت جلة مرات الجنود في المديرية كلها ٥١٠٠ جنيه سنويا . وكان راتب الحكمदार (أمين بك) ٦٠٠ جنيه والقائد ٢٦٠ جنيه . والقاضي ١٢٠ جنيه . ورواتب الموظفين المدنيين ٤٣٠٠ جنيه . ورواتب موظفي القسم الطبي ٢٠٠ جنيه . وجلة ميزانية المراتب ١١٠٤٠٠ جنيه سنويا ، وكانت تصرف في معظم الاحوال عينا لا نقدا . وبمد صرف ما يوازي هذا المبلغ كان يتوفر لخزينة المديرية نحو ٥٠ الف جنيه سنويا .

وهذا نجاح كبير لحكم مصر في هذه المناطق التي تزيد مساحتها على مساحة مصر نفسها، وتعد من أخصب بقاع الدنيا لتوفر الماء فيها بكثرة لا مزيد عليها، ماء المطر، وماء روافد النهر، والنهر نفسه.

وقد ذكرنا أن أمين بك أدخل زراعة البن والأرز، ونضيف أنه حسن زراعة التبغ، وأدخل زراعة القطن. ويذكر سمو الأمير عمر طومسون: «أن نجاح هذه الزراعات الباهر يرجع إلى ما بذله حواش افندى منتصر من عظيم المساعدة والمهمة التي لا تعرف الكلال أو اللال. وقد أفاد القطن فائدة عظيمة جداً فيما بعد، وذلك عند ما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عند اقتطاع المواصلات مع الخرطوم»

● وعلى الرغم من النجاح البالغ الذي وصل إليه حواش افندى في حكم هذه المنطقة إلا أن ظروف السودان بعد تفاقم ثورة المهدي، وظروف مصر بعد إخفاق الثورة العراقية واحتلال الانجليز لها.. كل هذا جعل أمين بك ضيق الصدر، كثير الشك، يسمع للوشاة، ولا يطمئن لأحد غير صاحبه الصيدلي اليهودي فيتا افندى حسان. وقد زار أمين بك الخرطوم، وظل أياماً لا يتمكن من رؤية حكمدار السودان الجديد عبدالقادر باشا حلمي، لشدة انهماك الحكمدار في مراجعة الموقف المتخلف عن اخطاء سلفه، ودرس الخطة للحد من خطر الثورة المهدية. وكان عبدالقادر باشا حلمي من أعظم رجال الشرق كفاية ومقدرة وبعد نظر، وسنورد شيئاً عنه فيما بعد. فلما قابله وتلقى تعليماته عاد وقلبه ممتلئ هماً من المستقبل. وقد تمقّدت شبكة من الوشايات حول حواش افندى حمت أمين بك على أن يصدر أمره بنقله من مركزه الهام، إلى قيادة الجنود في «دوفيليه» وكما هي عادة حواش افندى، تطلع إلى المناطق القلقة، وضرب عليها يد من حديد، فكانت مثلاً للهدوء والنظام. في حين أن منطقة «رول» لم تكف ثوراتها منذ غادرها حتى اضطر أمين بك إلى أن يستدعى نجدة من جاره لبتون بك حكمدار بحر الغزال.

في مهب الريح

● في هذا الوقت كانت ثورة المهدي قد بلغت أوجها ، ووصل نشاطه في بث الدعوة وتأليب الشعب إلى مديرية خط الاستواء . وقد كتب إلى أمين بك كتابا قال له فيه ماملخصه :

« من محمد احمد رسول الله المهدي إلى الأمير محمد الأمين أمير خط الاستواء . إني مرسل اليك الأمير كرم الله ، القائم مقامى ، فسله مديريتك ، وأت عندي في البقعة الطاهرة لأضملك إلى جماعتى . فاذا أعطتنى كفلت حياتك ، وتحاشيت إهراق الدماء على غير طائل . أما إذا عصيت ، فعليك تقع جريمة ضياع رجالك ، وضياعك أنت نفسك وما حصل لغيرك فيه عبرة لك وموعظة للتبصر والتزوى في عملك . ولقد رأيت أن جميع المديريات حتى أقواها مثل كوردفان وسنار سقطت في يدي . وأنت تعلم من غير شك كيف كانت عاقبة راشد بك ، ويوسف باشا الشلالى ، وهيكس باشا . وهذا لا بد أن يقنعك أنه بفضل معونة الله العلى لا يقدر أحد أن يقاوم الانصار . وأنت ليس لديك القوة الكافية لتستطيع مصادمة جيشى »

كما جاء من كرم الله كتاب آخر يخبره فيه أنه استولى على مديرية بحر الغزال ، وأرسل له كتابا من لبتون بك كتبه بالعربية يدعوه فيه للتسليم . ولكنه كتب بالانجليزية عبارة معناها : « اعمل ما تراه صالحا » .

وعقد أمين بك مجلساً من كبار موظفي المديرية حضره قائد الجند ، ومأمور الساخانة ومأمور المخازن ، وعثمان افندى أرباب سكرتير المديرية الثانى ، وهو ابن عم المهدي ، وناظر المدرسة ، وقاضى المديرية ، ورئيس قلم المستخدمين ، ورئيس الكتبة ، ورئيس الحسابات .. الخ .

وأخبرهم أمين بك برسالة المهدي ، وبدأت الرغبة من القاضي الشيخ عثمان حميد في التسليم ، وأيده بقوة عثمان أرباب — طبعا — وأما فيتا حسان ، فاعتذر عن ابداء الرأي لأنه طبيب لا يفهم في السياسة .

فقال أمين بك انه مستعد للذهاب إلى معسكر الأمير كرم الله ، فلم يوافق على مرافقته غير القاضي وناظر المدرسة ، وابن عم المهدي . ثم وافق فيتا حسان على مرافقته . وقرر أمين بك السفر بعد أيام إلى الشمال .

● ولكن مالبث وهو يفكر في هذا المشكل الخطير ، أن قرر أن يسافر عن طريق الجنوب إلى أوغنده مع الموظفين وأن يترك الجنود السودانيين في بلادهم . وماعرف عنه هذا العزم حتى تضخم وتحرف ، وذاع أنه سيبيع السودانيين « لكباريجيا » ملك أو نيوروكي يسمح له بالمرور فكان لهذه الأنباء الكاذبة أسوأ وقع في أنحاء المديرية إذ بدأت عرى النظام تنفكك .

وفي هذا الوقت كانت تأتيه من أطراف المديرية أنباء سيئة . فقائد « رول » هرب إلى المهدي . وحواش افندي أرسل يطلب مدداً ، لأن الاهالي نشروا راية العصيان في « دوفيليه » . فكتب أمين بك يقول له :

« إني لا أستطيع أن أبعث لكم بامداد لعدم وجود جنود احتياطية تحت يدي . وإن لديكم الجنود الكافية . وانكم علاوة على ما ذكر ، قد قمتم في أصعب الظروف وأخرج المواقف بأعباء ما كلفتم به خير قيام . فيجب أن تدافعوا بنفس القوات التي تحت أمركم ، ويدعوني الأمل إلى الاعتقاد بأنكم في هذه المرة أيضاً تستطيعون بما جبلتم عليه من علو الهمة وحسن التدبير أن تتغلبوا على جميع ما يصادفكم من المصاعب . وإني فوق ذلك قد كتبت إلى حامية «لاتوكا» باخلاء منطقتها والذهاب لمعاونتكم والأخذ بناصركم فيلزم أن تقاوموا إلى أن تصل اليكم الحامية المذكورة . ولا بد أن تتغلبوا بمساعدتها على كل أولئك الزنوج »

وما أن شاع أن أمين بك يتردد بين الشمال والجنوب وأنه لم يقرر المقاومة حتى فقد احترامه بين سكان المديرية ، حتى أن أحد الكتبة ذكر وهو يطالب بنهب أحد المخازن موجهاً القول لأمين بك :

« لقد مضى وانقضى زمانك ، وأتى زمان الأمير كرم الله ، وليس لك أن تعطى أوامر هنا بعد اليوم !! »

وزاد في تفاقم الحال ، أن حريقاً شب في مدينة « لادو » العاصمة أحرق نصفها.. ولكن أمين بك بدأ يفيق من كل هذا ، فقرر أن يسافر وفد إلى الأمير كرم الله على رأسه القاضي وعثمان أرباب ، ليعلن خضوع المديرية له . وكان سفر هذا الوفد في ٧ يونيو سنة ١٨٨٤

● واستدعى أمين بك أقدر ضابطين تحت إمرته، وهما الصاغين حواش افندى منتصر ومرجان افندى الدناصوري . ولو أنه فعل هذا من أول وهلة لما حلت به المتاعب التي سبقت الإشارة إليها .

ولما قدما، وعرض عليهما الأمر قررا في حزم واصرار اعداد المديرية للدفاع المصمم وعدم التسليم بأي حال للمهدية . وذكر حواش افندى أن في الامكان حشد ٣ آلاف جندي مسلحين تسليحاً حسناً ويمكنهم صد أي غارة على المديرية . كما اقترح أن يلغى التقسيم الإداري القديم ، وان تنقسم المديرية إلى قسمين شمالي ، يتولى هو الدفاع عنه ، ومواجهة أي هجوم من جيوش المهدي ، وجنوبي يتولاه زميله مرجان افندى .

ووافق أمين بك على كل هذا ، إلا أنه عين حواش افندى قائداً للجنوب بدلاً من الشمال ، ومع ذلك فقد أصبح كل شيء واضحاً .. وتلخص في المقاومة.. المقاومة التامة.. لولاء المطلق للخديوى وحكومة مصر .

● ولم يطل الزمن على شروع أنصار المهدي في النفوذ إلى مديرية خط الاستواء. بل ان الأمير كرم الله ، كتب إلى أمين بك يقول له انه في طريقه إلى « لادو » العاصمة .

وجاءت الانباء بأن ١٦٠٠ درويش يهاجمون محطة «أمدى» وهي أقصى محطة في الشمال الغربي لمديرية خط الاستواء .

وحسب الخطة السابقة ، كان الصاغ مرجان افندى الدناصورى ، يتولى القيادة في هذه المنطقة . فلما لمح الدراويش عبر النهر ، أرسل طلائعهم ، فاذا بالدراويش يحسبون أن المحطة ، وبقية المديرية ستسلم لهم فور قدومهم حسب ما جاءهم عن أمين بك . وقد أحضرت حملة الدراويش كتباً من أميرها علقتهما على رمح حتى يتسلمها رسل الحكومة . وكان رد مرجان افندى أنه أرصد رجاله وراء الأشجار ، وأمرهم بإطلاق النار على كل درويش يظهر في الأفق . ثم أخذت المناوشات تتوالى بين الفريقين . وكانت الحكمة تقضى بأن يهاجم مرجان افندى معسكر الدراويش ، ويقضى عليهم ، ولكنه آثر أن يلزم خطة الدفاع ، وهي خطة سقيمة جداً ، إذ أن قوته كانت متفوقة جداً . فقد كان في حوزته بضع مدافع ، ومعه ألف جندي نصفهم من الجنود النظاميين . ولما زار فيتا حسان المحطة مندوباً من قبل أمين بك تبين له من أول وهلة خطأ الخطة المتبعة ، وقد أبدى مخاوفه لمرجان افندى ، وذكر له أن معسكر الدراويش يتزايد مع الزمن ، ومعسكر الحكومة يتناقص ، ولا بد من الهجوم . فلم يقر قائد المحطة هذا الرأي ، وطلب من حسان العودة من حيث أتى .

ويظهر مرة أخرى ، أن هذا المكان ، وهذا الموقف بالذات كان يحتاج إلى حواشٍ منتصرة .. يحتاج إلى ضابط بأسلجى ، يعرف كيف ينهل عدوه بجسارته ، وسعة حيلته بصرف النظر عن عدد الجنود الذين تحت أمرته .

ولما وقف أمين بك على حقيقة الحالة في «أمدى» كتب إلى مرجان افندى يستدعيه للمشاورة ، وكان ينوى استبقاءه عنده وتعيين قائد آخر مكانه . وأحس مرجان بما تم ، فكتب إلى أمين بك رسالة وقعها مع ضباط الحامية يرجوه تركه في مركزه .

وكان حواش افندى رابضاً في مركزه بدوفيليه يدبر أمر الجنوب كله ، وما دام قد فات هذا الضابط الشجاع أن يكون هو أول من يلقى العدو ، فقد رأى من الفطنة

والخير ، أن يعد مركزه « دوفيلية » لكي يكون معقل المقاومة الأخير في المديرية ، اذا ما سقطت جميع المراكز الشمالية . ولهذا أقسم مخازنه بالحبوب والمؤونة وحشد في زرائبه أكبر عدد ممكن من رؤوس الانعام . كما ألزم الأهالي ، والجنود أيضا ، بزراعة القطن على أوسع نطاق ، ثم جنى أول محصول منه ، ودرب جنوده على الغزل والنسج تحت اشراف رجل من دنفله ، واذا بامتار « الدمور » تظهر وتتكاثر ، واذا بأهل المنطقة ، ثم أهل المديرية جميعا يلبسون من دمور حواش افندى، يستوى في هذا الدينين والعسكريين . ونعود إلى الشمال ، فنقول ان محطة امادى تمرضت لهجوم شديد قام به الأمير كرم الله بنفسه ، وانتهى الهجوم بضرب حصار محكم على الحامية ومنع وصول أى مدد أو مؤونة إليها . ولم يكن تموين الحامية كافيا ، فمالبث أن نفذ على عجل ، وأخذ الجنود يفلون جلود الثيران ثم يطعمونها . ولما نفذت جميع الجلود ، أخذوا ينتزعون جلود أحذيتهم ويطبخونها ، ولم يتركوا شيئا يمكن أن يؤكل إلا أكلوه حتى القش كان من بين أغذيتهم . ولما اشتد الكرب على الحامية ، استدعى أمين بك - ولكن متأخرا - حواش افندى ، لكي يسافر على عجل إلى الشمال ، وينفك حصار الحامية ، وينقذها من هلاك محقق . ولكن قبل أن يتحرك حواش افندى لأداء مهمته ، كان اليأس قد بلغ من الحامية مبلغه فشقت موجتان منها الطريق خارج الحصار بعد أن تكبدت بعض الخسائر ، وكبدت الدراويش أضعاف خسائرها . وكان من بين المنسحقين ضابط من أبسل الضباط الشبان هو سليمان افندى سودان على رأس ٣٠٠ من الجنود . وكانت وجهته محطة ممبتو ، وقد أغضب نجاح سليمان افندى الأمير كرم الله ، فأوفد وراءه قسما كبيرا من جيشه يطارده ، ولكن الدراويش لم يدركوه إلا بعد أن انضم إلى حامية ممبتو ، ثم كروا راجعين على مطارديهم ، وهجموا عليهم هجوما رهيبا ، أفنى معظمهم . والعدد القليل الذى رجع إلى الأمير كرم الله أفقعه أن جند الحكومة قادمون إليه كالأعصار ، فما كان منه إلا أن عجل باحراق محطة «امادى» ، وانسحب عائدا من حيث آتى.. إلى مديرية بحر الغزال .

وقد تمتل في هذا الحصار عدد من الضباط منهم مرجان افندى ، وكان يمكن للحامية أن تظفر بانتصارات أكبر ونتائج أنجع ، وتبقى على أمادى ، لو أنها أخذت بخطة الهجوم المتصل على العدو . ومع هذا فلا ينكر مطلقاً أن جميع أفرادها صبروا صبراً عجيباً ، ولم يفكروا مطلقاً في التخلص من أهوال الجوع والحصار بالتسليم .. فهذه المعنوية العالية تسجل بالفخر للجميع ، ضباطاً وجنوداً .

● وفي هذا الوقت عقد أمين بك مجلس حرب من كبار موظفيه ، وقر قرارهم ، على سحب الحاميات ، وإخلاء خط النهر ، والانسحاب إلى الشرق . وكان من مؤدى هذه الخطة تدمير الباخرتين « الخديوى ونيانزا » وإتلاف جميع المؤن التي لا يمكن نقلها . وكان حسان افندى في طريقه إلى زيارة مركز دوفيليه ، فكلفه أمين بك بأن يبلغ حواش افندى ما استقر عليه الرأي ، ولكنه طلب منه ألا يضغط عليه أكثر مما يجب لتنفيذ هذه القرارات .

وما أن وقف حواش افندى على هذه القرارات حتى صاح في حالة تهيج شديد - أو هكذا وصفه فيتاحسان - : « ان تحطيم البواخر والسفن ، وإبادة المستودعات بما فيها من كميات الذرة البالغة ٣٠٠٠ أردب ، وترك الحقول الخصبية بمزروعاتها ، وتأليف قافلة من عشرة آلاف نسمة ثلثاها من النساء والأولاد ، وزجهم في بلاد مجهولة ليركروا على قارعة الطريق طعممة للحيوانات المفترسة ، كل ذلك من المستحيلات ، بل هو جنون صرف . واني أعارض في ذلك بكل ما أوتيت من قوة » .

وعاد أمين بك إلى مشاوره أعوانه ، فقرر رأيه على ضرورة إخلاء العاصمة « لادو » والانسحاب جنوباً إلى « وادلاى » ، وهى تقع إلى الشمال قليلاً من مدخل بحيرة البرت . وكانت هذه الخطة سليمة بالنسبة لمركز الحكم ، إذ أن تكديس النساء والأطفال في « لادو » مع احتمال تعرضها للحصار سيوقعها في حرج الجماعة الذى وقعت فيه « أمادى » . ولكن ضباط لادو وجنودها اعتذروا عن الجلاء ، وقرروا البقاء لمواجهة جنود المهدي

إذا هم أقبلوا ، ولكنهم رجوا من أمين بك أن ينسحب هو لكي يدبر لهم أمور تموينهم وامدادهم .

وازاء هذه الروح العالية والحماسة التامة في القيام بالواجب ، لم يسع أمين بك إلا أن يقر هذه الرغبة وأن يسافر هو إلى الجنوب . فصحب الموظفين المدنيين وبعض النساء والأطفال ، وأخذ ينسحب جنوبا . وفي كل محطة حل بها كان يحصل منها على التموين اللازم ، ويرسله شمالا إلى « لادو » ..

● وجاءه وهو في الطريق خطاب غريب ، باسم الضابط الثاني في « دوفيليه » وهو سليم افندى مطر . فقد عرفت حامية دوفيليه خطة الانسحاب نحو الشرق التي رفضها حواش افندى ، فتطوع سليم هذا بأن ينفذها خلافا للرأي رئيسه ، وطلب من أمين بك أن يوكل اليه القيادة . فاستشاط أمين بك غضبا من هذه الدسيسة ، وأرسل كتاب سليم مطر إلى حواش افندى ، وطلب منه حبسه سبعة أيام ، هو ومن اشترك معه من المدنيين في هذا العصيان ، لان سليم هذا ضابط زنجي لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وكان لابد من اشتراك بعض المدنيين معه في فكرته . ولم يتردد حواش افندى في حبس سليم افندى الذي قبل العقوبة مستسلما .

وذكر فيتا حسان في سبب هذا الاستسلام :

« ان الزنجي لا تؤثر فيه أصعب الكلمات وأشدّها ، وان الذي يؤثر فيه ما كان مسطوراً ... ويظهر أن الورقة هي عفريت الجرزع الأكبر في نظر هؤلاء الزوج !! »
وأرسل أمين بك وهو في الطريق إلى الجنوب يستدعى حواش افندى ، وبعد تردد وافاه ، وأحاطه المدير بعطف وعناية بالغين ، ورفاه إلى رتبة البكباشي جزاء بسالته ، ولكي يستوى في المرتبة هو والبكباشي ريحان افندى قائد الأورطة الأولى في « لادو » .
وقد جعلت بلدة « كيرى » الحد الفاصل بين منطقة نفوذ ريحان افندى الشمالية ، ومنطقة نفوذ حواش افندى الجنوبية .



« البكباشى حواس افندى منصر »

وكان أهم ما يقلق بال حواس افندى هو دسائس الموظفين المدنيين ، فلما وصل أمين بك إلى دوفليه مقر قيادة المنطقة الجنوبية أقام فيها عشرة أيام وعند مغادرته لها جمع جميع الموظفين ، وقال لحواس افندى على مسمع منهم :

« لقد حاق بي من الهم والأذى ما فيه الكفاية . وليس لدى متسع من الوقت لاشتغل أكثر مما مضى بدسائس وسخافات الموظفين . فأننا أفوض لك الأمر في كبح جماحهم ، وعدم خروجهم عن حد الواجب .

وأترك لك مطلق الحرية ، وأؤيد سلفا ما تتخذه من التدابير . . »

وفي ١٠ يوليو سنة ١٨٨٥ ، وصل أمين بك إلى عاصمته الجديدة « وادلاى » ، حيث أقام بها عامين كاملين . وكان هم المدير وهو على مرأى بحيرة البرت ، أن يمد نفوذ الحكومة المصرية إلى ما وراء البحيرة ، ويقم فيها محطاته ، وذلك ليوسع منطقة انسحابه إذا ضغط المهديون ، كما يزيد في ساحة مديريته العظيمة التي شغف بهوائها العليل وخصبها النادر ، ومناظرها القاتنة .. وكان يحتاج في مد نفوذ الحكومة جنوبا إلى مساعدة الأورطة الأولى العسكرية في « لادو » وكان يتمنى لو أنها انسحبت وأخذت مراكزها جنوب خط الاستواء ، وبذا يكون حواس افندى هو قائد الشمال .. ولكن شغف البكباشى ريحان ، وجنوده بقاء المهديين والانتقام منهم لما حدث في السودان كله ، عمل أمين بك على أن يترث وينتظر ماستأتى به الحوادث المقبلة .

ولكن ملوك الزوج في هذه المناطق كانوا يرسلون رسلهم إلى أمين بك، ويطلبون حاميات مصرية تقيم عندهم. وقد نفذ أمين بك أحد هذه الطلبات وأرسل ١٥ جندياً وضابطين إلى بلدة «فودا» التي تقع شمال فويرا بين بحيرتي فيكتوريا والبرت.

ويذكر فيتا حسان، أن معظم بلاد هذه المنطقة تبدأ أسماءها بحرف الفاء، مثل «فاديبك. فويرا. فاتيكو. فالورو. فابو... الخ» وذلك لأن شيخاً عربياً، اسمه الشيخ فرج مر بهذه المناطق من سنين طويلة، وأوصى السكان بأنه سيأتي يوم يفد فيه إلى أرضهم قوم بيض، فعليهم أن يعاملوهم بالحسنى، وأن ينظروا اليهم كأصدقاء لا كأعداء، وأن يعملوا على راحتهم وتنفيذ أوامره. وحتى لا ينسى الأهالي هذه الوصية على مضي الزمن، أسموا كثيراً من بلدانهم أسماء تبدأ بحرف الفاء، وهو أول اسمه. والمسنون من أهل هذه المنطقة يذكرون الشيخ فرج ويذكرون وصيته!

● وانتهز أمين بك فرصة سفر الدكتور جونكر^(١) مغادراً المديرية عن طريق الجنوب— ماراً بملكة أو نيورو التي يحكمها الملك كباريجا، ثم باوغنده — ثم إلى المحيط الهندي، فاوفدمعه فيتا حسان لكي يمثل الحكومة المصرية في منطقة أو نيورو. وقد وصل المندوب إلى بلدة «امبارا» عاصمة أو نيورو، بصحبة رسله، وهناك كانت توجد مظاهر الحكم المنظم، إذ كان لدى الملك ١٥٠٠ جندي دربههم وأكمل زعيمهم ٣٠ جندياً مصر باهربوا من المديرية أثناء حكم غوردون لها. وحمل فيتا معه الهدايا إلى كباريجا،

(١) كانت تقود الدكتور جونكر قد نفذت، فلما علم حواش افندي بذلك وضع تحت تصرفه ٧٠٠ ريال، وعده الطبيب باعطائها لأسرته عند وصوله إلى القاهرة، وكان لهذه المونة التي تدل على الشهامة أجل وقع لدى الجميع. وقد أمده أمين بك بالباخرة الحديدية حيث شقت به وفيتا حسان بحيرة البرت نياتزا، أقام الدكتور شهراً عند الملك كباريجا، ثم رحل إلى أوغندا، ومنها رحل إلى زنبار، ثم أبحر إلى عدن ووصل السويس في ٩ يناير سنة ١٨٨٧، بعد أن اتفق في طريق العودة منذ قيامه من وادلاي مقر أمين بك عاماً وتسعة أيام!!

وكانت جملة إقامة الدكتور جونكر في مديرية خط الاستواء ثمانى سنوات.

وأهمها العاج الذى لا يوجد فى جنوب بحيرة البرت ، كما حمل معه رسائل من أمين بك للحكومة المصرية لكي ترسل إلى مصر عن طريق أوغندا .

وكانت توجد هناك رسائل واردة من الحكومة المصرية ، أرسلها نوبار باشا إلى أمين بك ، فأحضرها فيتا ، وأرسلها على عجل إلى « وادلاى »

وفى « أونورو » علم فيتا بثورة عرابى ، وباحتلال الانجليز لمصر ، وبسقوط الخرطوم ومصرع غوردون . وكانت كل هذه الأنباء جديدة على حكام خط الاستواء على الرغم من أن بضعة سنين كانت تفصل أول هذه الحوادث عن آخرها .

وقد أدهش فيتا حسان نظام الرقابة الدقيق الذى وضعه كباريجا فى مملكته ، والذى لا يقل دقة عن أعقد نظم الجستابو . فحدث مرة انه اشترى دجاجة دفع فى ثمنها ٥ مليات أكثر من السعر المحدد - والأسعار هناك رسمية - فما لبث أن أقبل ترجمان الملك ورد له المليات الزائدة ، طالبا منه أن يراعى الأسعار المقررة حتى لا تضيع نقوده ، وحتى لا يضرب نظام السوق . وقد وقعت على التاجر عقوبة صارمة لبيعه دجاجة « فى السوق السوداء »^(١) ! وما ذكره فيتا حسان ان هذه المنطقة هى أغنى المناطق بالبقر ، فالملك وحده يملك قطعانا تحصى بمئات الألوف من الرؤوس . والسبب فى ذلك ان الملك حرم ذبح أى بقرة مالم يتضح عقمها . ولا بد من استئذانه شخصيا قبل ذبح أى بقرة ، ومن يخالف التعليمات تصادر أملاكه ، وتباع أسرته فى سوق الرقيق . وكان ثراء المنطقة بهذه الأنعام سببا فى تكرار اغارة أوغنده عليها . وقد حدثت غارة اضطرت فيتا إلى أن يحزم متاعه ويرحل على عجل ، وما أن غادر « عاصمة » كباريجا ، حتى وجدها طعمة لنيران هائلة ، فساكنها كلها من القش . وعلم بعد ذلك أن جيش أوغنده غنم ١٢ر٠٠٠ رأس من البقر .

وفى عودة فيتا ، وجد عند مدخل بحيرة البرت جزيرة يسكنها صياد واحد من الزوج

(١) كان سعر الأمة من ٣٦٠ إلى ٤٥٠ قرشا . وسعر الصبي من ٢٤٠ إلى ٣٠٠ قرش . وسعر البقرة من ١٢٠ إلى ١٥٠ قرشا . وثمن الجبل من ٣٧ إلى ٤٥ قرشا . وثمن الخروف من ٩ إلى ١٢ قرشا حسب جدول التسعير الرسمى !!

وتنبه إلى خطورة مركزها من الناحية الحربية ، فأقام فيها وطلب مددا حصنها به ، وجعلها نقطة عسكرية دائمة . واسم هذه الجزيرة « تونجوزو »

● ولعمد إلى « وادلاي » فأننا نجد أمين « باشا » اذ ورد له مرسوم بالانعام عليه بهذه الرتبة ، ساخطا غاضبا لما ورد له من نوبار باشا ، فقد كتب له يقول :

القاهرة في ١٣ شعبان سنة ١٣٠٢ (٢٧ مايو سنة ١٨٨٥)

« إلى أمين باشا قائد جنود خط الاستواء .

« ان حركة الثورة التي شبت في السودان اضطرت حكومة صاحب السمو إلى اخلاء تلك الأراضي . وبناء على ذلك لا نستطيع أن نبعث لكم بأى امداد . ومن جهة أخرى نحن لا نعرف بالتدقيق موقفكم أتم والجنود الآن . بل وليست متوافرة لدينا الوسائل لامدادكم بما يلزم من الارشادات بصدد الخطة الواجب اتباعها . وعلاوة على هذا وذاك إذا طلبنا منكم ارسال تقرير مفصل عن الموقف لبنى عليه ما نرودكم به من التعليمات فان ذلك يستغرق زمنا طويلا ، وقد يكون ضياع هذا الوقت في غير مصلحتكم .

« والغرض من هذا الجواب الذى سوف يصل اليكم عن طريق زنبار بواسطة السير جون كيرك قنصل بريطانيا في هذا البلد الأخير هو منحكم الحرية التامة في العمل . فاذا رأيتم أن الأضمن لكم والجنودكم الانسحاب والرجوع إلى مصر ، فالسير جون كيرك وسلطان زنبار يكتبان لختلف رؤساء قبائل الزنوج الضارين في الطريق ، ويبدلان ما في وسعهما لكي يسهلا لكم الانسحاب .

« ومرخص لكم الحصول على ما يلزمكم من العملة . وأكرر لكم القول ، وأعيده بأن لك مطلق التصرف بما يناسب مصلحتكم ومصلحة الجنود . هذا وفي وسعنا أن نفيدكم أن الطريق الوحيد الممكن عبوره فيما إذا أردتم مبارحة غوندوكورو هي طريق زنبار . ورجاؤنا هو عند ما تستقرون على رأى أن تشعرونا في الحال بما تقررونه .

« وسيكتب لكم أيضاً السرجون كيرك امحيطكم بالوسائل التي سيحاول اتخاذها
ليسهل لكم الانسحاب عن طريق زنزبار »
رئيس مجلس النظار
(نوبار)

وقد استغرق وصول هذا الخطاب نحو عام حتى وصل من القاهرة إلى أمين باشا .
غضب أمين باشا ، لأنه وإن كان قد أنعم عليه بالباشوية ، إلا أن رسالة نوبار باشا
لم تشف عن عرفان الأحكام في القاهرة لدى الجهود الهائلة التي يبذلها هو وأعوانه في سبيل
الاحتفاظ بالحكم المصري في وسط افريقية ، وفي وسط نيران الثورة المهدية ، وثورات
الزنج المحلية التي لا تنتفى . ثم هم يقترحون العودة عن طريق زنزبار ، وكأنما يحسبون
أن هذه الرحلة نزهة مثل نزهتهم في القاهرة وضواحيها ..

● ولم يكن أمام أمين باشا سبيل إلى تجميع قواته والاستعداد لاختراق الجنوب ثم الشرق
إلى المحيط الهندي إلا أن يقنع فرقه الأولى بالمسكرة « بلادو » والتي يقودها البكباشي
ريحان افندي بالانسحاب . وبينما هو يفكر في وسيلة اقناعهم باخلاء مرا كزها ، إذ بالأنباء
تأتيه بأن ريحان افندي توفي . والزاد فقد أوكاد من محطة لادو ، وأن ضباطا من أفراد
الفرق قادوا مئات من الجند وذهبوا لاعادة المحطات التي خربها الدراويش في «مكراكا»
وغيرها . وكان من غاياتهم أيضا الحصول على حبوب ، إذ أن قبائل الباري لم تزرع في
هذا العام حبوبا ، وهي القبائل القوية التي تقع في أرضها محطة « لادو » والتي كانت
تنور كل حين وحين فتهدد الحامية باعنف الأخطار .

وجاءه أيضا أن الموظفين في لادو — المدنيين منهم — يتهمونهم ، أي أمين باشا ،
بأنه تركهم لكي يلتهمهم المهدي واعتصم هو بمركزه النبيع في وادلاي ، مع أن واجبه
أن يكون في الخط الأمامي .. الخ . كما اتهمته الرسائل الواردة من الشمال أنه يمنع كل
تشجيعه ومعوته لحواش افندي لأنه مصري ..

وازاء هذه التلاقل ، و بلبلة الفكر لم يكن أمام أمين باشا إلا أن يوفد صاحبه

الوفى فيتا حسان إلى «لادو» لكي يقرأ على أفراد القوات الشمالية رسالة نوبار باشا ، كما أنه رقى اليوزباشى أحمد افندى حمد إلى رتبة البكباشى مباشرة وطلب منه المسير فى رفقة حسان لكي يسلمه القيادة العسكرية .

وأقام فيتا حسان فى مهمته ستة أسابيع تأكد فيها من أن كل الإذاعات التى كانت تشاع عن تمرد جند الشمال لا نصيب لها من الصحة ، والجميع مطيعون لأمين باشا ، إلا أنهم يخافون من حواش افندى قائد الجنوب خوفاً شديداً لقسوته فى تنفيذ النظام . ونصح حسان افندى لأمين باشا أن يطمئن جنود الشمال بنقل حواش افندى مؤقتاً من مركزه حتى يتم له سحب الحاميات إلا أن الباشا رفض هذا رأى إذ لم ير أى غبار على تصرفات حواش افندى .

ويظهر أن حواش افندى سمع بمطالب الأورطة الشمالية ، فكتب إلى أمين باشا يعرض عليه أن يعفيه من قيادته فى دوفيليه ، وأن يستقدمه عنده فى وادلاى .

وفى هذا الوقت — أوائل عام ١٨٨٧ — جاءت الأنباء بأن النار شبت فى محطة لادو ، مقر الفرقة الشمالية ودمرتها تدميراً تاماً ، فانتقلت الحامية ، وجميع السكان إلى بلدة الرجاف ، إلى الجنوب قليلاً من لادو ، ورحل بعض الأهالى إلى محطة مكراكا ، وتم هذا كله بتمتهى النظام ودون أى دعر .

وفى شهر إبريل رأى حواش افندى أن يزور أمين باشا ، فاستقل الباخرة « الخديوى » وأبحر إلى وادلاى ومعه ٣٠ جندياً وقاذفة لهب ، وبعض المؤونة . وتصادف أثناء قدومه أن كان رسل الملك « كباريجا » موجودين فى وادلاى ، فأمر أمين باشا بأن يقود حواش افندى استعراضاً أمامهم يؤثر فى نفوسهم تأثيراً بالغا ، لكي ينقلوا إلى ملكهم أن الحكومة ما تزال بخير . وكان أمين باشا قد استقدم أربعة صبيان من عند كباريجا ، لكي يعلمهم اللغة العربية ، وقد زارهم هؤلاء الرسل ، وحملوا اليهم تحيات الملك .

وبعد أن أقام حواش افندى أسبوعين عاد إلى مقر قيادته وهو يتمتع بكل ثقة الحكمدار

● وللكثرة الاشاعات والانباء عن الفرقة الاولى ، ومظاهر تمردھا ، وكثرة دعوتھا
لأمين باشا كي يزورها ، وما وصل اليه من أن حامية الرجاف تمردت فعلا ، قرر أن
يرحل إلى الشمال . وقد وجد البكباشي حامد افندي في انتظاره عند حواش افندي
وعلم منه على وجه التفصيل أنباء الشمال ، ثم استصحبه معه .

وكان الباشا يقابل في جميع المحطات بحفاوة وحماسة زائدين ، حتى اذا وصل إلى
موجي ، وآوى إلى فراشه ، أيقظه قبل الفجر البكباشي حامد افندي ، وطلب منه أن
يرتدى ملابسه فوراً ، وأن يغادر المدينة ، لأن قائد مكرাকা - وهو أحد المتمردين -
واسمه على افندي جابور ، يقود قوة من زهاء ألف رجل ، يريد القبض على أمين باشا ،
وقد أصبح قريباً من موجي . ولم يفلح أمين باشا في تهدئة روع حامد افندي الذي
توسل إليه بكل وسيلة أن ينفذ طلبه ويرحل إلى الشمال تاركا متاعه .

وبعد قليل صحت الاشاعة ، وأقبلت القوة الثائرة فلم تجد أمين باشا ، فاستولت على
متاعه . وبعد ثمانية أيام ندم قائد القوة على ما فعل ، فأرسل إلى الباشا متاعه ، مع رسالة
يقول له فيها انه لم يأت إلا للقيام بواجب التحية ، وعمل التشريفات العسكرية الواجبة !!
وما لبث أمين باشا أن عاد من هذه الرحلة التفتيشية ، وكانت ذات أثر كبير ،
واستقر به المقام عند حواش افندي في محطة دوفيليه حيث قضى فيها بضعة شهور .

● وفي أول عام ١٨٨٨ تابع أمين باشا رحلته إلى الجنوب ، لتفقد جميع المحطات ،
ولتسقط أنباء حملة ، قيل ان الحكومة الانجليزية أعدتها « لانتقاده » من مديرية خط
الاستواء ، وجعلت الرحلة ستانلي رئيساً لهذه الحملة .

وجاءته الأنباء بأن ستانلي يضرب في الغابات القريبة ، فقرر أمين باشا أن يقوم برحلة
« لانتقاده » منقذه ستانلي . وبعد بحث طويل وصلت من احد مرافقي ستانلي ، واسمه
« جفسن » رسالة يقول فيها إن التعب أضنامهم وهم يبحثون عن أمين باشا ، وقد بليت
ملابسهم ، ويعينون آخر نقطة وصلوا إليها على بحيرة ألبرت .

وأرسل أمين باشا ضابطا مصريا اسمه سليمان افندى لى يذهب لنجدة «جنسن» .
وقد دون هذا الانجليزى المهيك القوى المعزق الثياب كلمة فى مذكرته عن سليمان افندى
قال فيها : « ان سليمان افندى رجل مصرى جميل المنظر يلبس كسوة عسكرية بيضاء
لا عيب فيها !! » . أجل .. فقد كانت مشكلة الكساء من أهم ما يشغل بعثة الانقاذ .

وأبحر امين باشا على الباخرة الخديوى ، إلى حيث كان يقيم هذا الانجليزى التائه .
وبعد التحية ، تسلم منه رسائل ستانلى ، الذى كان يقيم فى نقطة عند جنوب البحيرة .
وكان ستانلى قد اخترق الكونغو فى طريقه إلى بحيرة البرت ، ووصف فى رسالة
برحلته ، ثم ضمها البيانات التالية :

- ١ — لم يحضر معه جنودا ولا تمويينا كافيا لأمين باشا .
- ٢ — ان الحكومة المصرية تخلت « نهائيا » عن السودان ، وهو يحمل معه لأمين
باشا رسائل من الخديوى ومن نوبار باشا ، يطلبان منه اخلاء المديرية !!
- ٣ — واذا لم يبادر أمين باشا ومن معه فى العودة مع ستانلى ، فلا ينتظر قدوم أحد
« لانقاذه » . ولما وقف أمين باشا على هذه المعلومات طرح الورق أرضا ، وقال لمن معه
بصوت حزين : « انتظرت حملة ستانلى بفارغ الصبر ، لأنى كنت أومل فى الحصول
على امداد وذخيرة . وقد حملت العناء الجم فى سبيل امتداد المديرية ، وبسط حدودها ،
وتنظيمها ، وانشاء محطات فى كل مكان واخضاع معظم القبائل . وهم يريدون منى أن
أتخلى عن كل هذا ، وأن أسفر .

« كلا لن يحدث هذا . لن أتخلى عن القبائل التى قبلت حكمنا لى تفنيها القبائل
المعادية ، جزاء ولاءها لنا .. »

وقد عجب رجال أمين باشا ، من استطاعة هذه الحملة المعزقة الجائعة القذرة أن « تنقذ »
حكومة خط الاستواء التى يتكون أفرادها من عشرة آلاف فيهم النساء والأطفال .

وعلى كل حال أرجأ الجميع الرأى النهائى حتى يقابلوا « ستانلى » نفسه ، ويقفوا على ما معه من رسائل ومن وسائل بالتفصيل الكافى .

● حمل أمين باشا باخرته بالوقود ووسقها بالمؤن والمواشى والطيور ، لأنجاد ستانلى ، وأبحر الجميع إلى الجنوب .

ولما تقابل الجميع أخذوا يدرسون الموقف ولم تكن المداولات خالية من الحدة ، وتسلم أمين باشا من ستانلى طردين ، أحدهما فيه بعض قطع من الجوخ أتلقتها الرطوبة ، وفى الثانى رسائل وصحف .

ووجد فى الرسائل كتابا من سمو الخديوى توفيق بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٣٠٤ (أول فبراير سنة ١٨٨٧) يقول له فيه :

« إلى محمد أمين باشا مدير خط الاستواء .

« قد سبق أننا شكرناكم على بسالتكم وثباتكم أتم والضباط والعساكر الذين معكم وتغلبكم على المصاعب ، وكافأناكم على ذلك بتوجيه رتبة اللواء الرقيقة إلى عهدتكم ، وصدقنا على جميع الرتب والمكافآت التى منحتموها للضباط . كما أخطرناكم بأمرنا العالى الصادر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٦ نمرة ٣١ سائرة ^(١) ، ولا بد أنه وصل اليكم أمرنا المشار اليه مع البوسطة المرسلة من طرف دواتلو نوبار باشا رئيس مجلس نظار حكومتنا .

« وبما أن ما بذلتموه من حسن المساعى ، وما كابدتموه من الأعمال الخطيرة التى قتم بها ، قد استوجب زيادة محظوظيتنا منكم أتم والضباط والعساكر الذين معكم . فقد تروت حكومتنا فى الكيفية التى يمكن بها انجادكم ، وتخليصكم مما أتم فيه من المشقات . والآن قد تشكلت نجدة تحت رئاسة جناب المستر ستانلى العالم الشهير والسائح الخير الذائع صيته بين الممالك لكمال فضله على أقرانه . واستعدت هذه الرسالة للذهاب اليكم ومعها .

(١) يقول سمو الامير عمر أنه بحث عن هذا الأمر فى ملفات القلعة فلم يجده .

ما أنتم في حاجة اليه من المؤونة والذخائر بقصد حضوركم أنتم والضباط والعساكر إلى مصر على الطريق الذي يترأى للمستري ستانلى الموما إليه انه أكثر موافقة وأسهل عبوراً. « و بناء عليه أصدرنا أمرنا هذا لكم ، ومرسلينه بيد المستري ستانلى الموما اليه اعلاماً بالكيفية . فيوصله تبلغونه إلى الضباط والعساكر الموما اليهم وتقرأونهم سلامنا العالى ، ليحيطوا علماً بما ذكر . وانا مع ذلك نترك لكم وللضباط والعساكر الموما اليهم الحرية التامة فى الإقامة أو تفضيل اغتنام فرصة الحضور مع هذه النجدة المرسلة اليكم . وقد قررت حكومتنا بأنها ستصرف لكم ولجميع المستخدمين والضباط والعساكر كامل ماهياتهم ومرتباتهم المستحقة . .

« وأما من يريد البقاء فى تلك الجهات من الضباط والعساكر فله الخيار ، إنما يكون ذلك تحت مسؤوليته ، وبارادته المطلقة ، ولا ينتظر بعد ذلك أدنى مساعدة من الحكومة غافهموا ذلك جيداً ، وبلغوه بتمامه لسائر الضباط والعساكر المذكورين ليكون كل منهم على بينة من أمره .

وهذا كما اقتضته ارادتنا . الامضاء

« توفيق خديو » .

وكتب نوبار باشا كتاباً فى هذا المعنى نفسه لأمين باشا .

● وفى أثناء المداولات مع ستانلى فهم أمين باشا منه أن انجلترا تعرض عليه البقاء ، وتشجعه على احتلال جميع النقاط التى تصله بالحيط الهندى ، على أن تدفع له نفقات الجنود ونفقاته هو شخصياً ، بشرط أن يكون تابعا لها

فرفض أمين باشا أن يبت فى هذا العرض ، وذلك لأن إقرار مشروع خطير كهذا ، إنما يملكه قواده وضباطه وجنوده الذين يتبعون مصر .. ولا بد له من مشاورتهم . ومعنى هذا — بطبيعة الحال — أن أمين باشا رفض عرض ستانلى ، أو عرض انجلترا ، فى أن

يكون حاكماً باسم لندن في خط الاستواء،
لأنه من المستحيل على الحماية المصرية أن
تخلع جنسيتها ووطنيتها لغير سبب ، أو
لأى سبب .

ولما دقق ستانلى في معرفة اتجاهات أمين
باشا الشخصية علم منه أنه هو شخصياً يميل
إلى البقاء ، ولا سيما أن الخديوى خيره بين
الأمرين : البقاء أو الرحيل . ومع هذا إذا
كان الضباط المصريون يرغبون في العودة

« أمين باشا »

إلى وطنهم فإنه يكل أمر اعادتهم لستانلى ، ويبقى هو حاكماً للمنطقة .

وهنا أبان ستانلى عن نياته بوضوح أكثر من ذى قبل، فقال له إن لديه اقتراحين .
أولهما — أن ملك البلجيك يعرض على أمين باشا أن يحكم المنطقة باسمه ، على أن
يدفع له سنوياً مبلغاً بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف جنيه .

. ثانياً — أن يجمع أمين باشا جنوده عند الركن الشمالى الشرقى لبحيرة فيكتوريا
نيازاً ، وأن يمثل مع جنوده شركة تجارية ، مثل شركة الهند الشرقية التى استعمرت
الهند ، وقد خصص رأسمال لهذه الشركة مقداره ٤٠٠.٠٠٠ جنيه . وبمجرد موافقته
تبدأ التموينات فوراً فى الورد إلى مقر أمين باشا . والشركة تزمع ابقاء جميع الضباط
والجنود على رتبهم ومراتبهم وتتعهد بدفعها .

واطلع ستانلى أمين باشا على خرائط ومكاتبات ملك البلجيك ، وعلى رغبته فى
النفوذ إلى أرض النيل ..

وبعد أيام وصلت باخرتا الحكومة إلى مقر المسكرات التى اجتمع فيها القطبان أمين



وستانلى ، وكان يقودهما حواش افندى ، وقد حمل معه ما أطاقت الباخرتان حمله من الميرة والزاد . ويعلق سمو الأمير عمر على هذه الحالة بقوله :

« وهنا مثار للعجب إذ انقلبت آية هذا الانقاذ من اسداء المعونة إلى الاحتياج اليها . »

وابتهج أمين باشا بقدم حواش افندى ومن معه من الضباط ، وأخذ يشرح لهم الموقف وعروض

« فيتا حسان »

الحكومة . ويذكر فيتا حسان أن حواش افندى تكلم أكثر من سواء ، ثم اتفق الجميع على استعدادهم لتنفيذ الأوامر التي تصدر لهم ، وهذه طبيعة الجندي المستقيمة الصريحة .

واتفق أمين باشا مع ستانلى على أن يترك له « جفسن » لكي يعود معه ، ويستفتى بنفسه الحاميات المصرية ، ويقف على نتيجة الاستفتاء فوافق ستانلى على أن يذهب هو إلى غابات الكونجو حيث ترك معظم حملته وأعوانه ، كي يحضرهم إلى شاطئ البحيرة .

وكان مسلك « جفسن » سافراً ، فقد أخبر الحاميات وهو يمر عليها أنهم إذا لم ينسحبوا « فإن انجلترا لن تساعدهم » . وكان هذا الرجل يعلم من حوادث الدنيا وما حدث فيها أكثر مما يعلم هؤلاء الساكنين . فهو يعرف أن مصر كلها خضعت لقوة انجلترا العسكرية بعد هزيمة التل الكبير ، وهو لا يرى حرجاً في أن يتكلم بوقائع الحياة في مصر ، ولكن مصر يخطط الاستواء كانوا يعيشون في جو مصرى حر . في جو مصرى عاش يكافح الغزو المهدى والثورة الداخلية ، ودفع أمدح الأمان في سبيل الاحتفاظ بالحرية والاستقلال . فلم يكن هذا الجيل من المصريين يفهم معنى احتلال مصر ، ولم يكن يفقه بعد مدى سلطة « قنصل » مصر في انجلترا .

عاش هذا الفريق من أبناء مصر عيشة نقية رحية ، شديهاخير ، ورخاؤهاخير ، لأنها في الحالين عيشة كرامة وعزة .. فكانت لغة جفسن غريبة عليهم . ولهذا لم يتردد معظمهم

فى أن يتهم أمين باشا . . يتهمه فوراً بأنه يبيع المديرية ، ويبيع قوادها وضباطها وجنودها للانجليز .

كانت الصدمة عنيفة ، وما من جمع من الجنود انفض حتى أخذ يشك فى أن هذه البعثة ، بثيابها الرثة البالية ، قادمة من مصر ، وأنها تتكلم حقاً باسم « افندينا » .
واحتمل أمين باشا هذا كله صابراً . فهو يفهم ما صارت اليه الحال فى القاهرة ، وهو يشفق على هؤلاء الجنود الأبرياء من أن يفهموا ما يفهمه هو .

وكان يتلى على الجنود نداء من ستانلى ، تكلم فيه باسم الخديوى وباسم حكومة مصر ، يحثهم فيه على مغادرة سرا كرتهم ، وهو نداء طويل تبدو فى ظاهره الشفقة ، ولكنه يحمل فى باطنه أشياء وأشياء .

ووصلت البعثة - وهى مكونة من أمين باشا وجفسن وفيتا حسان - إلى دوفيليه مقر قيادة البكباشى حواش افندى منتصر . وينقل كتاب مديرية خط الاستواء عن فيتا وصف استقبالهم هناك :

« كان ذلك فى ١٥ يوليوسنة ١٨٨٨ . واستقبل حواش افندى البعثة استقبالا باهرا ، كانت الجنود فيه مصطفة على ضفة النهر . ولدى نزولهم من الباخرة ذبحت جاموسة تحت أقدامهم . وكان الطريق الطويل العريض الممتد بطول المحطة مفروشا برمال صفراء ، الأمر الذى ألبس الناحية بهجة أيام العيد .

« وفى وسط الطريق نصب حواش افندى تحت ظل أربع شجرات ضخمة من شجر الجيز شبه مصطبة لأمين باشا وجفسن وفيتا حسان والضباط . وان هو الا أن أخذوا مقاعدهم حتى قدم لهم الشرابات ثم القهوة أربعة من الزنوج مرتدين ثيابا بيضاء مع الأبهة المألوفة فى سرايات القاهرة . وكانت القوط مزركشة بالذهب والفناجين من الصينى المزين بالزهور .

« وكان جفسن لا يتوقع أن يرى مثل هذه الخيرات ، ومثل هذا الفنى وانزافية

لدى أناس يعيشون فى قلب أفريقية . وكان يظن أنهم يعيشون فى أشد حالات القحط ، ويقاسون أهوال وآلام الجوع ، وفى حالة تستوجب الأسعاف . ولذلك دهش وجمدت أعصابه ، وصار يقلب الطرف ذات اليمين وذات الشمال ويقول لأمين باشا وللحاضرين ، أنها لعمر الحق خسارة وأى خسارى ترك بقعة كهذه .

« وأعد لهم حواش افندى مساكن استوفت شروط الراحة ، تمكنوا فيها من تمضية الوقت الذى أقاموه فى دوفيليه ناعمى البال ، قبل أن يسافروا إلى لاهوريه ومحطات الشمال .. »

وأنا لنقف برهة أمام هذه الأحساس الذى غلب مندوب الاستعمار ، وهو يدعش لهمة هذا المصرى العظيم ، الصغير فى منصبه ، الكبير فى كفايته ، هذا المصرى الذى أوجد فى أكوخ القش على قارعة خط الاستواء مستوى من الحياة والنظافة والنظام أذهل هذا الذى أقبل من لندن والقاهرة لكي ينقذ حواش افندى ومن معه من برائن المناطق الاستوائية الوحشية .. لا عجب إذن أن نسمع أن المندوب الذى أقبل يسحب الحمايات يهتف من غير وعى مرردا الخسارة الكبرى إذا تم ما أقبل من أجله . انه يريد أن يطفىء هذا السراج الوهاج الذى اضاءته مصر بانبائها ودماؤها ومالها فى قلب أفريقية .. ● ولما انتقل أمين باشا ، ومندوب « الانقاذ » إلى الشمال أخذ الهياج يزداد ، والرغبة فى التمرد على قرارات السفر المريبة تقوى وتشتد .

وأخذت متاعب أمين باشا تتضاعف ، وهو مه تزايد . وزاد فى أشجانه وأحزانه خبر محزن ورد له من دوفيليه ، وهو أن ضابطا من الشمال معه عدد من الجنود رحل إليها . وأخذ يخطب فى جنود الفرقة الثانية يحضهم على عدم السفر ، ويقول لهم « ألا يوجد لدى أفندينا بك من البكوات يستطيع أن يرسله إلينا إذا كان يريد حقا وصداقا استدعاونا إلى مصر . » وظل هذا الضابط يحذرهم من مؤامرة « النصرانى » الذى يزعم أنه مندوب الخديوى ، ويريد أمين باشا أن يتابعه فيها ، ويريد حواش افندى أن ينفذ امرها معا ..

ووجد الجنود فى كلامه منطقاً فصدقوه ، فما كان منه إلا أن حبس حواش افندى فى منزله ، وأمره بالآلا يتصل بأحد .

وكان اسم هذا الضابط التأثير على العودة فضل المولى افندى . . .

● وقرر أمين باشا أن يعجل بالعودة إلى دوفيليه وما أن وصل هو وفيتا حسان ، حتى وقعا فى أسر الثوار ، وحجزوا فى دار الباشا ، إلا أن هو حواش افندى كان يرسل لهما من منزله ما هما فى حاجة إليه من مرطبات وقهوة . أما جفسن فلم يقبض عليه وترك حراً . وكانت مطالب الثوار تتلخص فى عدم السفر ، وإعادة ستانلى من حيث آتى ، وعزل حواش افندى الذى يميل دائماً إلى تنفيذ أوامر أمين باشا ويشتد فى معاملة الضباط والجنود . وجاءت الأنباء بأن ستانلى وصل إلى حدود المديرية الجنوبية ، فسافر جفسن لاستقباله مع بعض الضباط .

واستدعى الثوار زملائهم فى المحطات المتفرقة وعقدوا مجلساً عزلوا فيه أمين باشا لأنه يميل إلى السفر وحواش افندى لأنه ينفذ أوامر الباشا وعينوا أحدهم حاكماً للمديرية (حامد محمد) وآخر قائداً للفرقة الثانية ، ثم أصدرت هيئة الثوار أوامر بترقيات كثيرة منحها لنفسها وكان أهم ماعملته أنها نهبت منزل حواش افندى ! ؟

وتقبل أمين باشا هذه الحالة صابراً . فقد جربها عليه بعثة ستانلى المشؤومة . ولكنه أمر باستدعاء ضباطين وقاضى المديرية ، وكتب وصيته ، وجعل ابنته فريدة وريثته فى كل شىء ، وعين سمو خديوى مصر منفذاً للوصية .

● وحدث فى أثناء هذه الأزمة العصبية حادثة خطيرة . إذ جاءت الأنباء بأن تسع سفن وصلت إلى المحطات الشمالية تحمل قوات كبيرة من الدراويش لغزو المديرية ، يتولى قيادتها عمر صالح . وأرسل هذا القائد رسالة طويلة جداً إلى أمين باشا مع ثلاثة من أعوانه يستعرض فيها تاريخ الثورة المهدية وانتصاراتها ويدعو إلى تسليم المديرية .

وهنا وقع الثوار فى حيرة منكرة ، فوافدوا ثلاثة منهم لاستشارة أمين باشا ، فقال لهم : أنه عزل من عمله ، وهو مسجون ، فلا رأى له !!

وأمام الخطر المحدث انقسم المعسكر إلى معسكرين إلا أن أقواهما كان في صف أمين باشا . وسادت القوضى ، واشتد القلق ، وعظم الجدل ، ولم يعرف أحد في هذا البحر الصاخب كيف تساس الأمور . وأسرت حكومة الثوار تعزز حامية الرجاف ، ولكن الأنباء جاءت ، بأن الدراويش استولوا على هذه المحطة وسبوا أولادها ونساءها ومنهم أسرة حامد (بك) الحكمدار الجديد الذي اختاره الثوار رغم أنه .

وكان الضابط الباسل سليمان افندى سودان^(١) الذي سبقت الإشارة إليه قد أقبل ، فقوى حزب أمين باشا ، وتولى زعامته الضابط سليم افندى مطر . ولم يلبث الجميع . ومنهم فضل المولى أن ارتدوا كساوى الشريفة الكبرى ، وذهبوا إلى أمين باشا يعتذرون ويطلبون منه أن يصفح عن الجميع صفحا أبويا ، فصامهم أمين باشا بكرم وسخاء ، وصفح عن الجميع .

● وسمح الثوار لحواش افندى بأن يسافر إلى وادلاى ثم أبحر بعده أمين باشا . وقرر الباشا أن يرسل البواخر على عجل إلى دوفيله لنقل النساء والأطفال ، ولا يبق هناك غير الجنود . ورحلت السفن ، ولكن لم يرد عنها أى خبر . وتبين أن الدراويش هاجموا المحطة ، وأسروها كل من فيها . وكانت هذه الأنباء ضربة أليمة ، لم يلبث الضباط في باقى المحطات بعدها أن عادوا يستعطفون الباشا فى أن يتولى قيادتهم الفعلية .

ولكن أمين باشا لم يقبل هذا العرض ، فقد أحدثت له الحوادث الماضية هزة نفسية عنيفة فقرر التنحى عن القيادة ، ومغادرة المديرية . وفى اليوم التالى رحل عن وادلاى هو وفيتا حسان والإنجليزى جفسن وحواش افندى . وفى الطريق رأوا دخان باخرة ، فحسبوا أن، الدراويش بعد أن استولوا على البواخر جسدوا فى أثرهم ، ولكن تبين أن الباخرة « الخديوى » مازال مصرية ، وأنها تحمل أصدقاء ، وقد جاءتهم بالأنباء التالية

(١) أصيب سليمان فيما بعد برصاصة عاجله منها أمين باشا ، ولكنه مات منها

وهي أن محطة دوفيليه هوجت وأن الدراويش اقتحموا نصفها ، واستولوا على باخرة ، ولكنهم ردوا عنها بنحسارة فادحة ، وأمكن استنقاذ الباخرة منهم مرة أخرى . وحتى لا يتعرض النساء والأطفال للخطر حملوا في السفن ورحلوا إلى الجنوب . وأرسل البكباشي سليم افندي مطر رسالة بهذه التفاصيل إلى الباشا . وكان تاريخ رسالته ٢ ديسمبر ١٨٨٨ ● وعلى الرغم من أن الحالة لم تكن من السوء كما توقع أمين باشا ، إلا أن الفتنة التي أحدثتها ضده نوايا ستانلي ، خلصته من تبكيت الضمير فيما لو فارق المديرية . فقرر أن يتابع الرحلة .

وكانت إشاعة عودة ستانلي كاذبة ، وقد مضى على آخر اجتماعاته مع أمين باشا سبعة أشهر كاملة حدثت فيها هذه الحوادث الغريبة فلما كان الشهر التاسع على أوبته إلى الكونغو . جاءت الأنباء بأنه وصل مرة أخرى إلى الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة البرت . وفي آخر يناير سنة ١٨٨٩ كانت رسالته قد وصلت إلى صاحبه جفسن ، وكذلك إلى أمين باشا .

وكان ستانلي مروراً للخسائر الفادحة التي حلت بحملته ، إذ سلك بها طرقاً معوجة خطيرة حتى مات ١٨٠ رجلاً من ٢٧٤ كانوا معه . فكتب إلى جفسن يقول له أنه إذا لم يكن من رجال المهدي ، ولا من رجال أمين باشا ، فعليه أن يوافيه فوراً حيث هو . فسافر جفسن ، ثم تبعه أمين باشا ومن معه . قال مؤلف كتاب « حياة أمين باشا »^(١) « إن حملة ستانلي ، عند ما وصلت إلى البحيرة في المرة الثانية لم تكن أحسن حالا مما كانت عليه عند مجيئها في المرة الأولى في السنة الماضية . ولم يكن لدى ستانلي شيء من العطف والميل لا نحو أمين باشا ، ولا نحو ضباطه . فكان يعتقد أن حملته أخطأت قصدها ولم تصب قط مرماها ، وكان هذا الاعتقاد المضني يشغل كل أفكاره .

» وأن مهمة ستانلي لم يكن من مقاصدها تمكين أمين باشا من مواصلة نشر العمران في ربوع مديريةية خط الاستواء المصرية ، كما لم يكن من أغراضها انقاذه بتوصيله إلى

(١) عن مديريةية خط الاستواء ج ٣ ص ٢٠٧ .

ساحل البحر ، بل كان جل ما ترمى اليه اكتساب أقليم متراعى الاطراف لصالح شركة انجليزية يبشر بادرار الخيرات الكثيرة . يباشر حكمه مدير خبير محنك .

« أما الآن وقد أمسى أمين ، باشا ، لا يملك جيشاً فليس له منه فائدة . والشئ الوحيد الذى مازال فى الاستطاعة جنيه من الحملة هو انقاذ ذلك الرجل الذى كانت أوربا بأسرها مهتمة بأمره لانقاذه من الهلاك مهما كلفه انقاذه من محن ورزايا تجل عن الوصف .

« وكان هذا الانقاذ لا بد من اتمامه فى أقرب آن مع صرف أقل ما يمكن من المال .

« وكان ستانلى يمتت اتباع أمين باشا . وكان يود حصرهم فى أقل عدد ممكن . ولو

بقيت جنود أمين باشا ، وباشر المسير على رأسهم لفتح أقليم البحيرة لحساب انجلترا لما كان ستانلى قد تضرر منه . وما كان يقيم العراقيلى فى وجهه . أما الآن وقد أصبح

هؤلاء الجنود عاجزين عن تنفيذ الخطة التى كان ستانلى قد علق عليها الآمال ، فقد صار كل شئ يعمل للحيلولة دون انسحابهم ، لأن فى استطاعة الجنود أن يضايقوا ستانلى

فى ادارة الحملة التى كان يريد أن يكون مطلق التصرف فيها . ولكى يجد أيضاً حجة

مقبولة فى الظاهر لاستبعاد هؤلاء الجنود والتخلى عنهم ، عزالىهم نية الخيانة ، واتهمهم

بأنهم لا يبيتون نية القبض على أمين باشا فقط ، بل على ستانلى وضباطه وتسليمهم

للمهدين . وهذه التهمة التى ليس لها أساس أصلاً أصبحت مصدر كل ما نسبته ستانلى إلى

الجنود من المثالب ، وكل ما صوبه اليهم من المطاعن . »

وبدلاً من أن ينتظر ستانلى تكامل موظفى الحكومة الراغبين فى الانسحاب ،

ولا سيما أن بعض المرافقين لأمين باشا كانوا قد تركوا بعض أو كل أهلهم ، وهم ينتظرون

قدومهم . فكنت ترى زوجة تنتظر زوجها ، أو أباً ينتظر ابنه وهكذا ..

ولكن ستانلى ذلك الرجل الفط المستبد الملتوى القصد ، هدد الجميع بمدافعه الرشاشة

وأجبر من أراد المسير منهم على متابعته دون ابداء أى رأى أو مناقشة أو رعاية أى قاعدة

أو عاطفة . ولم يحدث فى تاريخ الصلات البشرية بين الناس بعضهم وبعض مثل هذه

الفظائع المنكرة التى ارتكبها ستانلى وهو « ينقذ » موظفى الحكومة . وكان يكفى أن يرتكب أى فرد خطأ لكى يعدمه . بل لقد أمر بقتل أحد المحالين ، ثم أمر بأن تقطع جثته ثمانى قطع !!

وفى الطريق كانت ترد الأنباء بأن الضابط سليم بك مطر — فقد رقى إلى رتبة قائمقام — مجد فى اللحاق بالحملة مع ٣٧ ضابطا وصف ضابط . وأنه ترك حكم المديرية لفضل المولى بك قائد ثورة البقاء ، ولكن ستانلى لم يأذن بالانتظار مطلقا .. وكان أمين باشا يذوب حسرات على ما يحل برجاله ، حتى أنه عند ما كان أحدهم يمرض بضربة شمس ، ولا يوجد حاملون لحملة ، كان ستانلى يأمر بتركه فى الطريق .. وأى طريق .. حيث توجد الوحوش ولا يوجد انسان ، وإن وجد ، فيكون من أهل نيام نيام !! ما أكثر ما ندم أمين باشا ، ولكنه دفن نفسه فى حيز مهمل من القافلة ، وكل رجائه أن يغمض عينيه ثم يفتحهما ، فإذا هو على شاطئ المحيط الهندى . وهناك يفتح عينيه ، ويستنشق أنفاسا طويلا ، لا لأنه عاد إلى الدنيا ، ولكن لأنه تخلص من « منقذه » ستانلى .

وأخيرا — فى يناير سنة ١٨٩٠ — وصلت الحملة إلى منفذ من المنافذ التى تطل على الدنيا .. وصلوا إلى ما كان يسمى أفريقية الألمانية الشرقية . وتناقلت أسلاك البرق نبأ وصول أمين باشا ، وتهافت عليه البرقيات من كل مكان تهنته . منها برقية من الخديوى يضع تحت تصرفه وتصرف أعوانه الباخرة المنصورة لكى تقلبهم إلى مصر . وأخرى من امبراطور ألمانيا ..

ولكن حادثا وقع غير سير الأمور تغييرا تاما . ففى أثناء وليمة فى بلدة « باجامويد » برزبار خرج أمين باشا لكى يطل من نافذة ، وكانت مرتفعة عن الأرض أربعة أمتار ، وغير محكمة الصنع ، فهوى منها الباشا ، ونقل فورا إلى المستشفى حيث بقى شهرين تحت العلاج .

● أما بقية المصريين وفيتا حسان الذى أرخ كل هذه الحوادث ، فقد عادوا إلى مصر على الباخرة المصرية ، فوصلوها فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٠

وكانت القافلة التى قادها ستانلى - لينقذها - مكونة من ٧٠٠ فرد (فى رواية ستانلى ٥٥٠ فقط) منهم ١٧٣ موظفا مصريا وأسره . ولم يصل من هذا العدد إلى زنجبار إلا ٢٠٠ فقط وهلك فى الطريق ٢٥٠ شخصا ، وهرب الباقون وهم من المحالين لسوء المعاملة ويعلق سمو الأمير عمر على هذه النتيجة بقوله :

« ومن الواضح الجلى أن رحلة كهذه من بحيرة البرت نياترا إلى الساحل فيها كثير من التعب والمشاق فى ذلك الوقت ، إلا أنه أيضا من المحقق انه لو كانت حملة منقذهم راعت أن قافلهم تمتاز ولو شيئا قليلا عن قطع من الأنعام ، ما كان لازمها النحس وحلت بها كل هذه الخطوب ..

« وما من مصرى يقدر أن يشعر بعاطفة ميل أو ود نحو ستانلى الذى اشترك اشتراكا فعليا فى اقتطاع أحسن وافيد مديرية من مديريات مصر فى السودان ، ولكن لامندوحة من الاعتراف بأنه رجل صبور على المكاره ، وذو بأس نادر استعمله ويا للأسف ضدنا . ولكن حكومة مصر فى ذلك العصر هى التى تستوجب منا أشد اللوم ، لسذاجتها التى أوقعتها فى هذا الشرك ، وورطتها فى التوقيع على سلخ هذه المديرية من السودان المصرى فى الوقت الذى لم يكن عليها سوى أن تترك هؤلاء الجنود حيث كانوا ، ولو التزمت هذه الخطة ثبت هؤلاء فيها إلى أن أعيد افتتاح السودان . »

● وما حدث لأمين باشا بعد شفائه انه التحق بخدمة الحكومة الألمانية ، وأراد أن يعيد المديرية تحت ادارته ولكن لحساب برلين ، وفى أثناء عودته لاجتياز الطريق إلى البحيرات قتل الزنوج ، ولعلمهم أكلوه !!

● وأما فضل المولى بك وغيره من المصريين الذين أصروا على البقاء والاحتفاظ بالسيادة المصرية على منطقة البحيرات فقد جندتهم شركة شرق أفريقية فى خدمتها ،

وعلقوا خدمتهم لها على شرط موافقة الحكومة المصرية .. ولكن الحكومة المصرية لم تكن بهم ، أو تسأل عنهم وهكذا ابتلعت الشركة المنطقة كلها (١)

● وأما الذين عادوا إلى مصر فكان على رأسهم عثمان افندى لطيف وكيل المديرية والبكباشى حواش افندى منتصر ، والصاغ ابراهيم افندى حلیم وثمانية ضباط آخرين ، وسبعة عشر من الموظفين المدنيين . ومع الجميع فيتا حسان ، والايطالى ماركو جسبارى واليوزباشى كارأتى ..

وهكذا .. وهكذا انتهت هذه الصفحة المشرفة .. صفحة البطولة والتضحية الخالدين .. صفحة مصر ، وأبطالها المنسيين .. صفحة أبناء النيل البررة الذين أحبوا نهرهم ، وأحبوا أرض نهرهم ، وعاشوا فى منابه أعز أيام حياتهم ، وكأخفوا وكابدوا لكى تظل الراية المصرية مرفوعة ، لم يوهن من عزهم أن مصر نفسها احتلت ، ولم يضعف من يقينهم أن السودان نفسه احترق بالثورة المهدية .. لا ، ولم تتخاذل شجاعتهم أمام المفاجآت والخطوب وانتفاضات الزنوج ، كلما رأوهم قلة مقطوعة عن العالم . حتى إذا انقضى على مقامهم فى منطقة البحيرات عشرة أعوام ، أهملتهم فيها حكومتهم ، بل حاولت أن تقطع صلتها بهم .. وما كان هؤلاء الأبطال أن يسلموا أرض الوطن، إلا عندما

(١) كان أمين باشا قبل مصرعه واتهام « أفريقية » له قد قابل سليم بك مطر وطلب منه أن يعمل معه هو وجنوده وعددهم ٨٠٠ جندى ومجموعهم مع أفراد أسرهم وأتباعهم ثمانية آلاف. فرفض سليم بك وكان مسكراً فى « كافالى » وقال لأمين باشا انهم جميعاً من رعايا الخديوى ، ولا يقبلون العمل فى خدمة الحكومة الالمانية .

ثم أقبل الكبتن لوجارد نيابة عن الشركة التجارية ، وحاول استمالة سليم بك مطر ، فقال ان شعره ابيض فى خدمة الخديوى ، ولا شئ يحوله عن الاخلاص للعلم الذى عاش تحته طول حياته . ولكنه مع هذا يستطيع أن يشتغل فى الشركة مع جنوده اذا صرح له الخديوى ، على أن يحتفظ بمنسبته ، ويعمل مصالح حكومته .

وكان رد مصر أنها رفضت الاعتراف بجنودها فى خط الاستواء ، ورفضت صرف مرتباتهم ، واعتبرتهم عصاة لانهم لم يطيعوا أمر ستانلى بالاخلاء !! وكانت نهاية سليم بك انه مات ، وهو مسروق من أوغنده الى الساحل لعقوبته على تحزبه لمسلمى أوغنده !

تحركت الامبراطورية كلها تريد أن تنزعهم من أرض أحبوا وأحبهم ، واستعانت
عليهم بخديويهم وبمحكومتهم « السنية » وقد اقترن تدمير سلطان مصر باعنف وأعجب
ضروب القسوة التي طبقها ستانلي ، وكأنه يتعامل لا مع همج ، ولا مع وحوش ،
ولكن مع من هم أحط طبقة وأدنى منزلة .. فاللهم لاحول ولا قوة إلا بالله .

وقد انتهى أمر منطقة البحيرات بأن نزعت من مصر ، لا بمفاوضة ، ولا بحرب فيها
هزيمة ونصر ، ولكن باستغلال السلطة التي خلقتها في مصر ظروف الاحتلال . فقد
نصت معاهدة الحكم الثنائي التي وقعت بين اللورد كرومر و بطرس باشا غالي في
١٩ يناير سنة ١٨٩٩ على ما يأتي :

« تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكائنة إلى جنوبي
الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

« أولا — الأراضي التي لم تخلفها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو
« ثانياً — الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة
وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو
« ثالثاً — الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً »
ولم تنص المعاهدة على حدود السودان الجنوبية ، وذلك لأن السكوت في بعض
الأحوال من ذهب . والذهب هنا بعض مكاتبات مع ملك أوغنده وملك أو نيورو مثل
عشرات بل مئات الرسائل والهدايا التي تبودلت مع الخديوي اسماعيل ، ومع حكامه حتى
آخر عهد أمين باشا بالحكم هناك . وقد استندت بريطانيا على هذه المكاتبات ورفعت
رايتها على منطقة البحيرات دون رعاية لأي مصالح جغرافية أو تاريخية أو واقعية .

وإذا كانت حكومة مصر في تلك الأيام قد عاشت في ظلام مطبق ، فان هؤلاء الأبطال
الجهول من أمثال سليم بك مطر وأعوانه الذين خلفوا في منطقة البحيرات حاولوا أن
يبقوا على مصر مصدر مأثراً أو مصدر حياتها ، فلما غلبوا على أمرهم ودفنوا حياتهم ثمناً
لهذا النضال المار غير المتسكفي ، انتهت المقاومة الأخيرة هناك .

وقد نسيت مصر تماماً سليم مطر ، بل لولا جهود الأمير عمر طوسون في
الكشف عن شخصيته وأعماله من بين أكذاس التقارير والكتب الأجنبية ، لظل

نسياً منسيا . وكان آخر ما ذكر عن هذا الرجل المخلص ، ما رددته عنه اللورد لوجارد —
قد منح هذا اللقب — في محاضرة القاها عام ١٩٣٠ ، أى منذ خمسة عشرة عاماً .. قال :
« ... ضمنا الينا السودانيين ، وأمكنا أن ترتبط معهم بعلاقات ودية . فإخلاص
هؤلاء بقيادة رئيسهم الطاعن في السن — سليم بك مطر — لحاكمهم الخديوى ، الذي
قاتلوا المهدي وال دراويش في ظلال رايته مدة خمسة عشر عاماً كما يقولون ، هو إخلاص
يحرك العواطف ، ويثير الخنان في النفوس . ولقد مر أربعون عاماً ، ومع ذلك فإني
لا أستطيع أن أحتمل أن تمر بمخيلتي ذكرى الظروف التي انبنى عليها نهاية خدماته
المتعبة بالبسالة والاقدام »

وكان الاسلام قد وصل في نفوذه حول البحيرات إلى حد لا تأمن أى قوة استعمارية
على نفسها من الوجود معه في صعيد واحد . ولهذا نرى الما جور مكدونالد الذي كلف
بتثبيت قواعد الحكم البريطاني هناك يقول في أحد كتبه عن مهمته :
« لقد كان من حسن حظي ، وأنا قومسير مؤقت ، أن أعمل بصفة قطعية على
ملاشاة آخر مجهود تبذله الهمجية الاسلامية لطرد النفوذ الأوربي ومشروعات
المبشرين .. والتمدن !! »

وقد نسي الكاتب المذكور أن حكومة مصر هي التي كانت تسهل لمبشرى
المسيحية الذهاب إلى منطقة البحيرات ، وهي التي أمدتهم بالمال ، وبكل تسهيل ، لأنها
حكومة اسلامية لم يعلمها دينها التعصب ، وهي تؤمن بمبدأ البقاء للأصلح . وكان هذا
هو جزاء ما صنعت .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى بقايا القوات المصرية ، وهي القسم الذي كان
يقوده فضل المولى بك قائد ثورة البقاء الأولى ضد أمين باشا .

فبعد انسحاب أمين باشا ، ظهرت بلجيكا من الغرب زاحفة من الكونجو لكي
تلتهم بدورها قسماً من هذا التراث المبدد ، وحاولت أن تضم اليها فضل المولى وجنوده .
وكان هؤلاء الجنود في حيرة ، فقبلوا أن يأخذوا رواتبهم من بلجيكا على أن يرفعوا
أعلامهم المصرية كما هي . وفي أثناء مقامهم بالقرب من وادلاي ، اشتبكوا مع
قوات متفوقة من الدراويش فقتل فضل المولى ، ولكن ما تبقى من قواته ظل على ولائه

تُصروا راياتها حتى وصل الانجليزى الماجور ثرستن ، وقد أعمل الحيلة لكي لا تصطدم بلجيكا بالجلترا فى هذه المناطق ، فرفع الراية المصرية على معسكره ، وأخرج من جيبه راية تعيينه ضابطا فى خدمة الحكومة المصرية ، وما أن رآها « احمد على » القائد الجديد للقوة حتى وضع نفسه فى خدمة « ثرستن » . فطلب منه أن يسوق قواته إلى الجنوب — وكانت مع أتباعها وأفراد أسرها خمسة آلاف — وهناك فى أوغنده صنعوا بالضباط ما صنعوه بسليم بك مطر ، فقد عزلوا من قيادتهم ، وجند الجنود فى خدمة الحكومة البريطانية مع غيرهم من فرقة سليم بك المنحلة ، وكان عددهم يبلغ ١٦٠٠ جندي . وخطر للحكومة البريطانية أن تسوق هؤلاء الجنود فى طريق طويل ماراً ببخيرة رودلف ، لكي تقاتل بهم حملة مارشان الفرنسية فى فاشودة ، فلم يذعن الجنود ، وفضلوا . هم أن يقصوا السلطة البريطانية من أوغنده ، بمعونة مسلمى هذه المنطقة ، وثاروا . فأحضرت لهم انجلترا قوات هندية ظلت تقاتلهم أكثر من عام ، حتى أفنتهم عن آخرهم . وبفنائهم تنقلص آخر ظال لروح التمدن المصرى الحقيقى فى تلك المناطق .

مصر والنيل

— ١ —

بمبراتنا وأرضنا

فى سنة ١٩٢٩ ، وصل المغفور له محمد محمود باشا مع الحكومة البريطانية إلى عقد اتفاقية النيل ، وهى خطابان متبادلان بين الحكومة المصرية و (دار المندوب السامى) فى ٧ مايو من العام المذكور ورد فيها :

١ — أن المفتش العام لمصلحة الرى المصرية فى السودان أو معاونيه أو أى موظف آخر يعينه وزير الأشغال ، تكون لهم الحرية الكاملة فى التعاون مع المهندس المقيم بخزان سنار لقياس التصرفات والارصاد كي تتحقق الحكومة المصرية من أن توزيع المياه وموازنات الخزان جارية طبقا لما تم الاتفاق عليه .

وتسرى الاجراءات التفصيلية الخاصة بالتنفيذ والمتفق عليها بين وزير الأشغال ومستشارى رى حكومة السودان من تاريخ الموافقة على هذه المذكرة .

٢ — ألا تقام بغير اتفاق سابق مع الحكومة المصرية أعمال رى أو توليد قوى ، ولا تتخذ اجراءات على النيل وفروعه أو على البحيرات التى ينبع منها سواء فى السودان أو فى البلاد الواقعة تحت الادارة البريطانية ، يكون من شأنها إنقاص مقدار الماء الذى يصل إلى مصر ، أو تعديل تاريخ وصوله أو تخفيض منسوبه على وجه يلحق أى ضرر بمصالح مصر .

٣ — تلقى الحكومة المصرية كل التسهيلات اللازمة للقيام بدراسة ورصد الأبحاث المائية لنهر النيل فى السودان دراسة ورصدا وافيتين .

٤ — إذا قررت الحكومة المصرية إقامة أعمال فى السودان على النيل أو فروعه أو اتخاذ أى اجراء لزيادة مياه النيل لمصلحة مصر ، تتفق مقدما مع السلطات المحلية على مايجب اتخاذه من الاجراءات للمحافظة على المصالح المحلية ويكون إنشاء هذه الأعمال وصيانتها وإدارتها من شأن الحكومة المصرية وتحت رقابتها رأسا .

٥ — تستعمل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وشمال أيرلانده وساطتها لدى حكومات المناطق التى تحت نفوذها لى تسهل للحكومة المصرية عمل المساحات والمقاييس والدراسات والأعمال من قبيل ماهو مبين فى الفقرتين السابقتين .

٦ — لا تخلو الحال من أنه فى سياق تنفيذ الأمور المبينة بهذا الاتفاق قد يقوم من وقت لآخر شك فى تفسير مبدأ من المبادئ أو بصدد بعض التفاصيل الفنية أو الادارية . فستعالج كل مسألة من هذه المسائل بروح من حسن النية المتبادل . فاذا نشأ خلاف فى الرأى فيما يختص بتفسير أى حكم من الأحكام السابقة او تنفيذه أو مخالفته ، ولم يتيسر للحكومتين حله فيما بينهما رفع الأمر لهيئة تحكيم مستقلة .

٧ — لا يعتبر هذا الاتفاق بأى حال ماسا بمراقبة وضبط النهر ، فان ذلك محتفظ به لمناقشات حرة بين الحكومتين عند المفاوضة فى مسألة السودان .

...

وقد سبق عقد هذه الاتفاقية أن التى رئيس الحكومة (محمد محمود باشا) خطبة ذكر فيها شيئا عن منطقة السدود ، وقال إن بعضها يقع فى أملاك بريطانية . وما أن علم سمو الأمير عمر طوسون بهذه الخطبة حتى غضب وكتب فى الصحف منكرًا أن جزءا

من منطقة السودان يقع في أملاك بريطانية . وذكر أنه لو احترمت إنجلترا معاهدة سنة ١٨٩٩ لكان أول واجب عليها إرجاع هذه البلاد ، وجعلها تحت إدارة حكومة السودان ، حيث أن هذه المعاهدة تشمل عموم الأراضي التي تكون منها السودان المصري القديم كما كان عليه قبل الثورة المهدية ، ولكنها لم تفعل هذا الواجب ، ولم تترعه في تطبيق هذه المعاهدة . وهذا لا يجعلنا نعتبر عملها الذي استندت فيه إلى القوة وحدها عملاً شرعياً فإن إنجلترا التي أخرجت مارشان من فاشوده بحجة أنها جزء من السودان المصري ما كان ينبغي لها بعد ذلك أن تسلم جزءاً من نفسها . وهذه الحجة لا تزال إلى الآن باقية » وقد أدت خطبة محمد محمود باشا إلى أن ألف الأمير عمر كتابه الشهير عن مديرية خط الاستواء ، وذكر فيه عن اتفاقية مياه النيل :

« اننا لعلّى يقين بأن حضرة صاحب الدولة محمد باشا محمود خدع في حسن نيته في أثناء المحادثات التي دارت بينه وبين الحكومة البريطانية عن المسائل الخاصة بمياه النيل لأنه لما كانت إنجلترا تعتبر هذه الأراضي أرضاً بريطانية ، وتنعتها بهذا النعت دائماً ، كان من الجلي أن هذا هو الذي لا بد أن يكون قد حدث مع دولته ، وأنه لم يفه بكلماته هذه إلا تحت سيطرة تأثيره بأن ماسمعه يوافق الحقيقة »

ومن الواجب ونحن نكتب عن النيل أن نذكر أهمية هذه المناطق لمصالح مصر الحيوية من جهة الري واحتياجات مصر المستقبلية إلى الماء :

● وقبل كل شيء ننبه هنا إلى ماسبق أن ذكرناه في المقدمة ، وهو أن ترفع وزارة الأشغال عن عرض أعمالها « التفصيلية » على الجمهور حتى يكون رقيباً على أن هذه الوزارة لم تقصر في حق مصالحه الحيوية . وقد قرأنا كلمة في مجلة المهندسين لعلّى بك فتجى قال فيها :

« لاحظت أن الكثيرين من المتحدثين عن مشروع كهربة خزان أسوان على صفحات الجرائد أو في مناسبات أخرى يتعرضون لنواحيه التفصيلية التي لا يمكن أن تطرح للمناقشة العامة ، ولا يمكن البت فيها إلا بمعرفة الجهات المختصة . فمن المعلوم أن لهذا المشروع نواحي فنية واقتصادية يتعذر فهمهما لكل سائر . وفتح باب المناقشة على

مصراعيه بهذا الشكل مضر ولا شك بمصالح البلاد . وأمامنا على سبيل المثال خزان جبل الأولياء الذى قامت حوله ضجة عظيمة ترتب عليها أن خيل لمعظم الناس أنه مشروع فاشل ، أو فيه إضرار بمصالح مصر ، بينما هو يؤدى لمصر خدمة لا تقدر .

« .. وكل ما يمكن للجمهور أن يطلبه هو معرفة الهيئات أو الأشخاص المسؤولين عن كل ناحية من النواحي السابق الإشارة إليها .. الخ »

فهذه العقلية البيروقراطية التى تسيطر على وزارة الأشغال هى التى تريد التخفيف منها . فنحن لا ننكر على مهندسينا كفايتهم ، ولا وطنيتهم ، ولا تقديرهم لمصالح البلاد .. كل هذا حسن ، ولكن لماذا نلجأ إلى المجلات والكتب الأجنبية لتأخذ منها التفاصيل عن مشروعات أعالي النيل ، وتعليق خزان أسوان الثالثة ، وكهربة الخزان .. وهل قراء مجلة « المهندس » الانجليزية التى تصدر فى لندن ، خير من قراء مجلة المهندسين العربية التى تصدر فى القاهرة ؟

لماذا يكتبون فى إنجلترا وفى أمريكا وفى جميع العواصم المتحضرة للجمهور المهتمين بالمسائل الفنية كل شئ ، وتضن هيئاتنا الفنية على جمهور المختصين المصريين بتفسير وتفصيل لأعمالها .

● وقد ثارت بحوث فى الأيام الأخيرة ، على صفحات الصحف من النوع الذى تكرهه وزارة الأشغال ، بدأها سعادة عبد القوى أحمد باشا ، بقوله إن برنامج السر مردوخ مكدونالد الذى أورده فى تقريره عن ضبط النيل أصبح برنامجا عتيقا ، إذ أنه حدد الأرض التى يمكن زرعها فى مصر بسبعة ملايين من الأفدنة ، فى حين أن فى الامكان أن تصل الأرض المزروعة إلى تسعة ملايين .

وانبرت وزارة الأشغال ترد على هذا الكلام فوصفته بأنه كلام مرتجل . وقالت ان الوزارة رسمت لنفسها برنامجا فى سنة ١٩٣٣ مدته عشرون سنة ، قدرت أن فى استطاعتها خلاله ، أى فى سنة ١٩٥٣ أن تصلح وتروى ٤٠٠.٠٠٠ فدان فى الوجه البحرى ، وتحول نصف مليون فدان فى الوجه القبلى من رى حياض إلى رى دائم . وبعد هذا التاريخ ستعنى وزارة الأشغال بتدبير الماء لـ ٩٠٠.٠٠٠ فدان من الأرض البور ، ونصف مليون فدان تروى رىا دائما وهى تروى الآن رىا حوضيا . وإذا سارت الأمور على هذا المعدل

الذى التزمته فى برامج ١٩٣٣ فانها ستدخل فى القرن الواحد والعشرين قبل أن تتمه ، أو تكون قد آتته فى نهاية هذا القرن .

● وهذه السياسة التى تسير عليها وزارة الأشغال أشد ما تكون خطرا على حاضر هذه البلاد ، وعلى مستقبلها ويجب أن ننبه بأعلى صوت ، وفى وضوح لا يلحقه ابهام ، إلى أن مصر توشك أن تلم بها المجاعة اذا سارت الأمور سير السلخفة الذى تترسمه وزارتنا البيروقراطية العتيدة ..

وما أعجب هذا التناقض بين الحالىن . فمهندس كبير معروف وعضو فى مجلس الشيوخ وكان قبل اليوم وزيرا مسؤولا ، ينادى بأن برنامج مكدونالد أصبح عتيقا ، ويجب أن يعدل عنه ..

أعرف ما يقول هذا البرنامج الذى يشور عليه عبد القوى أحمد باشا ، وقد وضع فى سنة ١٩٢٠ وأقره المرحوم اسماعيل باشا سرى ؟

يقول إن عدد سكان مصر سيتزايد حتى يصل فى عام ١٩٥٥ إلى ثمانية عشر مليونا ونصف مليون . وهذه الزيادة تقتضى أعداد مساحة أزيد من الأرض المزرعة لتدير غذائها ، هى سبعة ملايين من الأفدنة . وإذن فلا بد من عمل جدول دقيق لتنفيذ مشاريع الري ، بحيث لا ينقضى ٣٥ عاما ابتداء من عام ١٩٢٠ ، حتى تكون الأرض التى رويت ريا مستديما ، والبور الذى أصلح للرى المستديم قد زاد ١٨٠٠٠٠٠ ، ووصل المجموع إلى سبعة ملايين من الأفدنة .

وسياتى عام ١٩٥٥ ، ولن تعقم الأرحام ، ولن يكف عدد السكان عن الزيادة ، ومع ذلك فوزارة الأشغال تعدنا بأنه عند ما نصل إلى الرقم الذى ذكره السر مكدونالد ، نكون قد حققنا نصف البرنامج ، وبعد نصف قرن آخر نكون قد أتممناه !!

أعرف وزارة الأشغال أن سكان مصر سيصلون فى مطلع القرن الواحد والعشرين إلى رقم قد يزيد على خمسة وعشرين مليون نسمة ، أى أكثر من ضعف السكان فى الوقت الذى وضع فيه تقرير سنة ١٩٢٠ ؟ ! فإذا أعدت وزارة الماء لمواجهة هذه الزيادة غير الاعتصام بارستقراطيتها العالية ؟ وإذا نادى مهندس مسؤول بأنه لا بد من التعجيل

ومن زيادة عدد المزرع إلى تسعة ملايين ، قالت الوزارة في وقار : لا ترتجلوا .. دعونا
نعمل في هدوء !!

وسنرى إذا كان في الامكان زيادة الملايين السبعة ، أم لا ، كما سنرى إذا كان
ماء النهر يكفي لكل زيادة محتملة أم لا ، مع العلم بأن كمية الماء الذى يحتاج اليه برنامج
مكدونالد هي ٥٥٠ مليار من الأمتار المكعبة سنويا .

● الأرض القابلة للزراعة في مصر كثيرة ، أكثر من السبعة ملايين ، ومن التسعة
ملايين ، ويمكن أن تقدرها بضعف هذه المساحة .. مؤقتا .

وذلك لأن مصر كانت قبل بضعة قرون تزرع مساحات أوسع من المساحات الحالية
ولم يكن أهل الزمن الماضى سحرة ، ولا انصاف آلهة حتى ينبت زرعهم فى الصخر ،
أو ينمو من غير ماء .. لا ولكنه كان ينبت فى أرض خصبة قابلة للزراعة ، ماؤها موفور .
ومن الخير ، بل من الواجب أن يدرس سادتنا رجال الرى التاريخ القريب للأرض
المزروعة فى مصر ، ففيه البيان لما نريده ، وتريده البلاد منهم .

ولنذكر الآن بعض الحقائق اليسيرة عن المساحات الخصبية الكبرى التى حولتها
عهود الانحلال إلى أرض غامرة علاها الرمل ..

لنذكر أن شمال صحرائنا اللوية الغربية ، ما بين الاسكندرية وبرقة كان مزروعا ،
وكانت فيه مدائن مزدهجة بالسكان كثيرة العدد ، وكانت بساكنيه مضرب المثل فى وفرة غلتها .
ولنذكر أيضا أن قسما كبيرا من سيناء كان يزرع ، وكان يغل حاصلات طيبة ..
وهذا هو الدليل :

١ — يذكر المؤرخون أن الفتح العربى أقبل على مصر ، ومنطقة « بنطابوليس »
غرب الاسكندرية كانت أهلة بالسكان والزراعات .

يقول « بتلر » فى كتابه الشهير عن فتح مصر ، « إنه ليس شئ أبعد عن الحق من
أن يقول قائل إن الطريق إلى غرب مصر كان يشق فيا فى قاحلة . فلدينا من الأدلة
ما يذكر صريحا أن كل أرض الساحل الواقعة إلى غرب مصر بقيت أهلة يزكو بها الزرع
حتى مضت قرون ثلاثة من الفتح العربى (أى منذ الف سنة)

ويذكر المؤرخ العربى « المقرئى » أن مدينة لويه قاعدة لأقليم يقع بين

الاسكندرية ومراقية . وذكره لذين الاسمين على هذه الصورة يدل على أن الاسمين القديمين « لوبيا » و « مرميقا » ، قد بقيا فى اللغة العربية ، لم يكدا يعتريهما تغيير . وقال المقرئزى فى موضع آخر إن أقليم « بنطابوليس » يبدأ بعد مدينتى لوبية ومراقية وكان بأقليم لوبية ٢٤ مدينه ماعدا القرى الصغيرة . ووصف المقرئزى مراقية بقوله :

« مدينه مراقية كورة من كور مصر ، وهى آخر حدأراضى مصر . وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس (بنطابوليس) وهى برقة ، وبعدها عن مدينه « سنترية » نحو من بردين (٢٤ ميلا) ، وكانت قطرا كبيرا به نخل كثير ومزارع ، وبه عيون جارية وبها إلى اليوم بساتين متعددة ، وأقل ماتنبت تسعون سنبله . وكذلك الأرز بها ، فانه جيد زاك . وبها إلى اليوم بساتين متعددة . فلما كان شوال سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) جلا أهل لوبية ومراقية إلى الاسكندرية خوفا من حاكم برقه ولم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا ، وبها بعد ذلك بقية جيدة ، وهذه البقية كانت موجودة إلى عام ١٤٠٠ م أى منذ ٥٠٠ سنة فقط .

ثم ذكر « بتلر » أن منطقة مريوط كانت عامرة بأزكى الزراعات ، وما زال تحت رملها غرين يؤيد خصبها القديم .
٢ — كان فرع النيل البلوزى ، فى العهد الفرعونى يصل إلى سينا (شرق قنال السويس) ويكون دلتاه ومصبه فى هذه المنطقة .

وقد درس المهندس على بك شافعى هذه المنطقة ، واستغل هذه الحقيقة التاريخية وخرج منها بمشروع هام يستطيع أن ينقل به ماء النيل تحت القنال ليعاد زرع المناطق الخصبه من سينا مرة أخرى ، كما تستصلح فى الطريق مساحات هامة من الأرض البور فى المنزلة وحوها تزرع أيضاً .

٣ — ومن المحقق أن المنخفضات الكثيرة فى الصحراء الغربية ، التى تقع فى بطنها الواحات صالحة للزراعة . ومن الممكن بعد تقدم علم الميكانيكا والكهرباء هذا التقدم الهائل ، أن ترفع المياه من مجرى النهر ، وأن تسير فى فروع جديدة للنيل تحترق

وسط الصحراء الليبية مارة بهذه المنخفضات حتى تصل إلى المنخفض الأعظم في الشمال وهو منخفض القطارة.^(١)

وقد ذكر أن الألمان كانوا قد أعدوا مشروعاً ضخماً يقضى بحفر نيل صناعي تجمع مياهه من خط تقسيم المياه بين النيل والكونجو، ويمتص الضائع في مناطق السدود وبحيرة شاد، ويروى صحراء ليبيا، ويحولها إلى مزارع عظيمة من القمح. وإذا لم يكن للألمان الحق في تنفيذ هذه المشروعات - وهو ليس لهم قطعا - فهل ندعى نحن أبناء النيل أن لنا الحق في أن ننقل الماء الضائع في خط الاستواء، والماء المصبوب في البحر المتوسط إلى صحارينا لكي تتحول إلى جنات يانعة ؟ !

٤ - لقد أصبحنا الآن في عالم الذرة، وفي عالم القوى الهائلة التي ينتجها شق الذرة. فهل يعيش مهندسونا قليلا - ولو في الخيال الذي أصبح حقيقة الغرب - ليصوروا لنا برنامجا قويا جريئاً يحصى ماء خط الاستواء، وماء الحبشة مترا مترا، وكدت أقول قطرة قطرة، ثم يرسمون برنامجا للمستقبل، يختلف عن البرنامج الهزيل الذي رسمه لنا السر مردوخ مكدونالد من ربع قرن ؟ !

- ٢ -

المشروع الكبير

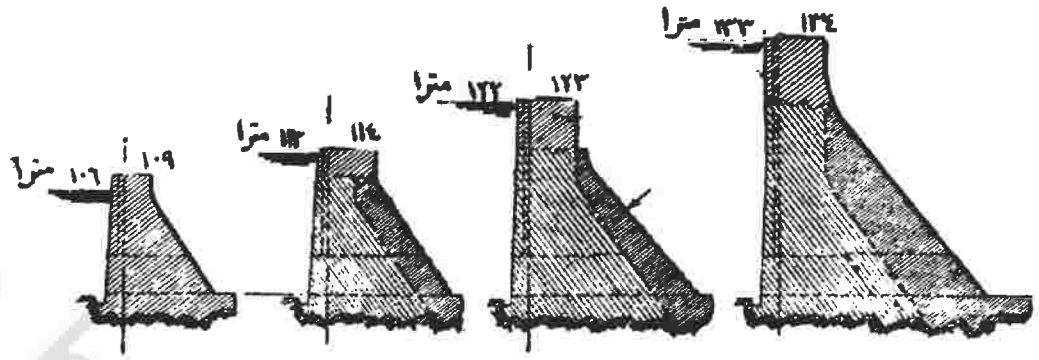
مشاريع الري الكبرى هي :

■ تلمية خزان اسوان تلمية ثالثة . وقد أعد هذا المشروع عام ١٩٣٢ ، ولكنه ظل راقدا في ملفات وزارة الاشغال حتى تصادف وجود السرمدوخ مكدونالد عرضا في مصر فطلب منه أن يدرس الوسائل لتنفيذ هذه التلمية . ولاتزال هذه التلمية مضطربة بين الاقرار والالغاء .

والمشروع في ذاته خطير ، اذ يضاعف كمية المخزون وراء اسوان من ٥ مليار متر مكعب الى ١٠ مليارات اوتنحوها . وقد وضع المشروع على أساس درء خطر الفيضانات العاليه عن مصر على أن يتممه مشروع وادي الريان لتصريف الماء الزائد .

ولا تعرف بالضبط مواسم الفيضانات العاليه والفيضانات المنخفضة . ولكن مصر تواجه الآن جملة فياضانات منخفضة قد تنتهي في اى وقت . وبمراجعة ماحدث من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٣٧ يتبين

(١) ذكر المهندس ليب نسيم في مجلة العمارة تاريخ فرع قديم لنيل كان يخترق منتصف صحراء لوييا قريبا ماراً بمناطق الوحدات وأكد إمكان احيائه من جديد



التلية الثالثة المقترحة بعد التلية الثانية جد التلية الأولى الحزان الأصلي
١٩٤٥ ١٩٣٣ ١٩١٢ ١٩٠٢

انه في السنوات الثلاثين الأولى (حتى ١٨٩٨) حدث ١٩ فيضانا خطرا . وفي الثلاثين التالية حدث ٦ فيضانات خطيرة . ومنذ سنة ١٩٣٧ حدث فيضانان من النوع الذى قد يدل على اماكن ابتداء فترة الفيضان العالى .

ولا تقصر فائدة التلية الثالثة على درء هذا الخطر ، ولكنها أيضا توفر كمية عظيمة من الماء ، بان تضاعف فائدة الحزان في وضعه الحالى .

■ انشاء خزان « مروا » بالقرب من الشلال الرابع ، ولا يزال هذا المشروع قيد الدراسة وستظهر نتائجه في الشتاء القادم (١٩٤٥) وذلك لأن وزارة الاشغال ذكرت ان مهندس رى السودان سيقدم تقريره عنه « بعد عودته من اجازته »

■ انشاء خزان « طانا » في قبة الجبال الحبشية وتقدر كمية المياه التى يدخرها هذا الحزان لمصر بـ ٢٣٠٠ مليون متر مكعب

■ يضعف في منطقة السدود كل عام نصف الماء الذى يمر بحر الجبل وقد اقترح السير جارستون في تقريره عن اعلى النيل أن تشق قناة من بلدة بور الى بحيرة نو ، وبذا يمكن تغذى منطقة السدود . وقد وضع هذا المشروع في اوائل هذا القرن ، ولكن حدث في سنة ١٩١٧ ان مياه مجرى النيل قاضت واتبعت مجرى اسمه « ففينو » حتى وصلت الى النيل الأبيض عن طريق نهر بيبور والسوبات وربما كان اتخاذ هذا الطريق اوفر من القنطرة المستقيمة . وما تزال وزارة الاشغال تطلب النظر بين المشروعين ، ونرجو الا يطول تحديقها فيهما

■ خزان بحيرة البرت :

إذا اقيم سد عند بلدة « بنيامور » على مدخل البحيرة ، يرفع منسوبها من ستة الى سبعة أمتار فانها تخزن زيادة على مائها خمسة مليارات ونصف مليار من الأمطار المسكبة .

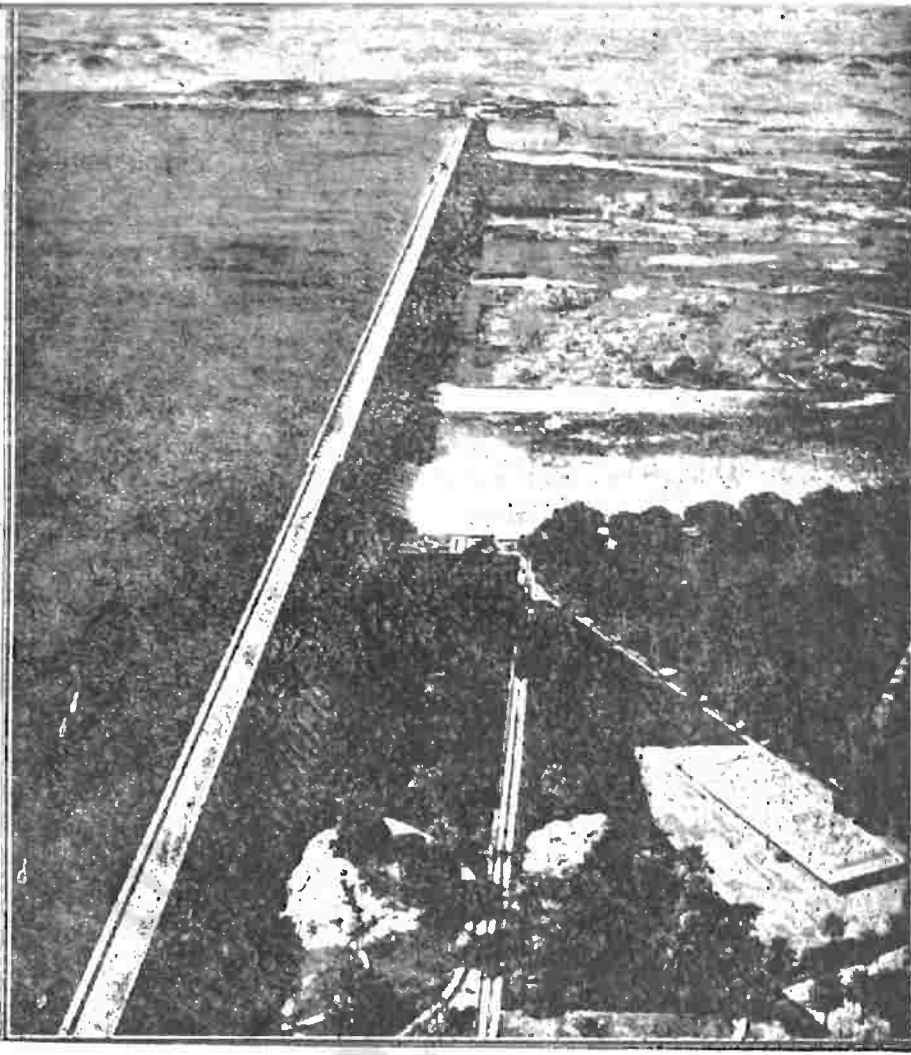
■ خزان فكتوريا نايانزا

أظلم خزانات المياه في العالم . ومن الواجب أن تدرس الاستفادة من ماء البحيرة على نطاق كبير . وضبط تصريف البحيرة ينتج نتائج هائلة جدا . اذ أن كل سنتيمتر ونصف يزيد على المنسوب أو ينخفض منه يتيح لنا مليارا من الأمطار المسكبة . أى اننا نستطيع أن نحصل على كل ما نريد من ماء لرى الصحارى ورى السودان كماه باقامة سد وحفر مصب البحيرة في النيل .

■ وإلى جانب هذه المشروعات يوجد أيضا مشروع عظيم وهو تخزين مجرى نهـ السوبات لكى نحصل على كل مائه .

هذه المشروعات التي
تسيطر على ماء النيل يجب
أن تكون عقيدتنا الوطنية
الجديدة ، ويجب أن
يتلقها العبي بمجرد أن
ينمو ادراكه ، ويجب أن
يرمقها كل مواطن يعيش
في حوض النيل كما يرمق
أعز ما يعيش عليه ويطمح
إليه في الحياة . .

ومن الواجب: واجب
الأبوين في البيت، وواجب
المدرس في المدرسة
الابتدائية ، والمدرسة
الثانوية والمتوسطة ،
والجامعة كلياتها ،
وواجب الصحف ،
وواجب الكتاب ،
وواجب الشعراء ،
وواجب الموسيقيين ،
وواجب الاذاعة .
وواجب كل متصل باعداد

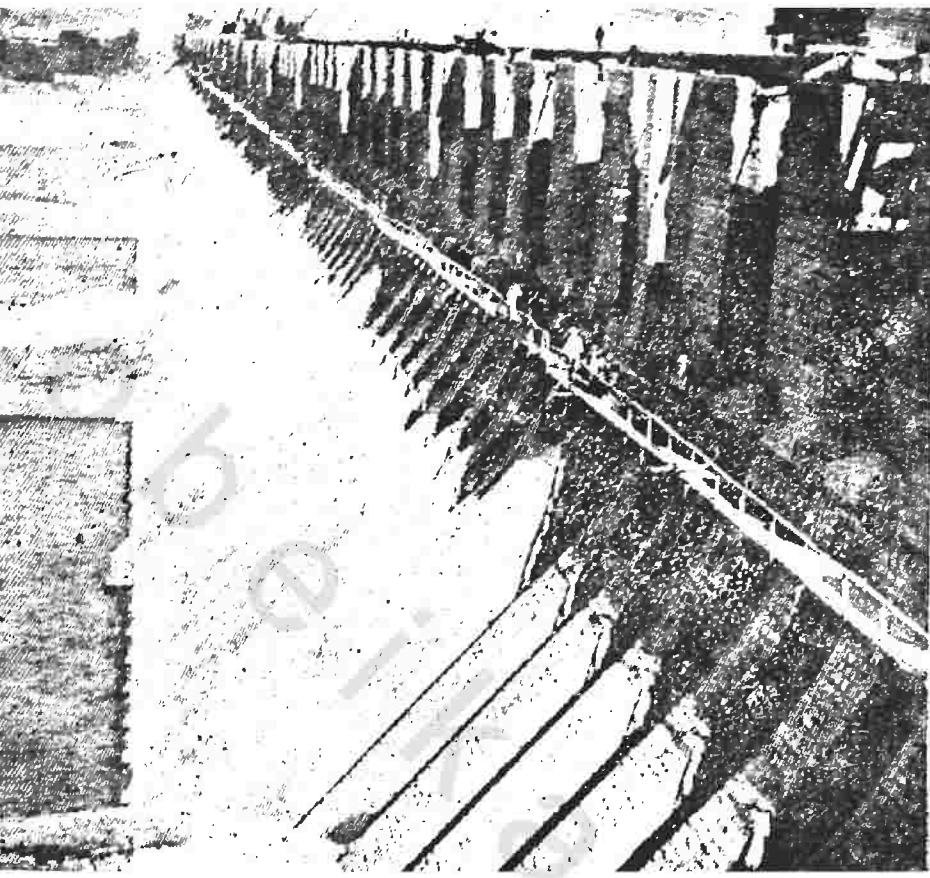


صورة جميلة لخزان اسوان كما يرى من طائرة

ارأى العام . . حتى وزارة الأشغال . . واجب هؤلاء جميعا ألا يتركوا ذنبا ، ولا يهملوا وسيلة من
وسائل الشرح والايضاح ، الاستعملوها ليعلم الجميع نيلهم ، وليحصوا ماءه ، وليقدروا الوسائل
للاستفادة منه ، وليحصوا الأيام لنتم لهم الفائدة كاملة غير منقوصة .

■ وقد سمعت من وزارة الأشغال ومن غيرها أن بعض الهيئات الاستعمارية تنذر بوجود سلطات
مؤقتة لها في منطقة البحيرات لكي توجب استشارتها في عمل مشايع النيل ، وتؤدي الاستشارة دائما إلى
وجود عراقيل ، ووجود متاعب . وما أسهل أن يتوقف كل اصلاح يكلف المسؤولين في مصر بعض
المتاعب . . فمثلا تعارض أوغنده في أن نحصل على نصيب اكبر من ماء بحيرة فكتوريا لأنها في حاجة
إلى الماء ، ولكن لان لها بعض قرى تسمى موانئ على الشاطئ إذا انخفض منسوب البحيرة لا تصبح
موانئ !! .. وتنادى بعض الصحف الاستعمارية بضرورة استشارة تنجانيقا وأوغنده والكونغو قبل
أن تحقق مصر مشاريعها الكبرى في منطقة البحيرات !!

على كل حال يجب أن تطرح هذه المشكلة على بساط البحث ، ويجب أن يكون وراءها الرأي العام
المصري والرأي العام السوداني ، ليدعم جهود المختصين في الظفر بحرية العمل في منطقة السباع حتى
تتاح الفرصة لتحقيق سيطرة أبناء النيل الثامة ، على كل أرض يجري فيها ماء النيل . . . وليس على الله
بعيد أن يتم هذا ، فقد كان تاما ناجزا قبل خمسين من السنين !!



● ولا تقتصر جهود مصر لاستئناس النيل على السيطرة التامة على مائه ، والماء الاستوائى كله الماخل فى جوف النيل ولكن هناك مشروعات آخران على أعظم جانب من الاهمية ، وهما أولا - استخدام كهرباء المسافات من الخزانات ومن الشلالات : والشلالات فى مخارج النيل كثيرة ، وفى الإمكان أن تولد قوى كهربائية عظيمة لا تقل عن قوى شلالات نياجرا ولا سيما أنها تمتد الى مسافات بعيدة من مخارج البحيرات الجنوبية ...

التعليق الثانية لخزان أسوان وكيف تمت

كما أن الخزانات الصناعية كلها قابلة لان تولد منها الكهرباء ، ولو أن خزان اسوان هو وحده الذى يفوز الان بأعظم حديث عن استخراج كهربائه .

ثانياً — تهديد النيل للملاحة النهرية ، فى مناطق الشلالات التى لاتقام عليها خزانات إذ توجد فى مجرى النهر أميل كثيرة من الصخور يجب الاستمانة بالفرقات الحديثة مثل الجليبيت وغيره لازالتها تماماً ونظن بعد اكتشاف أعظم قوة تدميرية وهى المفرقات الذرية ، لا يوجد عذر لابقاء هذه العوائق الطبيعية فى مجرى النهر ، حتى يتيسر للملاحة ، وحتى تنقل الحاصلات على سطحه السهل الوديع بأقل نفقة . كما أنه سيكون متعة للسفر والزهة ما بعد ما متعة .

ويقضينا هذا التفكير الاشارة إلى ما سبق أن رددناه ، وهو ضرورة العناية بأسطول مصر النهرى المسلح والتجارى — فان احوال هذه الوسيلة من وسائل الدفاع والنقل ، من أشد ضروب التخصير باعنا للحسرة والندم .



وأخيرا نرجو أن نكون قد عرفنا أبناء النيل بالنيل ، أو بالقليل حبنا إلى أبناء النيل أن ينصوا بالنظر فى صفحات حياة نهرهم العظيم ، فهذا حقهم عليهم ، ولقد أدبنا فى هذا الباب بعض الواجب ، ونرجو أن يتابع غيرنا السير فى نفس الطريق ... والله المستعان .

النيل في سطور

- طول نهر النيل من منابه عند بحيرة تنجانيقا للبحر الأبيض المتوسط يبلغ حوالى ٦٥٠٠ ك. م (نحو ٤٠٠٠ ميل).
- ينطلى نهر النيل مساحة مقدارها ٢٩٠٠٠٠٠ كم مربع ، وهذه المساحة تعادل ثلاثة أعشار مساحة أوروبا . وبدأ مسيره من خط العرض ٥° جنوب خط الاستواء وينتهى في الشمال عند درجة ٣١°
- يجري النيل في مناطق من الأرض تحمل الأسماء السياسية الآتية :
١- تنجانيقا ٢- كينيا ٣- الكونغو البلجيكية ٤- الحبشة ٥- يوجندا ٦- السودان ٧- مصر
- يحمل نهر النيل ٢٠٪ من كمية مياه الأمطار التي تسقط في منابه ، والباقي يضيئ بالتبخر والتسرب في باطن الأرض عن طريق الامتصاص .
- تستمر أمطار خط الاستواء في تدفقها من السماء نحو ٦٠ يوما من أواخر فبراير إلى أوائل مايو ، و ٦٠ يوما أخرى من أكتوبر (بين أوله ونصفه) إلى ديسمبر (بين أوله ونصفه) .
- بحيرة فكتوريا أكبر بحيرة عذبة في الدنيا القديمة وطولها من الشمال إلى الجنوب ٢١٥ ك. م ومساحتها ٢٤٦٠٠٠ كم. م وتحيط بها مناطق لها أسماء سياسية هي يوجندا ، وكينيا ، وتنجانيقا ، وعمقها يتراوح بين ٤٠ مترا و ٧٠ مترا .
- يصب في بحيرة فكتوريا ١٥ نهرا أهمها كاجيرا وطوله ٨٢٥ ك. م يمد البحيرة بماء تصرفه من ١٤٠ إلى ٦٠٠ متر مكعب في الثانية .
- النقطة التي يخرج منها ماء البحيرة إلى النيل . ساقط صخرية اسمها « ريون » ، وعندها يبدأ نيل فيكتوريا .
- وتعترض النهر أول ميلاده من البحيرة عوائق كثيرة هي :
- ١ — مساقط أورين الصخرية التي تمتد حتى بلدة ناسجالي ٢ — ثم يمر في بحيرتي كيوجا وكوانيا
- ٣ — ثم يمر بيور مسندي واتوره ٤ — ثم يصطدم بمنحدرات فويرا
- ٥ — ثم يصل إلى مساقط مرشيسون العظيمة ، ويظل يتدفع بينها صاعدا هابطا في ارتفاعات تتراوح بين مترين و ٢٥٠ مترا .
- ٦ — ثم ما يلبث النهر حتى يسير هادئا وديما في مجرى صالح للملاحة بالقوارب حتى يصل إلى بحيرة البرت .
- كشفت هذه البحيرة سنة ١٨٦٤ وهي التي يراد اتخاذها خزاناً للماء . ومساحتها ٥٣٠٠ كم. م وطولها ١٧٥ كم. م وعرضها ٤٥ كم. م وعمقها بين ١٨ و ٣١ مترا وأكبر الأنهار التي تتصل بها هو نهر سيليكي .
- ونهر سيليكي هذا يحمل ماءه من بحيرة ادوارد المرتفعة ومساحتها ٢٢٠٠ كم. م
- ويخرج بحر الجبل من بحيرة البرت ، ويسير نحو ٢١٨ مترا حتى يصل إلى بلدة نمولى وبالقرب من هذه البلدة تقع الحدود السياسية بين منطقتي يوجندا والسودان .
- ومن نمولى تتصدر الملاحة في مجرى النهر لكثرة المساقط والمنحدرات حتى يصل إلى الرجاف ومن الرجاف يسير حتى منجلا ، ثم بور .
- ومن بور إلى شبي توجد أعظم مناطق السدود المكونة من البردى والحشائش المائية التي تعوق سير الماء ويرتفع ويطنى على الجسور الرملية ويتسرب إلى المستنقعات القريبة الهائلة .
- وبحجم طول بحر الجبل من بحيرة البرت إلى السوبات ١٢٨٧ كم. م

■ ويتفرع من بحر الجبل شمال شبي إلى الشرق بحر الزراف ، ويسير ٨٠ ك. م حتى يلتقى ببحر الجبل عند بحيرة نو .

■ عند بحيرة نو أيضا يتصل ببحر الجبل فرع هام هو بحر الفزل . وتوق سيره الحشائش ولم يدرس حوضه دراسة وافية جد مع أهميته الكبيرة .

■ ويواجه بحر الفزال من الشرق فرع هام جدا هو السوبات . وعند النيل الأبيض مدة فيضانه بألف متر مكعب في الثانية وقد تصل إلى ١٥٠٠ متر . ولهر السوبات فرعان هما بارو ، وبيبور .

■ وعند ملتقى السوبات بالنيل يبدأ النيل الأبيض متجها نحو الشمال حتى يصل إلى الخرطوم قاطعا في مسيره ٨٤٨ ك. م وهو قليل الأغوار متسع المجرى حتى يشبه البحيرة ويتراوح عرضه بين ٣٠٠ و ٥٠٠ مترا . ويزيد بعد منتصفه إلى ٨٥٠ مترا .

■ وتقع بلدة الملاكال على بعد ٣٣ مترا من ابتدائه وعندما محطة وزارة الأشغال ويبلغ تصريف الصيف بين ٥٥٠ و ١٥٠٠ مترا مكعبا في الثانية .

■ ولكنه عندما يصل إلى الخرطوم يزيد تصرفه إلى ١٧٠٠ مترا مكعبا في حده الأعلى . وهذه ظاهرة غير منطقية عند النظرة الأولى إذ أن سير النهر مثبات عديدة من الكيلومترات منذ سيره ، وعدم وجود روافد تنفذه كان حريا أن يفقده الكثير من مائه في الطريق ، ولكن النيل الأزرق هو لذى يؤدي إلى هذه النتيجة إذ أن جريانه السريع وتدفعه في النيل يحجب وراءه ماء النيل الأبيض ، وبهذا يكاد النيل الأزرق يستقل بامداد النيل بالماء في شهرى أغسطس وسبتمبر ، حتى اذا أخذت الأمطار تقل وماء الأزرق يقل ، بدأ النيل الأبيض يغذى الشمال ابتداء من شهر أكتوبر .

■ ويبلغ أقصى تصرف النيل من ماء البحيرات الاستوائية ٢٧٥٠ مترا مكعبا في الثانية ، وذلك عند منجلا . وفي نفس السنة التي قدرت فيها هذه الكمية ، كان أقصى تصرف النيل عند الملاكال ١٩٤٠ مترا فكان منطقة السدود قد استهلكت الفرق بين الرقين ، وهو فرق عظيم جدا .

■ ويبلغ متوسط ما يفقده النيل في منطقة السدود ٠.٥٤ / من الماء .

■ ومن حسن الحظ أن النيل الأزرق لا يعاني صعوبة تسرب مائه ، وإلا كانت مصر تعاني كارثة محققة . وهو يخرج من بحيرة « طانا » ويستمد منها ١٠ / من مائه وبعد هذا تصب فيه نهيرات كثيرة تكل ماءه .

■ والنيل الأزرق غضوب عنيف يجرى بسرعة السيل المتدفق ، وكانت هذه الحدة سبب خير لمصر إذ حمت طين الجبال الحبشية على سطحه إلى التربة المصرية .

■ يبلغ طوله من طانه للرصيرص ٩٧٥ ك. م

» » من الرصيرص لسنار ٢٨٨ »

» » من سنار للخرطوم ٣٩٠ »

فيكون مجموع طوله ١٦٥٣ »

■ وعلى بعد ١٦ ك من بحيرة طانا يبدأ نهر عطبرة مسيره ، وبعد جرى شديد جدا مسافة ٨٨٠ ك. م يلتقي بالنيل عند عطبرة على مسافة ٣١٠ في شمال الخرطوم . وكية الطمي التي يحملها أكثر من الكمية التي يحملها النيل الأزرق .

■ ومن الخرطوم إلى أسوان يسير النيل ١٨٨٥ ك. م وعمر النيل خلال هذه المسافة بست شلالات

■ ومن أسوان إلى قناطر محمد على شمال القاهرة يقطع النيل ٩٦٨ مترا . ومتوسط عرض النهر ٩٠٠ مترا

■ ومن قناطر محمد على إلى البحر المتوسط ينقسم النيل إلى فرعى دمياط ورشيد ومتوسط طوله مسافة كل منها ٢٣٦ ك. م

فهرست الموضوعات

صفحة	الرقم	صفحة
١٤١ حواشي افندي	٣	الرقم
١٤٩ في ٢٠٠ الرخ	٥	المقدمة
١٧٩ مصر والنيل	٤٧	«شيء» من الخوف والمجدع
١٧٩ بحيراتنا وارضنا	٤٧	عتاب بين عاصمتين
١٨٦ المشاريع الكبرى	٨١	عرض ورد
١٩٠ النيل في سطور	٨٩	مدينة تدبج
	١٠١	الاسير
	١٣٠	الفرج

فهرست الصور

صفحة	صفحة
١٤٠ خريطة	٩٨ غردون باشا
١٤٣ زنوج إرستقراطيون من سكان	٩٩ ابراهيم باشا فوزي
مديرية خط الاستواء	١٠٠ طريقة الجلد للحصول على المال -
١٤٤ منظر فريد لوحيد القرن وهو	في عهد المهدي
يهاجم فرسا	١١٢ المهدي
١٥٦ البكباشي حواش افندي منتصر	١١٣ احدى طرق صيد الفيل في السودان
١٦٦ امين باشا	١٢٠ فوزي باشا في سجنه
١٦٧ فينا حسان	١٢١ فوزي باشا وابنه وشارل نبوفلد
١٧٧ تعليقات خزان اسوان	يتناولون طعام السجج
١٨٨ التعاية الاولى لخزان اسوان	١٣٤ عند ما سقطت الخرطوم في
١٨٩ التعاية الثانية لخزان اسوان	يد كمنش

طبع الكتاب بمطبعة الرغائب بمصر